

فلاح مصر عبر التاريخ

محمد السيد أيوب



فلاح مصر عبر التاريخ

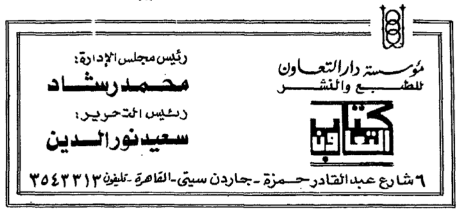
محمد السيد أيوب

الغـــلاف :

الفنان : جميل شفيق

سكرتير التحرير التنفيذى :

نزيه عبد الغنى



مؤسسة دار التعاون
للطبع والنشر

كتاب التعاون

رئيس مجلس الإدارة:
محمد رشاد
رئيس التحرير:
سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرحيمِ

الإهــــداء

إلى . . .

فلاح مصر

ذكرى أبي وأمي وزوجتي

قريتي كفر أيوب

مصر

وفاءً لبعض الدين

١٩٨٦ م = ١٤٠٧هـ

محمد السيد أيوب

المقدمــــــة

المرحوم المهندس محمد السيد أيوب كان من أبرز الخبراء الزراعيين الذين أنجبتهم أرض مصر ووضع علمه فى خدمة عمله . . وكان رحمه الله نموذجا للوطنية المخلصة ، فلم يأل جهدا فى العمل الدائب فى جميع المواقع التى شغلهامن أجل تحقيق أهداف سياسات التنمية الزراعية الشاملة . .

وقد ساهم المرحوم المهندس محمد السيد أيوب من خلال عضويته بالمجالس القومية المتخصصة مع زملائه فى شعبة الإنتاج الزراعى والرى ، فى إعداد العديد من الدراسات العلمية المتكاملة التى تناولت شتى قضايا الإنتاج الزراعى خاصة مايتصل بتطبيق الأساليب العلمية الحديثة فى استصلاح الأراضى واستخدام الهندسة الوراثية لزيادة إنتاجية الأرض من المحاصيل المختلفة ووضع الخطط المستقبلية التى تكفل توفير الأمن الغذائى . .

وإنه ليسعدنى أن أقدم هذا الكتاب (فلاح مصر عبر التاريخ) الذى وضع فيه خلاصة خبراته وتجاربه فجمع بين الجانب الأكاديمى والتطبيقى ولكن وافته المنية قبل إصداره .

كما أشكر زملاءه وأصدقاءه الذين حرصوا على نشره بعد وفاته وحتى يكون بين أيدى القراء من المهتمين بهذا الموضوع الهام بالنسبة للزراعة المصرية . .

وكما يقولون فإن الذكرى للإنسان عمر ثان ولاشك أن هذا الكتاب سيكون أفضل ذكرى للفقيد رحمه الله وأسكنه فسيح جناته . .

دكتور محمد عبد القادر حاتم

١٩٩٢/١١/٢٥

هذا الرجل .. وهذا الكتاب

عرفته عليه رحمة الله وبركاته منذ مايقرب من ثلاثين عاما هناك فى اقصى جنوب مصر ، فى أسوان كان لقاؤنا الاول . . وتوثقت الصلة والروابط والصداقة والأخوة مع الزمن فازددنا مودة ومحبة وإعزازا وازددت له تقديرا واحتراما وإجلالا . . وعلى امتداد السنوات حتى سبقنى إلى رحاب الرحمن الرحيم ... ومنذ لقائنا الأول وحتى اللقاء الأخير قبيل وفاته بأيام قلائل كان هو كما عرفته دائما . . عرفت فيه الإيمان والصدق والخير والعلم والكرم والمودة والشجاعة والطهارة والنقاء والحب . . كان ـ رحمه الله ـ وكأنما مجمع للفضائل فى زمن ردىء بأهله ، كسدت فيه سوق القيم والفضائل لقد كان هذا الرجل من النوع النادر من الرجال ، وكأنما من البقية الباقية من القلة الفاضلة التى اراد الله لها ان تظل فى كل العصور لتكون برهانا على صدق الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام حينما قال : (الخير فى وفى أمتى الى يوم القيامة) .

وفى تمام الساعة الرابعة يوم السبت ٣١ مارس ١٩٨٧ الموافق ٢١ من رجب ١٤٠٧ هـ فقدت مصر وفقد الوطن العربى والإسلامى واحدا من هذا النوع النادر من الرجال ، صعدت الى بارئها روح طاهرة نقية ، جمع صاحبها ـ ولا أزكيه على الله ـ أو على وجه أصح ـ أراد الله له ان يجمع من الفضائل ماندر ان يجتمع لانسان وخاصة فى مثل هذا الزمان . . صعدت الى الحق بالحق روح إنسان احب الحق وحرص على ان يحق الحق ويقف ضد الزيف والباطل طوال حياته ، ومع تواضعه وبساطته وأدبه الجم كان يملك دائما الكلمة الشجاعة وشجاعة الكلمة . . كلمة الصدق والعلم والحق . . لقد كان وكأنما صاحب رسالة حملها طوال حياته فى كل أعماله وكل مواقفه وكل كتاباته وكل كلماته . . حملها وأدى واجبه دائما بشجاعة الفرسان وشق طريقه بايمان العارفين وسار على درب العلماء . . فأشاع العلم والمعرفة . . والمودة والمحبة أيضا فى كل مكان حوله .

وفى اليوم التالى فى بلدته كفر أيوب (مركز بلبيس ـ شرقية) التى صنع منها قرية نموذجية ومركز إشعاع ثقافى وروحى وحضارى ـ كان المشهد رهيبا مهيبا . . لم أشهد مثيله فى حياتى إلا نادرا . . عشرات الألوف جاءوا مسرعين ، من القاهرة والزقازيق

ومدن وقرى محافظة الشرقية وألوف أخرى خرجت من بيوت كفر أيوب شيبا وشبابا وأطفالا ونساء يودعون الأب الاكبر شكرى أيوب ودموعنا ودموعهم تنهمر . . فلقد كانت الفجيعة فيه كبيرة . . ومع بعض أحبائه الاخوة الزملاء محمد رشاد وسلامة أبو زيد واحمد مصيلحى ومصطفى العيارى كنت وإياهم نسير حزانى وسط موكب رهيب حزين وراء الجثمان الطاهر للأب العزيز والأستاذ الفاضل الذى رحل عنا ونحن اشد مانكون حاجة إليه . . واشتياقا له . . ونرجو ان يكون لقاؤنا معه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

•••

مات شكرى أيوب - أو طبقا لاسمه الرسمى محمد السيد أيوب . . الزراعى المصرى الكبير والعالم الجليل والرجل ذو التاريخ الوطنى المشرف ، فينشر نعيه فى صفحة الوفيات فى سطور نعى مدفوعة الأجر ، وباستثناء هذه السطور وسطور نعى شعبة الزراعة بالمجالس القومية (مدفوعة الأجر أيضا) وسطور خبر محدود تفضل بنشرها صديقى وأخى جلال عيسى بجريدة الاخبار بعدما أبلغته النبأ فى وقت متأخر ، وطبعا باستثناء ما كتبناه نحن فى (جريدة التعاون) بقلم الاخ محمد رشاد وفى (المجلة الزراعية) فيما بعد - باستثناء ذلك خلت صحفنا المصرية جميعا من كلمة عزاء أو رثاء او تقدير لهذا العملاق العظيم الذى رحل عنا فى صمت . . مثلما حدث تماما - وأذكر جيدا - حينما رحل الرائد التعاونى الثانى والاكبر الدكتور إبراهيم رشاد . . وكأنما خرست الاقلام . . كما خرست الإذاعة المسموعة والمرئية والتى سجلت له وأذاعت من قبل الكثير . .

وياللأسى . . لو أن مطربة أو (فنانة) من الدرجة الثانية أو الرابعة توفيت لنشر النبأ فى الصفحة الأولى ، ولانبرت الأقلام ولامتدت ساعات الإرسال على شاشة التليفزيون . . ولكن شكرى أيوب ليس فى حاجة لأن يكون مادة لأخبار ومقالات فى الصحف وأحاديث على شاشة التلفزيون ، وقد تعود ان يعمل فى صمت وفى الظل سنوات عديدة طويلة . . رغم انه قدم لمصر ولعدد من البلدان العربية وللعلوم والثقافة والتنمية الزراعية اجل الخدمات .

وبالإضافة إلى المناصب الرفيعة التى تقلدها مستشارا زراعيا فى بعض البلدان العربية ومديرا عاما لمكافحة الآفات بوزارة الزراعة ومديرا عاما للزراعة فى أسوان ثم فى الشرقية ومحافظا للشرقية ورئيسا لشعبة الزراعة بالمجالس القومية . . فقد ألف المهندس الزراعى محمد السيد أيوب أكثر من ٢٠ كتابا وأكثر من ٢٠٠ بحث ومقال علمى نشرت بالمجلة الزراعية وغيرها من المجلات المتخصصة ، ولكن يبدو أن كل ذلك لم يكن كافيا

بالقدر الذى يلفت نظر الصحف المصرية والتليفزيون المصرى للتحدث عنه بعد وفاته ولو بكلمات وفاء قليلة .. ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

•••

مؤلف هذا الكتاب (فلاح مصر عبر العصور) فلاح مصرى أصيل أبا عن جد ، ولد فى قرية كفر أيوب مركز بلبيس (شرقية) لأب مزارع ، ورغم أنه سلك طريق التعليم والعلم إلا أنه ظل دائما فلاحا مزارعا مرتبطا بالارض فالحا وزارعا لها حتى آخر أيام حياته ولم يفقد أبدا صلته بريف مصر ولابفلاحى مصر ولابزراعة مصر .. بل كان دائما بالفلاحين وبالزراعة وبالأرض مهتما ومهموما .

•••

ولد محمد السيد أيوب صباح يوم الجمعة الخامس من ابريل عام ١٩١٢ فى قرية كفر أيوب لأب فلاح متعلم آثر الفلاحة فى مساحة الارض التى ورثها عن والده (٤٢ فدانا) وكان محمد أكبر أخوته الذكور ، وعاش طفولته الأولى فى القرية وسط أسرة متدينة مترابطة وبدأ تعليمه فى كُتّابِ القرية الذى بناه جده وكان اسمه الرسمى (مدرسة السيد أيوب الأولية) ومكث فيه خمس سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم وأجاد اللغة العربية ثم دخل مدرسة بلبيس الابتدائية وكان ترتيبه الاول دائما وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية عام ١٩٢٦ إلتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية بالقاهرة ـ وكانت إحدى ثلاث مدارس ثانوية حكومية فى القاهرة كلها وقد وقع عليه الاختيار ليكون الطالب المثالى للمدرسة كلها وبعد اتمام الدراسة الثانوية إلتحق بمدرسة الزراعة العليا عام ١٩٣١ قبل ان تصبح كلية الزراعة جامعة فؤاد الاول (القاهرة الآن) وكان ناظرها ثم عميدها بعد ان تحولت إلى كلية الأستاذ محمود توفيق الحفناوى باشا الذى تخرج على يديه معظم كبار الزراعيين فى مصر ، وتخرج محمد السيد أيوب فى كلية الزراعة عام ١٩٣٥ وكان ترتيبه الثالث عشر ، ولم تكن بالجامعة فى ذلك الحين دراسات عليا ، ولكنه حصل على دبلوم معهد الإحصاء والعلوم الرياضية أول دفعة عام ١٩٤٩ ، ثم حصل على ماجستير من كلية زراعة عين شمس عام ١٩٦٩ وبعد تخرجه فى كلية الزراعة عين فى معهد بحوث الحشرات (لأنه كان قد حصل على أعلى درجة فى علم الحشرات) وكان مع زملائه يجرون بحوثا ميدانية على مختلف الحشرات وخاصة دودة ورق القطن اخطر الآفات المصرية واستمر فى هذا العمل حتى عام ١٩٥١ حينما انتدب عضوا فى بعثة زراعية توفدها مصر بالاتفاق مع منظمة الاغذية والزراعة للأمم المتحدة إلى الجزيرة العربية لمكافحة الجراد ، وبعد ستة أشهر أصبح رئيسا للبعثة لمدة عامين إلى أن اختارته

وزارة الزراعة السعودية ليكون خبيرا لها وعلى رأس جهازها الفنى ، وقد مكنه ذلك المنصب من الانطلاق والعمل دون قيود والتجول فى منتصف أنحاء المملكة السعودية والتعرف على جميع مناطقها وسكانها وتكوين روابط وثيقة مع الاهالى والمسئولين وتمكن خلال هذه الفترة من الاتصال بكثير من مراكز البحوث فى مصر وروما وباريس وألمانيا وانجلترا والولايات المتحدة وكندا والهند لزيادة معلوماته وثقافته الزراعية والبحث عن حلول علمية للمشاكل التى يصادفها فى الجزيرة العربية وهى بالطبع تختلف عنها فى مصر ، وقد أخبرنى أنه يعتبر فترة إقامته وعمله بالسعودية من أهم فترات حياته لأنها زادته خبرة ومعرفة وسعة أفق لاتساع دائرة الصداقة ، وكان يكتب فى الصحف اليومية ويحرر صحيفة زراعية ويكتب النشرات الفنية ويجرى البحوث والتجارب وتذاع أحاديثه فى الراديو ، وقد ألف هناك العديد من الكتب والبحوث والنشرات والمقالات ، وكان أكبر مؤلفاته هناك (الآفات وطرق مقاومتها) وقد كان هذا الكتاب الذى استغرق تأليفه ٤ سنوات أحد أسباب حصوله على جائزة الدولة للعلوم الزراعية فيما بعد عام ١٩٦٠ ، والغريب ان حصوله على جائزة الدولة التشجيعية هذه والذى صدر من المجلس الأعلى للعلوم تقديرا لبحوثه وكتبه ، وماتبعه من حفل تكريم أقامه له أستاذه محمود الحفناوى عميد الكلية السابق (ووزير الزراعة السابق ورئيس منظمة الأغذية والزراعة فى الشرق الأوسط) ، أثار هذا له الكثير من المتاعب فى مقر عمله الأول الذى عاد إليه فى مصر بعد ترك العمل فى السعودية رغم تمسكهم هناك به ، ففى معهد البحوث الحشرية تخطوه فى الترقية عدة مرات ثم أجروا تنظيمات جديدة وتركوه بلاعمل حتى المعمل الذى كان يعمل به أعطوه لغيره ولم يجد حتى كرسيا يجلس عليه ، وهكذا مكث بلا عمل ـ فى منزله ـ عامين كاملين ، ألف خلالهما كتابه عن (اليمن بين القات وفساد الحكم) ـ وحينما تولى الدكتور محمد نجيب حشاد وزيرا للزراعة وعرف قصته أصدر قراره بترقيته إلى درجة مدير عام لمديرية زراعة أسوان ، وفى أسوان أوائل الستينات إلتقيت به للمرة الأولى ، حيث رأيت بنفسى ماذا صنع هذا الرجل فى هذه المحافظة من نهضة زراعية شاملة وكيف اكتسب ثقة المزارعين وحبهم واحترام المسئولين جميعا ، وكنت أزور أسوان كثيرا وأقيم بها كل زيارة عدة أسابيع لأتابع عن قرب وأغطى لصحف التعاون ميدانيا مراحل بناء السد العالى وعمليات تهجير أهالى النوبة ومشروعات استصلاح الأراضى الجديدة فى النوبة الجديدة بكوم امبو وإدفو وغيرهما بمحافظة أسوان .

●●●

وهناك فى أسوان إزددت معرفة وقربا وصداقة بالمهندس الزراعى شكرى أيوب فوجدته من ذلك النوع من الرجال الذى كلما عرفته أكثر أحببته واحترمته اكثر ، فلقد كان إنساناً بسيطا متواضعا مرحا كريما خدوما (عشريا) ممتعا فى جلساته بما لديه من علم وفكر وخبرات وذكريات عن البلاد التى زارها أو عمل فيها وخاصة السعودية واليمن ، وقد كان يصحبنى وزميلى المصور فهمى عبد الصادق فى جولات فى مناطق أهالى النوبة حيث كانوا لصلته الطيبة بهم يحبونه ويثقون فيه يستضيفونا ويقدمون لنا الى جانب طعامهم وشرابهم فنونهم الجميلة ، كما اصطحبنا فى رحلات فى مختلف مناطق المحافظة وفوق مياه النيل العظيم لنستمتع بجزر أسوان الجميلة الغنية بالثروة النباتية النادرة التى كتب عنها بعض بحوثه ، وكلما كنت أزوره فى أسوان ، كان ـ كرما منه ـ يحرص كلما حضر إلى القاهرة أن يزورنى فى مكتبى بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ، وكان هنا وهناك يفيض على بعلمه وخبرته وآرائه الشجاعة المدروسة ، وكنت حريصا على متابعة الحركة النشطة غير التقليدية لهذا الرجل ، وأذكر من بين قراراته الشجاعة ـ التى سجلتها فى حينها على صفحات (التعاون) قراره بإلغاء زراعة القطن فى محافظة أسوان فقد كانت زراعته غير اقتصادية هناك ولكنها كانت إجبارية بحكم القرارات الفوقية العمياء التى ترسم خريطة الدورة الزراعية من المكاتب ، وركز اهتمامه على تعظيم إنتاج قصب السكر المحصول الرئيسى والأكثر جدوى إقتصاديا وزود مناطقه بالجرارات وأقام مركزا للتدريب والصيانة ، واهتم بالخضر كمحصول يمكن تسويقه شتاء بالقاهرة ، كما وضع نظاما لتسويق البلح تعاونيا وأنشأ مصنعا للألبان ومنتجاتها بكوم امبو ومحطة مواشى لتغذيته ، ونجح فى تصفية الخلافات بين المزارعين وشركة السكر ، كل ذلك شهدته بنفسى .ونشرت عنه حينذاك ، كما كتبت عن جهوده الفعالة فى عمليات تهجير أهالى النوبة فقد كان عضوا فى اللجنة العليا للتهجير ، ولم يفته الجانب العلمى فقد أصدر العديد من الكتيبات عن تمور أسوان والنباتات الطبية والأعلاف والنباتات البرية وألف عن هذه الفترة كتابا عن (مستقبل الزراعة فى أسوان) ولقد أراد الله أن يعوضه عن فترة الاضطهاد السابقة ، فقوبل عمله فى أسوان بالتقدير والتكريم فمنحته الدولة وسام الاستحقاق من الدرجة الثانية والميدالية الفضية لتهجير أهالى النوبة وميدالية ذهبية لتفوق أسوان فى الانتاج الزراعى .

وبعد ثلاث سنوات من العمل فى أسوان ـ ورغم تمسك أهالى أسوان به بشكل مثير شهدته بنفسى ، كان لابد وأن ينقل الرجل ، نقل مديرا عاماً للزراعة بمحافظة الشرقية حيث أحدث أولا ثورة فى نظام العمل ففتح باب مكتبه وألغى نظام توقيع الموظفين على دفاتر الحضور والانصراف وحدد لكل موظف قدرا مناسبا من العمل يسأل عنه فى فترة زمنية محددة يناقشه بعدها ، وأحبهم فأحبوه وتفانوا فى العمل بلا قيود روتينية للدرجة التى حصلت فيها محافظة الشرقية بعد عامين فقط على كأس التفوق فى الإنتاج الزراعى للمرة الأولى فى محاصيل القطن والذرة والقمح ، كما حصل هو على الميدالية الذهبية وتكرر ذلك فى السنة الثالثة ، وفى الشرقية أيضا كان صاحب فكرة ومشروع القرى الإرشادية كنظام جديد للارشاد الزراعى لم يكن معروفاً من قبل ، وبدأ تنفيذ المشروع فى خمس قرى محيطة بمدينة الزقازيق ، ونجحت نجاحاً باهراً .

ومرة أخرى بدأت متاعب الرجل حينما أراد أن يرشح نفسه لانتخابات نقابة المهن الزراعية نقيبا ، بناء على طلب زملائه وأحبائه الكثيرين ، وبدأت الأزمة حينما طلب منه محافظ الشرقية حينذاك أن يتنازل عن الترشيح ولكنه رفض الانسحاب نظرا لتأييد زملائه فى معظم المحافظات ، وكانت العقوبة غريبة وقاسية وقبل موعد الانتخابات بأيام ، فقد أبلغه المحافظ بصدور قرار بفصله من الاتحاد الاشتراكى ، وبذلك سقط حقه فى الترشيح بل وحقه فى مجرد عضوية النقابة لان عضوية الاتحاد الاشتراكى كانت هى (شرط الصحة) فى كل مكان فى مصر وسحبها بمثابة إعدام مدنى للمواطن . .

وهكذا وبعد ثلاث سنوات مديراً عاماً للزراعة بالشرقية أعيد الى القاهرة ليعين مديراً عاماً لإدارة مكافحة الآفات بوزارة الزراعة لثلاث سنوات أخرى تغيرت بعدها الأحوال وبدأت تباشير الحرية مع بداية حكم الراحل الكبير محمد أنور السادات . . وأجريت أول انتخابات لنقابة الزراعيين فى ذلك العهد ورشح محمد السيد أيوب نفسه نقيبا فحصل وحده على ما يقرب من ٩٠٪ من الأصوات وأصبح نقيبا للزراعيين .

وفى محافظة الشرقية طلب منه المحافظ الجديد صلاح مجاهد الذى جاء فى عهد السادات أن يرشح نفسه أمينا للاتحاد الاشتراكى بالمحافظة ، (رغم أنه عزل من الاتحاد الاشتراكى كلية منذ سنوات قليلة) . . وطبعا نجح بالتزكية وكذلك نجح فى رئاسة المجلس الشعبى بالمحافظة . . وهكذا بعد أن ترك المحافظة (معزولا) ومطرودا من منصب مدير الزراعة عاد إليها نقيبا للزراعيين وأمينا للاتحاد الاشتراكى ورئيسا للمجلس الشعبى بمحافظة الشرقية . . وبعد عامين فقط عين محمد السيد أيوب محافظا للشرقية ، وهو أول من عين من أبناء محافظة محافظا لها كأسلوب جديد بدأ فى عهد وزارة الدكتور عزيز صدقى الوزارة الأولى فى عهد الرئيس السادات . . ودخل حجرة المحافظ ليجلس على مكتب المحافظ الذى دبر له مؤامرة طرده منذ سنوات قليلة وسبحان من له ملكوت كل شىء . . هكذا قالها الرجل المؤمن وهو يدخل الغرفة ليتولى منصب محافظ الشرقية فى فترة من أعظم فترات تاريخ مصر . . حرب اكتوبر ٧٣ المجيدة والتى كان لمحافظة الشرقية فيها دور مشرف كبير . . وخلال عامين أنجز الرجل الكثير . .

وكما جاء دون أن يعلم كيف ولا لماذا . . أيضا بعد عامين خرج من المحافظة ، ومن كل المناصب السياسية . . واتجه كلية إلى محراب العلم الخالص . . ولم يقبل من الأعمال سوى عضوية المجالس القومية المتخصصة ، وكيلا لشعبة الإنتاج الزراعى التى كان يرأسها العالم الفاضل المهندس أحمد عبده الشرباصى ثم بعد وفاته أصبح العزيز محمد السيد أيوب رئيسا لها ، وقد أسعدنى وشرفنى بتزكيته وترشيحى لدى الدكتور عبد القادر حاتم المشرف العام على المجالس القومية الذى تكرم بإصدار قرار بعضويتى بالشعبة التى كانت فرصة لقاء منتظم لى معه إلى جانب لقاءاتنا فى منزله بمصر الجديدة وفى بيته الريفى بكفر أيوب وسط أرضه المزروعة بأشجار الموالح والفاكهة حيث كان يستضيفنى والأسرة كلما سمحت الظروف . . ولقد ظل الرجل باحثا دارسا قارئا كاتبا حتى لقى ربه . .

●●●

وكان ولايزال ـ (فالخير من عمل ابن آدم لاينقطع بموته) ـ كان عالما يعلم أنه عالم فكنا وغيرنا نأخذ عنه العلم ومازلنا . . ولو أنه كان عالما شديد التواضع يؤمن أنه مازال فى حاجة مستمرة إلى طلب العلم فكان لا يتوقف عن القراءة والدراسة والبحث والكتابة حتى الأسبوع الأخير من حياته . .

ولقد جلست معه قبيل وفاته بأيام قلائل فى إحدى قاعات المجالس القومية بعد انتهاء آخر اجتماع رأسه لشعبة الانتاج الزراعى ، جلسنا نراجع سويا بعض فصول هذا الكتاب (الفلاح المصرى فى كل العصور) فقد كان حزينا لتأخر طبع ونشر هذا الكتاب الذى مضى على تأليفه له أكثر من عشر سنوات ، وكان حزنه أكثر لظنه ضياع أصول الكتاب فى المطبعة ـ ولم يكن يملك نسخة أخرى منها ، ولكن الأخ العزيز الأستاذ محمد رشاد رئيس تحرير جريدة التعاون إستطاع حينذاك أن يسترد له أصول الكتاب ، وكانت سعادته غامرة وهو يجده ثانية بعد عشر سنوات بين يديه ولكنه كان يرى ضرورة أن يعيد النظر ولو بسرعة فيه بعد مضى كل تلك السنوات وأرادنى مساعدا له فى ذلك ، وكان شرفا لى وفرصة لقاءات فى منزله وفى المجالس القومية وآخرها كان ذلك اللقاء الأخير . . ولم يكن هناك الكثير مما يحتاج إلى تعديل أو تغيير . . بل كان الرجل يرى أن هذا الكتاب وهو أهم كتبه وعمدتها وأنه وضع فيه الكثير من علمه ومعرفته وثقافته وخبراته ليصبح مرجعا وافيا عن (فلاح مصر عبر العصور) . . وكان يتمنى أن ينشر الكتاب فى حياته . . ولكن إرادة الله فوق كل إراده . . ولعل فى نشره الآن إحياء لذكري هذا الرجل الفاضل الجليل . .

•••

هذا الرجل الذى نحن أولى به وهو أولى بنا . . فهو أحد الرواد الأوائل الذين ساهموا فى (التعاون) و (المجلة الزراعية) بأحاديثهم وآرائهم ومقالاتهم وأبحاثهم ودراساتهم . . وكانت أعماله من أهم وأعظم وأجدى ما نشر من أدبيات وبحوث عن الزراعة المصرية ، ولقد استمر فضله متدفقا حتى بعد رحيله فقد ترك معى عددا من بحوثه ظللت أنشرها فى (المجلة الزراعية) بعد وفاته وهو ثانيا . . علم من أعلام الزراعة المصرية السامقة ، وأحد الرواد الذين ساهموا بقدر كبير فى حل مشكلات الزراعة لا فى مصر وحدها بل وفى غيرها من الأقطار العربية الشقيقة وهو ثالثا وطنى مصرى من الطراز الأول اشتغل بالعمل النقابى والعمل السياسى والعمل العلمى القومى فكان فى كل ذلك نموذجا رفيعا للوطنى المخلص لوطنه المتفانى فى حبه عملا وبحثا ودراسة وجهدا مستمرا مستنيرا .

وهو رابعا نموذج للخلق الكريم والإيمان العميق ، وكان دائما يعيش بخلق المسلم الذى يستمد قيمه ويصدر فى سلوكياته وتصرفاته عن تعاليم دينه العظيم ، وكان متأسيا بسيدنا رسول الله الذى كان خلقه القرآن . . (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد) .

•••

هذا الرجل الذى أعتز بأننى أحد أصدقائه وأحد أخوته وأحد تلاميذه . . وأحد الذين حرصوا على مودته وحبه واستمروا بقربه حتى قبيل الرحيل . . وأحد الذين عرفوا فضائله وفضله ، لعلى أكون ممن تصدق فيهم الحكمة العربية القديمة : (لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه) . .

●●●

عزيزى قارىء هذا الكتاب .

. . عن المؤلف العالم الجليل والأستاذ الكبير والأخ العزيز مازال لدى الكثير من كلمات التقدير والوفاء والإجلال والتسجيل للتاريخ لمن يؤهلهم عملهم وعلمهم وكفاحهم وإيمانهم لدخول التاريخ من بابه الأمامى . . ومهما حاولت فلن أوفيه حقه . . وستظل ذكراه حية مضيئة . . كما سيظل هو حيا فى نفوسنا حتى يوم اللقاء . . فى معقد صدق عند مليك مقتدر . .

. . أما عن الكتاب . . فهو بين يديك ـ عزيزى القارىء ـ ليس فى حاجة الى تقديم . . ويكفى أن كل فصل فيه يتسم بأهم ما تحلى به مؤلفه دائما طيلة حياته . . الصدق . . وكلمة الحق . . الحق الذى هو أحق أن يتبع دائما . . وسلاما عليه وعلى كل من اتبع الهدى .

١٩٩٣/١/١

محمود بسيونى

رئيس تحرير المجلة الزراعية

●●●

عرض تاريخى

العقيدة والدين واللغة

العقائد القديمة

منذ بداية العهود الفرعونية ظهرت عقائد دينية أخذت تتطور على مدى ثلاثة آلاف سنة وكان التوحيد أحد صورها بل كان أبرزها .

ولم يتأثر المصرى القديم بالديانات المجاورة فى فلسطين وما بين النهرين ولم يتأثر بالزيارات العابرة لعدد من الأنبياء
والرسل مثل إبراهيم ولوط ويوسف ويعقوب . ولم تنتشر اليهودية فى مصر مع أن موسى ولد فى مصر وتربى فيها ودعا فرعون مصر الى التوحيد ، كان انتشار اليهودية محدودا فى المدن ولم يصل القرى فلم يعرف التاريخ فلاحا واحدا حمل الفأس وكان يهوديا .

ولم يكن للهجرات من مصر وإليها تأثير يذكر على العقيدة الدينية طيلة العهود الفرعونية .

بدأ الفكر الدينى المصرى بتخيلات نتيجة ما يحيط بالإنسان المصرى ، قوى وظواهر الحياة ، شمس وقمر ، ليل ونهار ، حر وبرد ، طير وشجر ، حيوان وزرع ، رمل وصخر ، رعد وبرق ، سحاب يمطر ورياح تشتد تثير الرمال وتعصف بالزرع .

فكر فيما حوله تفكيراً متسائلا مستفسرا فى بساطة وسطحية دون تعمق أو اجتهاد .
إنطباعات متأثرة بما هو حوله وانطباعات بما فى داخل نفسه من مؤثرات خفية لايعرف لها أصلا ولا مصدرا .

وسيطر على فكر المصرى وخواطره شيئان عظيمان . . الشمس والنيل . . إنهما شيئان لهما ارتباط مباشر بالحياة فأصبح لكل منهما على مر الأيام تأثير على العقل الظاهر والباطن ونتج عن ذلك أنه قدس كل منهما الشمس حسب أن لها إلها سماه « رع » . . « وأتوم » . . « وحوريس » .

وحسب أن للنيل إلها سماه « أوزيريس » .
وهناك أشياء متعددة جعلها تعبر عن الشمس ، طائر الصقر إنه دون الطيور كلها يطير عاليا فى كبد السماء فى اتجاه الشمس فجعل صورته أو تمثاله يعبر عن الشمس وسجل هذا واضحا فى معبد إدفو ، الصقر يحتضن قرص الشمس بين جناحيه المبسوطين وسماه حورس أو حور كما تصور إله الشمس على هيئة رجل عجوز يظهر فى هليوبوليس وفى مواقع اخرى على شكل خنفساء تفرد أجنحتها .

وعبد التمساح والثور والبقرة والقط وابن آوى غير ان هذه الآلهة التى تسكن الأرض لم تصل فى نفس المصرى الى مستوى الآلهة العظمى التى تسكن السماء لهذا جعل هذه الآلهة الصغيرة رموزا للآلهة الكبيرة . ولتوضيح هذه العقيدة فإن المصرى لم يكن يرى أن الإله مجسد فى كل تمساح أو بقرة أو قط مثلا بل كان يختار من هذه الحيوانات فردا واحدا يقدسونه فإذا قدس بقرة أو ثورا فليس هناك ما يمنع من ذبح بقرة أخرى وأكل لحمها .

ويبدو أن طبيعة الإنسان المصرى وسلوكه قد انعكس على صفات الآلهة الصغيرة التى يقدسها والآلهة الكبيرة التى يعبدها فلم يعرف من بين أولئك إله به ظمأ للدماء أو الإسراف فى الشهوات والملذات .

ومضى الإنسان المصرى فى تفكيره إلى أن للكون خالقاً واحدا ووصفوه بالقدم وبأنه لا أول له واطلقوا عليهم إسم « أتوم » .

وما أكثر ما تغيرت العقائد وتشعبت وتبدلت ومع أن المصريين فى العهود الفرعونية تركوا آثاراً خالدة فى العمارة والهندسة والطب والتحنيط وعلوم الفلك إلا أنهم لم يتمكنوا طوال هذه العصور كلها من وضع كتاب دينى يحوى عقائدهم ومقدساتهم ومفهوم العبادات وأصول المعاملات . . وبهذا بقيت آثار العمارة من معابد ومقابر وأهرامات ومسلات وبقيت التوابيت والجثث والأوانى وأدوات الزينة والصيد والأطعمة بينما اندثر كل شىء عن جوهر العقيدة لأنها لم تجمع فى كتاب .

العقائد أيام البطالسة والرومان :

عندما وصل الإسكندر المقدونى إلى مصر فى أواخر عام ٣٣٢ قبل الميلاد كان أول ما بدأ به اعلانه انه يؤمن بعقيدة المصريين وتوج نفسه على طريقة الفراعنة الأقدمين وسمى نفسه « ابن آمون » .

وانتشرت فى عهد البطالسة عبادة الإله سرابيس وامتدت من مصر إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وظلت كذلك إلى حين دخول المسيحية مصر . كانت هناك ثلاثة آلهة هى : سرابيس وإيزيس وهربوكراتيس وأهم هذه الآلهة هو سرابيس إذ ظل محتفظا بمكان الصدارة بين الآلهة فى العهد الرومانى .

ويبقى هذا الإله هو الإله الرسمى الذى يعبد فى المعابد فى مصر وانتشر حتى وصل روما إذ أقيمت فيها المعابد لعبادة سرابيس .

وفى عهد الرومان كان للأباطرة مكانة التقديس .

ويبدو أن هذه العقائد كانت منتشرة بين سكان المدن أما القرى فإنها كانت غالبا خالية من المعابد وكان هناك ما يشبه الفراغ الدينى خلال تلك المرحلة .

وفى ظل الحكم الرومانى كثرت العقائد واختلطت الأديان بسبب سياسة التسامح الدينى التى اتبعها الرومان فلم يكن هناك اضطهاد أو محاربة لأى عقيدة وأصبح فى مصر وجيرانهاأوضاع ... ة متشعبة معقدة وفى هذا المناخ ظهرت المسيحية فوجدت السبل ممهدة كى يعتنقها الناس .

دخول المسيحية مصر :

لايعرف بالضبط تاريخ دخول المسيحية مصر وأول كنيسة أقيمت كانت بالإسكندرية ومؤسسها هو القديس مرقص ويلقب بابا الأقباط حتى اليوم باسم « بابا الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية » .

ومن الإسكندرية إنتشر الدين داخل البلاد وفى جميع أرجاء وادى النيل .

وقد لقى كل من أعتنق المسيحية فى البداية صنوف التعذيب والاضطهاد والتنكيل على أيدى أباطرة الرومان . وكان المسيحيون فى نظر السلطات الرومانية مواطنين أشرارا وعناصر خطرة على المجتمع لأنهم يرفضون شعائر الديانة الرسمية فلا يقدسون صور الأباطر .

يحدث الاضطهاد ويشتد عندما تقع كوارث قوية تؤدى الى هياج شعبى عام فتنسب تلك الكوارث للمسيحيين وتتعالى الصيحات مطالبة بإلقائهم للأسود الجائعة ، وكان المسيحيون يحتملون البلاء ويصمدون للمحنة فى شجاعة نادرة تهز المشاعر وتثير

الإعجاب ، فالمسرح غاص بالجماهير المتعطشة للدماء وحفنة من المسيحيين واقفة وسط الساحة والأسد يفتك بهم على الرمال وفى النهاية يهوى السيف ليضع حدا لآلامهم .

وكانت رغبة الإمبراطور دقلديانوس فى توحيد النظام الإدارى فى جميع أنحاء الإمبراطورية سببا من أسباب اضطهاد المسيحيين التى تعتبر الآن أشهر عمل عرف به هذا الإمبراطور ، ذلك أن الولاء العام لدين الدولة الرسمى كان الرباط القوى الذى يربط بين أجزاء إمبراطورية تضم عديدا من العناصر والأجناس التى تختلف أصلاً ولغة وثقافة ولقد رفض المسيحيون المشاركة فى العقائد الوثنية ومن ثم كانوا عنصراً شاذا فى نظر حكام الإمبراطورية ، وكان لابد من اتخاذ الإجراءات اللازمة لإدماجهم أو لاستئصال شأفتهم . وصدرت أوامر دقلديانوس بالاضطهاد الذى سرعان مابلغ مداه بعد أن اشتعلت النيران فى القصر الإمبراطورى ووقع الإمبراطور فريسة مرض خطير فاعتبر المسيحيين مسئولين عن الكارثتين معا وصدر قرار بإعدامهم جميعا . . !!

واحتدمت المعركة حتى أصبحت معركة فناء ، دمرت الكنائس وأحرقت الكتب السماوية والدينية ، واستشهد الألوف من المسيحيين وكان ذلك أعنف اضطهاد تعرض له المسيحيون حتى أن الكنيسة القبطية فى مصر مازالت تؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو « عصر الشهداء » .

وأدى هذا الاضطهاد العنيف من جانب الحكام إلى عكس المرجو منه فقد كان سببا مباشرا لانتشار المسيحية فى مصر فقد كان كل حادث من حوادث الاستشهاد يدفع الكثيرين الى اعتناق هذا الدين الذى استطاع أن يلهم اتباعه شجاعة خارقة وإيمانا ثابتا لاتزعزعه الأحداث والمصائب .

وحتى عام ٣٠٠ ميلادية كانت مصر تعتبر بلدا وثنيا فى جوهره ولكن بعد جيل واحد أصبح بلدا يدين معظم أهله بالمسيحية وساعد على ذلك ان الإمبراطور قسطنطين أصدر مرسوما عام ٣١٣ يقرر فيه مبدأ التسامح الدينى فكانت هذه خطوة كى تصبح المسيحية بعد ذلك بعشرة أعوام فقط الدين الرسمى للدولة .

وهكذا خلص المسيحيون من اضطهاد طال مداه . وردت لهم الدولة كل ما كانت قد صادرته من مبانيهم وكنائسهم .

وبدأت الفترة التى يطلق عليها إسم « سلام الكنيسة » .

ولكن الكنيسة لم تنعم فى واقع الأمر بهذا السلام واشتبكت كنيسة الإسكندرية مع الإمبراطورية المسيحية فى صراع مذهبى لايقل حدة عن صراعها الدينى مع الإمبراطورية الوثنية بل إن صراعها المذهبى كان أعمق وأبعد أثرا .

وكان محور الجدل كله هو طبيعة المسيح وقد سبب هذا الموضوع شقاقا دينيا نتج عنه أحقاد مريرة وأطماع وخصومات وأساليب من الجدل تنطوى على الخداع والتضليل وليس لكل هذا أى ارتباط بتعاليم المحبة التى نادى بها المسيح .

بدأ الشقاق الدينى بمجرد أن نادى أحد قساوسة كنيسة الإسكندرية وهو الأب آريوس بعقيدته فى طبيعة المسيح فأنكر ألوهيته وقد احتلت هذه العقيدة مكانا بارزا فى تاريخ مصر والإمبراطورية كلها خلال القرن الرابع ، وهكذا شهدت الإسكندرية بداية معركة عنيفة ، وظلت بعد ذلك ميدانها الأكبر حتى تحدد مصيرها .

وقد واجه الإمبراطور قسطنطين هذا الشقاق بعقد مؤتمر دينى فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى عام ٣٢٥ وحضر إثناسيوس ـ الذى أصبح اسقف الإسكندرية بعد ذلك بثلاثة أعوام ـ وحمل العبء الأكبر فى دحض آراء آريوس حتى اقتنع المجمع بطرده من الكنيسة وقبول المشروع الذى تقدمت به كنيسة الإسكندرية فى تحديد العقيدة تحديدا دقيقا وأقر المؤتمر هذا المشروع فكان نصراً لكنيسة الإسكندرية ووجهة نظرها .

وتتلخص عقيدة نيقية ـ كما سميت بعد ذلك ـ فى كون المسيح إلها وبشرا فى آن واحد ، فهو إله من طبيعة أبيه وهو بشر من طبيعة أمه ويعرف هذا المذهب بمذهب الطبيعة الواحدة .

ولم يكن قبول مؤتمر نيقية لوجهة نظر الإسكندرية فى طبيعة المسيح كافيا للقضاء على هذا النزاع المرير ، ذلك ان اثناسيوس الذى آلت اليه اسقفية الإسكندرية عام ٣٢٨ كان رجلا شديد المراس فرفض اعادة آريوس الى الكنيسة رغم توسط الإمبراطور قسطنطين فى ذلك . وأدى هذا الرفض إلى احتدام المعركة من جديد والواقع أن اثناسيوس كان شخصية عنيدة لا يطيق المعارضة ، وقد نفى ثلاث مرات ولكن العمر امتد به حتى شهد انتصار مبدئه .

وتكرر الجدل والاضطرابات بين كنيسة الإسكندرية ورهبان وادى النطرون إلى أن تولى الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٨ ـ ٣٩٥) الذى قرر أن تكون « الأرثوذكسية » عقيدة رسمية للدولة وقضى على مذهب آريوس كما قرر القضاء نهائيا على الوثنية وأمر بإغلاق معابدها وحرم زيارتها .

وقد تولى حركة القضاء على الوثنية فى الإسكندرية الأسقف ثيوفيلوس الذى اصطنع مع الوثنيين أساليب العنف والقسوة فشهدت شوارع المدينة معارك طاحنة وسالت الدماء

فى جنباتها والتجأ الوثنيون إلى معبد السرابيوم فهاجمهم المسيحيون وأضرموا النيران فى هذا المعبد فدمروه وحطموه تحطيما .

وفى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ظهرت فى دير وادى النطرون مشكلة الرهبان الذين كانوا يفسرون الإنجيل تفسيرا حرفيا ينطوى على سذاجة مفرطة فنادوا بأن الله له شكل إنسان إستنادا إلى ما ورد فى الإنجيل من اشارات إلى « يد الله » « وعين الله » وقد استعان أسقف الإسكندرية ثيوفيلوس بقوات عسكرية هاجم بها أديرة وادى النطرون وشرد رهبانها .

وشهد القرن الخامس أيضا مشكلة من أعنف المشاكل التى واجهتها الكنيسة ذلك أن اسلام الذى رفرف عليها بعد تأكيد عقيدة نيقية فى عام ٣٨١ لم يعمر إلا أقل من نصف قرن ثم عاد الانقسام مرة أخرى على أثر تعيين نسطور أسقفا للقسطنطينية .

نادى نسطور بطبيعة المسيح البشرية وأنكر اندماج طبيعته الإلهية فى طبيعته البشرية . كما نهى على تسمية العذراء « بوالدة الإله » ودعا إلى تسميتها « والدة المسيح » لأنها لم تلد إلا إنسانا .

وسرعان ما تصدرت كنيسة الإسكندرية لنسطور . وفى عام ٤٣١ عقد مؤتمر كنيسى للنظر فى المشكلة وانتهى الأمر بالحكم على نسطور بالحرمان .

وتكررت الخلافات الفكرية وتكررت معها محاولات التوفيق .

وفى عام ٦١١ عين الإمبراطور هرقل أسقفا على الإسكندرية وحاكما لمصر كلها فى نفس الوقت من بين الذين اتبعوا مذهب الإرادة الواحدة أو المشيئة الواحدة التى تقول ان للمسيح فى الواقع طبيعتين ولكن له إرادة واحدة . وكان هذا الأسقف والحاكم الجديد هو كورش الذى عرف باسم « المقوقس » وكان رجلا ضيق الصدر فعجز عن استمالة الأقباط إليه وأخذ يضطهدهم اضطهادا رهيبا .

وبقى فى البلاد حتى دخل العرب فاتحين تحت قيادة عمرو بن العاص فانقطعت الصلة منذ ذلك بين الكنيسة المصرية والكنائس المسيحية الأخرى .

دخول الإسلام مصر :

طرق الدين الإسلامى أسماع مصر للمرة الأولى عندما أرسل النبى محمد صلوات الله عليه رسالة إلى المقوقس حاكم مصر مع أحد صحابته « حاطب بن بلتعة » فاستقبله المقوقس بما يجب له من الاحترام والإكرام وقال له انه يعتقد أن نبياً سيظهر ولكنه لا يستطيع أن يسلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر .

وبعث مع رسول النبى هدايا من إنتاج مصر وخيراتها وبغلة بيضاء وحمارا ثم جاريتين شقيقتين من ريف مصر من بلدة مغاغة وهما ماريه وسيرين وقد اصطفى النبى لنفسه مارية وهى التى ولدت له إبراهيم فيما بعد وبعد أن بلغ النبى الستين من عمره . وقد أحبه النبى حبا فياضا وكان يمر كل يوم بدار مارية ليراه وليزداد أنسا بابتسامته البريئة الطاهرة ويزداد سرورا بنموه وجماله . ولكن إبراهيم لم يعمر اكثر من عام ونصف وتوفى فى السنة العاشرة للهجرة . أما الجارية الثانية سيرين فإن النبى أهداها إلى حسان بن ثابت .

وكان ذلك هو أول علاقة بين مصر القبطية التى تعتنق المسيحية وبين نبى الإسلام صلوات الله عليه .

وقد أرسل المقوقس خطابا إلى مارية يطمئن عليها وعلى أحوالها ويستفسر منها عن ذلك الدين الجديد فأجابته . . أنه العقل الجديد والروح الجديد والنور الجديد وأن نبيهم أطهر من السحابة فى يوم صائف ، إذا رفعوا السيف رفعوه بقانون وإذا وضعوا السيف وضعوه بقانون ، يفتحون البلاد بأخلاقهم قبل سيوفهم ويغسلون أطرافهم قبل أن يقفوا فى محرابهم .

وبعد وفاة النبى ببضعة أعوام فى عام ١٨ هـ (٦٣٩ م) أرسل الخليفة عمر جيشا بقيادة عمرو بن العاص وتم له فتح مصر بعد معارك يسيرة .

ولم يجد دين من الأديان فرصة مواتية للانتشار السريع دون متاعب أو مصاعب مثلما وجد الإسلام ذلك عند دخوله مصر .

وجد أهل مصر من القبط دينا يدعو إلى احترام الأديان السماوية السابقة دين حرية ومساواة فالناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

دين يدعو إلى الإيمان به بالحسنى والكلمة الصادقة وليس بالسيف أو التعذيب فقد جاء فى القرآن :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . »
« وجادلهم بالتى هى أحسن . . . . »
« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »
« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »
كما وصف القرآن المسيحيين وصفا كريما :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون »

دين يؤمن بالمسيح وبموسى وبكل الأديان السماوية السابقة . إيمان مطلق بالله .
العبادات مفصلة واضحة مرتبة والمعاملات لا إبهام فيها ولا غموض ، لم تترك شيئا مما يمكن أن يكون بين الناس وبعضهم فى أمور دنياهم ومعاملاتهم وارتباطهم بعضهم ببعض .

وزاد من إعجاب الناس فى مصر بالدين الجديد سلوك الحكام ، الخليفة المقيم فى المدينة بالحجاز ، عمر بن الخطاب والوالى المقيم فى الفسطاط عاصمة مصر عمرو بن العاص والذين يعاونونه فى حكم مصر .

البساطة والوضوح والتواضع والتزامهم وشدة تمسكهم بدينهم وبكتابهم القرآن وما جاء به من تعاليم .

المساواة التامة بين الولاة والرعيّة بل بين أكبر الولاة وأصغر الرعية فالناس حقا بمفهوم هذا الدين الجديد سواسية ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى .
وجاء تطبيق شريعة هذا الدين فى مصر عند البداية واضحا صريحا عند ظهور أى قضية أو مشكلة ، فمن ضرب يضرب ، ومن اغتصب مالا يرد ما اغتصبه ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب .

إختلف محمد بن عمرو بن العاص مع شاب مصرى فضربه بالسوط وهو يقول : خذها وأنا ابن الأكرمين .

سافر هذا الشاب المصرى الى المدينة وقابل الخليفة عمر بن الخطاب قص عليه ما حدث له من محمد بن عمرو بن العاص فارسل عمر بن الخطاب واستقدم عمرو بن العاص وابنه محمد ونادى عمر بن الخطاب . . أين المصرى . . ؟ واستمع إلى كل منهما ثم أعطى الدرة للمصرى وقال له اضرب بها ابن الأكرمين فضربه حتى أثخنه وأوجعه

وعمر يقول اضرب ابن الأكرمين . ثم قال إجعلها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك ابنه الا بفضل سلطانه .

قال عمرو بن العاص فزعا يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت وقال المصرى معتذرا يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى فقال عمر أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه حتى تكون انت الذى تدعه والتفت إلى عمرو بن العاص مغضبا وقال كلمته الخالدة .

« أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » وذات مرة كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يخبره أنه بنى للخليفة منزلا عند المسجد الجامع فكتب إليه عمر يقول « أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر . . ؟ »

وكان عمرو بن العاص يخطب الجمعة بالمسجد الذى بناه بالفسطاط والذى يعرف باسمه اليوم .

كان يعظ الناس ويأمرهم وينهاهم .
كان يحض على الزكاة وصلة والأرحام ويأمر بالاقتصاد .
وينهى عن الفضول وكثرة العيال .
وقال فى ذلك :

يامعشر الناس إياى وخلالا أربعا فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة .

إياىَ وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال فى غير درك ولانوال .

وكان يقول فى آخر كل خطبة من خطب يوم الجمعة :
أيها الناس استوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا .

كانت الدعوة للإسلام بالحسنى والإقناع فمن أسلم واقتنع بالإسلام دينا فقد انضم للدين الجديد دون أجر أو ثمن ويكفيه انه آمن بالله ورسوله وإذا لم يرض بدين الإسلام فعليه ضريبة غير مرهقة هى الجزية .

وكانت الضرائب (الخراج) التى تحصل على الأطيان الزراعية يخصص جزء منها كل عام لحفر الترع واقامة الجسور وبناء القناطر والاصلاحات العامة كما كان الوالى مسئولا عن الفقراء والضعفاء والمحتاجين قبل مسئوليته عن نفسه .

ولما كان عمرو وهو القائد المحنك على علم بالوسائل التى يلجأ اليها الغزاة عادة فى الاعتداء على أهالى البلاد المفتوحة ونهب وسلب وسبى للنساء فانه كان يأمر جنده دائما أمرا صريحا بأن يكفوا أيديهم عن اموال المصريين وأبدانهم وان يعفوا فروجهم عن اعراضهم وان يغضوا أبصارهم عن نسائهم وذلك تنفيذا لمبادىء الإسلام ومثله العليا لأن الهدف من الفتح والحروب هو نشر الإسلام وليس الاستيلاء على الأرض أو الاستعمار أو الاحتلال وكان يذكر الجند دائما بتجنب الترف فى المأكل والملبس فإنه يفسد الدين ويقصر الهمم .

وفى خطبة كل يوم جمعة كان دائما يذكر ويوصى الجند والعرب الفاتحين بأن يحسنوا معاملة القبط سكان البلاد الأصليين عندما يتصلون بهم ويؤكد وصيته بأحاديث منسوبة للنبى صلوات الله عليه تحض على معاملة المصريين بالحسنى .

وبمضى الوقت أصبح العرب والمصريون شركاء فى البداية فى معيشتهم ثم اندمجامعيشة وفكرا ومصيرا أبد الدهر وتضافرت القوى الإسلامية والمسيحية على النهوض بالوطن والدفاع عنه .

وهكذا تجسدت مبادىء الدين الجديد على هيئة أعمال صالحة تنفع الإنسانية ودخل المصريون فى دين الإسلام افواجا وانتشر حتى عم كل البلاد قاصيها ودانيها وما أسرع ماأقيمت المساجد فى كل القرى .

وقد جاء انشاء الازهر فى منتصف القرن الرابع الهجرى تدعيما قويا لنشر الدعوة الاسلامية لا فى مصر وحدها ولكن فى كل البلاد الاسلامية فقد أبقى الأزهر العظيم على حضارة الإسلام ألف عام ليؤديها إلينا فى القرن الرابع عشر الهجرى وإلى كل القرون والى ان يرث الله الأرض وماعليها .

الأزهر فى عهد الفاطميين :

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقيلى قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وشرع فى بنائه يوم السبت ٢٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) وتم بناؤه فى ٧ رمضان ٣٦١ هـ الموافق ٢٢ يونية ٩٧٢ م .

وكان الغرض من بنائه أن يكون مركزا للسيادة الروحية للدولة الفاطمية ومنبرا للدعوة التى حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر .

وقد سمى الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء التى ينتسب إليها الفاطميون .

وكان هدف الفاطميين نشر المذهب الشيعى لأنهم ظنوا أنهم يستطيعون السيطرة على الشعب المصرى عن هذا الطريق ، وقد وضعوا كتبا كثيرة وجندوا كثيرا من العلماء النابهين وفى مقدمتهم يعقوب بن كلس وكان وزيرا للمعز وابنه العزيز من بعده وكان ابن كلس يهوديا وأسلم وكان ذكيا بارعا محدثا وخطيبا واجتهد فى نشر مذهب الشيعة وألف كتابا فى الفقه .

ولكن لم يكتب للدعوة الفاطمية الشيعية البقاء فى مصر فاضمحلت وذهبت بذهاب أهلها مع انه على مدى قرنين كاملين فى عهد الفاطميين اقتصر التعليم الدينى على المذهب الشيعى وأهملت مذاهب أهل السنة .

الأزهر فى عهد الدولة الأيوبية :

قامت الدولة الأيوبية فى مصر من عام ٥٦٧ هـ على يدى مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وقد محا صلاح الدين المذهب الشيعى وأحل محله المذهب السنى .

وقف ى وجه الصليبيين وقفات خالدات فى تاريخ الشرق وكان عادلا محببا من قلوب الناس وكانت مملكته من المغرب الى العراق واليمن والحجاز .

وقد غالى الأيوبيون فى القضاء على كل أثر للشيعة وشجعوا مذاهب السنة وخاصة المذهب الشافعى . وفى عهدهم كثرت الخلافات الدينية بين المذاهب واشتدت روح التعصب والمغالاة حتى أن أهل السنة كانوا يطعنون الشيعية بأنهم كفار زنادقة وفساق ملحدون . وساعد على اختفاء المذهب الشيعى أن عامة الناس كانت تنفر منه ولا تقبله .

ومرت مرحلة ـ والحمد لله أنها كانت قصيرة ـ كان اتباع المذاهب فيها يؤدون الصلاة الواحدة فى ساحة الأزهر الشريف وراء أربعة أئمة مختلفين كأنهم اتباع أربع ديانات .

وعادت لمصر السنة المحمدية واضحة سليمة خالية من الشوائب .

الأزهر فى عهد المماليك :

للمماليك عهدان ، عهد دولة المماليك البحرية وكانوا من الترك والمماليك الشراكسة وكانوا عن الشراكسة .

وأيا كان عهد المماليك من الناحية السياسية وأسلوب الحكم فان الأزهر فى عهدهم كان عامرا بتلاوة القرآن ودراسة العلوم والفقه والحديث والنحو ومجالس الوعظ ، واهتموا فى شهر رمضان بإقامة الشعائر ودروس الوعظ وإطعام الفقراء حتى أنه فى عهد الملك قنصوه الغورى كان مايصرف على مطبخ الجامع الأزهر فى شهر رمضان ٦٢٠ دينارا ومائة قنطار عسل وخمسمائة أردب قمح وكان طبق الطعام المشهور يومها هو العصيدة باللحم وكانت تسمى خريزة .

ولكن تحولا هاما حدث فى عهد المماليك بالنسبة للعلماء عامة وعلماء الأزهر خاصة .
كان علماء الدين يعتمدون فى العصور الأولى للإسلام على أنفسهم فى سد حاجات عيشهم عن طريق السعى وراء الرزق ومزاولة عمل أو حرفة تكون مصدرا لرزقهم فكان منهم النجار والصباغ والعطار والصائغ والزجاج والغراء والتاجر والفلاح بل كان منهم الخصاف ـ الذى يصلح النعال ـ والقفال الذى يصنع الاقفال والجصاص الذى يعمل فى الجص .

لم تكن هناك حرف أو مهن رفيعة وأخرى وضيعة وإنما كان هناك رجال سمت نفوسهم باطنا وظاهرا يزاولون حرفتهم دون حرج أو خجل ويغترفون من مناهل العلم والمعرفة ماشاءوا وبقدر ماهو ميسر لهم .

كانوا الفقهاء الصناع والصناع الفقهاء ، الحياة عندهم إكتساب عيش واكتساب علم فلا راتب تجريه عليه الدولة ، كان الرجل يسود بهمته لا بمهنته .

كان الفقهاء العلماء يحمون المناصب التى يتولونها ولايحتمون بها .

وفى هذا المناخ ظهر كثير من الاساتذة العلماء عندهم العلم الغزير والكرامة الموفورة والرأى الشجاع لايتحلقون حاكما ولايخافون ظالما .

ولكن حدث فى عهد المماليك شيء جديد فقد رتبوا للعلماء أجورا ومهايا وإعانات ومساعدات بصور مختلفة وأصبح رجال الدين يعتمدون على الدولة فى ماتطلبه تكاليف معيشة الأسرة . وقد مكن الوضع الجديد للدولة بقاء رجال الدين ـ أو اكثرهم ـ فى

صفها ولم يعد للعلماء حرية كاملة فى ابداء مايرون من آراء على الوجه الذى يرضى الله والضمير والحق ، بل أصبحت الرواتب والمناصب سببا فى تحاسد العلماء وتنافسهم .

ولكن لم يمنع هذا أنه كان فى كل فترة من الزمان رجال لايخشون فى الله لومة لائم يزهدون الدنيا بكل مافيها من زخرف وجاه يقاومون البطش والظلم وفساد الحكم ولو أدى ذلك الى التضحية أو الاستشهاد .

الأزهر فى عهد العثمانيين :

خضعت مصر للحكم العثمانى عام ٩٢٣ هـ واستمر هذا الحكم الى ان تولى محمد على عام ١٢٢٠ هـ . (١٥١٧ م - ١٨٠٥ م)

قضى الحكم العثمانى على مظاهر النشاط الفكرى التى كانت مزدهرة من قبل ، عقب الفتح مباشرة قاموا بتجريد مصر من ذخائرها النفيسة فى الآثار والكتب ونقل كل ذلك الى القسطنطينية وقبضوا على العلماء البارزين وبعثوابهم الى تركيا .

وانطوى الأزهر على نفسه فى هذا العهد المظلم الذى لم يعرف العلم ولا قدره ولكن ظل له احترامه عند العامة . وقد قاوم الأزهر الفاتحين وحفظ اللغة العربية ولم يمكن للغة التركية من فرض وجودها فى مصر وبقى بابه مفتوحا لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية على مدى ثلاثة قرون حتى انزاح عن صدره الكابوس التركى .

وانصرف الأزهر فى هذه الفترة عن دراسة العلوم الرياضية والعقلية ووجد فيه من ينادى بتحريمها وهكذا بدأت بوادر الانحلال فى الأزهر وانقطعت صلته بالماضى المجيد .

الأزهر والحملة الفرنسية :

عندما وصل نابليون إلى الإسكندرية وزع منشورا يدعى فيه أنه مسلم وانه جاء لحماية الإسلام والمسلمين ولكن حملته قوبلت مقابلة عنيفة من كل المصريين وقامت كل قرية فى ريف مصر تحارب المعتدين وفى القاهرة تزعم المقاومة الأزهر بعلمائه وطلاب العلم فيه مما دعا الفرنسيين الى ضرب الأزهر بالمدافع ودخل جنودهم الأزهر وهم على ظهور الخيل وداسوا الكتب وربطوا الخيول بالقبلة وأعمدة المسجد وفعلوا . اكثر من ذلك .

وقبض على كثير من العلماء وحاكمهم رسميا الجنرال بون قائد الحملة بالقاهرة وحكم على كثير منهم بالإعدام ونفذ الحكم فعلا فى الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٨ جمادى الأولى ١٢١٣ هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٩٨ م فى القلعة وقد اعدموا رميا بالرصاص وألقيت جثثهم خلف سور القلعة ولم يعرف أحد أين دفنوا . وكان ممن اعدموا من العلماء الشيخ سليمان الجوسقى والشيخ إسماعيل البراوى والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى وكانت جملة من تم إعدامهم من علماء الأزهر ثلاثة عشر عالما .

وقبض على الشيخ السادات وفرض عليه غرامة قدرها ثمانمائة ألف فرنك وصاروا يضربونه خمس عشرة عصا فى الصباح ومثلها فى الليل وقبضوا على زوجته وابنه وكانوا يضربون الشيخ امام زوجته زيادة فى التعذيب وتوفى ابنه اثناء اعتقاله .

وانتهت الحملة الفرنسية بهزيمة منكرة وعادوا الى فرنسا أذلاء وكان الأزهر وعلماؤه من الاسباب الرئيسية التى أدت الى هذه الهزيمة .

الأزهر ومحمد على :

إختارت الزعامة الشعبية ممثلة فى السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى ، محمد على واليا على مصر بشرط ان يحكم بمشورة وكلاء الشعب وتظاهر محمد على بقبول المشورة ولكن كان بطبعه يميل الى الحكم المطلق وسرعان ماضاق ذرعا برقابة وكلاء الشعب خصوصا السيد عمر مكرم زعيم العلماء ونقيب الاشراف الذى أخذ يحاسب محمد على باشا على جمع الضرائب وعقد مجلسا عاما من العلماء أول يوليه ١٨٠٩ وقرروا عدم فرض ضرائب جديدة وإلغاء الضرائب المستحدثة وقد ازدادت العلاقات توترا حينما رفض عمر مكرم أن يوقع الميزانية السنوية كما يريدها محمد على . وكانت النتيجة أن محمد على قام بنفى عمر مكرم إلى دمياط .

وكان للأزهر دور هام فى الثورة العرابية وفى ثورة عام ١٩١٩ وفى كل موقف وطنى يتطلب الجهاد والكفاح . وكان احمد عرابى باشا رأس الثورة قد تتلمذ بالأزهر مدة أربع سنوات وكان لهذه المدة أثر كبير فى تكوين شخصية عرابى كزعيم ثورى اذ جعلت منه خطيبا بليغا يهز المشاعر . أما سعد زغلول باشا زعيم ثورة ١٩١٩ فإنه مضى كل مراحل تعليم الأزهر الى ان وصل الشهادة العالمية ولكنه لم يتقدم لامتحانها .

ومنذ عام ١٨٧٢ الى اليوم صدرت قوانين كثيرة لتنظيم الأزهر وإصلاح نظم الدراسة وكان التطوير الأكبر بعد قيام النظام الجمهورى فى مصر فقد أصبح الأزهر

جامعة حديثة تشمل عديدا من الكليات الدينية بالإضافة الى كليات الطب والهندسة والزراعة والمعاملات (التجارة) وكلية للبنات وكلية اللغات والترجمة .

ونظام التدريس بدأ فى الأزهر بنظام الحلقات العلمية فيجلس الأستاذ ليقرأ درسه فى حلقة من تلاميذه والمستمعين له وتنظم الحلقات فى الزمان والمكان طبقا للمواد التى تدرس وقد انتهى كل ذلك وأصبح نظام التدريس يماثل كل جامعات الدنيا فى تطورها وتقدمها .

ومنذ إنشاء الأزهر إلى اليوم طوال أكثر من ألف عام ظل كعبة العلم والدين ومعقد آمال المسلمين ، حفظ التراث الإسلامى دينا ولغة من عاديات الزمن ونشره على الآفاق ولم يبخل به على طالب علم قصده من مشارق الأرض أو مغاربها فقيرا كان أو مقتدرا ، فقد كان - ولا يزال - يعين كل طالب فى حاجة إلى العون دون النظر الى جنسيته .

وتخرج فيه مالا يحصى ولا يعد من العلماء انتشروا فى كل ارجاء الأرض وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التى تزودوا بها فى الأزهر فأضاءوا الدنيا علما ونورا .

وكان هناك ايضا ارتباط وثيق بين القرية المصرية والأزهر فإن الفلاحين كانوا يفضلون دائما ان يرسلوا ابناءهم الى الأزهر لاستكمال تعليمهم بعد أن يكونوا قد تعلموا فى كتاب القرية مبادىء القراءة والكتابة وحفظوا القرآن أو اجزاء منه .

وأكثر العلماء الذين تخرجوا فى الأزهر والمتفوقون منهم فى فقه الدين وفى اللغة والذين تولوا مناصب دينية كبيرة ومنها مشيخة الأزهر كانوا من أبناء الفلاحين .

حضارة الإسلام :

فى مرحلة ما قبل الإسلام فى عهود الفراعنة واليونان والرومان كان تخليد الحضارة بالعمارة والنحت والتصوير . . أهرامات ومعابد ومقابر ومسلات وتماثيل ورسوم وصور .

فلما جاء الإسلام وضع قواعد الخلود لحضارته فكرا وحرية مستمدة من الكتاب الخالد « القرآن » فأصبح الأساس لكل عناصر الحياة .

وقد حفظ الله القرآن وظل بعيدا عن التبديل والتغيير .

كان فى البداية محفوظا فى الصدور ، يحفظه ويتلوه كل مسلم كل يوم فى صلاته وعبادته .

ثم قام الخليفة عثمان بن عفان بتدوينه كتابة فى صدر الإسلام وتطورت كتابة المصحف وارتقت حتى أصبحت فنا جميلا متفوقا وفى عصرنا الذى نعيشه اليوم أصبحت المصاحف وطباعتها نموذجا رائعا للطبع وضبط الحروف وتشكيلها ، وتراجع مراجعة دقيقة ما بعدها دقة .

وأكثرها على هيئة كتاب ، ومنها ما هو فى صفحة واحدة لتُوضع فى إطار أنيق فى المنازل والمكاتب والمكتبات العامة والخاصة .

وسجل القرآن على شرائط ليذاع أثناء الليل وأطراف النهار فى طول الدنيا وعرضها لا تتوقف اذاعته ثانية واحدة .

يذاع بأصوات عذبة جميلة تلاوة وتجويدا ، ولكل من التلاوة والتجويد أصول وقواعد لا يحيد عنها القارىء .

لقد عبد الإنسان المصرى الله الواحد القهار فى المعابد ثم الكنائس ثم تحت ظلال المآذن ورحاب المساجد .

عبده مؤمنا بعقله وقلبه ووجدانه .

عبدناه واحدا لا شريك له فإن الإيمان به هو البلسم الشافى ولا دواء سواه وان كنا لا ننكر انه اذا طابت لنا الأيام نكاد ننساه واذا ضاقت ذكرناه ولكنا فى الحالين عبيده ورعاياه . . . نعود سريعا الى رحابه ونطمع فى فضله وعطاياه .

اللغات

اللغة الفرعونية القديمة :

سبق المصريون القدماء غيرهم فى ابتكار طريقة الكتابة التى دونوها على الآثار بالحفر البارز أو الغائر وكتبوها على أوراق البردى وعلى جدران المعابد والمقابر وعلى الأحجار والأخشاب والمنسوجات وخاصة « نسيج الكتان » .

وقد وجدت الحملة الفرنسية لوحة مكتوبة فى رشيد سميت فيما بعد حجر رشيد وكان مسجلا عليها موضوعا واحدا بلغات ثلاث أولها اللغة الفرعونية التى كانت قد

اندثرت تماما ثم ترجم هذا الموضوع الى لغات كانت معروفة وهى الديموطيقية واليونانية .

وقد نجح شامبليون فى حل رموز هذا الحجر وتمكن بواسطة ذلك من معرفة اللغة المصرية القديمة .

وكتابة اللغة الفرعونية تصويرية تستعمل رموزها تاره للتعبير عن الأصوات وتارة أخرى للتعبير عن الافكار ولما كانت الحركات غير مبينة فلا يمكن النطق بالكلمات إلا على وجه التقريب وقد ذلل العلماء الرموز الهيروغليفية بمقابلة الفاظها باللغات العبرية والآراميه والقبطية والعربية .

ويختلف العلماء فى طريقة القراءة وقد وضعوا اللفظ على قدر المستطاع مع علمهم ان حقيقة اللفظ واللهجة لا تزال مجهولة .

وأمكن لبعض العلماء تطبيق اللغة المصرية القديمة على العربية مع بيان القلب والإبدال فى بعض كلماتها وذلك بفضل كثير منهم .

ويقول بعضهم انه يحتمل ان تكون اللغة المصرية القديمة واللغة العربية من أصل واحد ثم افترقتا بما دخلهما من القلب والإبدال كما حصل فى كل اللغات القديمة فالألفاظ العربية لها مثيل فى اللغة المصرية القديمة .

وهناك كلمات وعبارات شائعة ومستعملة حتى اليوم موحدة فى النطق والمعنى بين العربية والفرعونية فى جميع مجالات الحياة .

وقد قام بعض العلماء بعمل حصر لهذه الكلمات واتضح أنها كثيرة فى أسماء الأعلام والمدن والقرى فى كل من الوجهين البحرى والقبلى - واسماء الأعداد والضمائر وأسماء الاستفهام وأسماء الآلات الزراعية والأدوات المنزلية وأسماء المكاييل وأدوات البناء ووسائل النقل والركوب والواحات والصحراء وأسماء الأمراض وأسماء الرجل والمرأة وعبارات تقال للطفل ، والمواد الكيماوية وأسماء الحيوان والطير والسمك والنباتات والفاكهة والخضر والأشجار الخشبية وأسماء الطعام حتى الفاظ الشتائم يوجد منها ما هو مشترك فى اللغتين .

اللغات الأجنبية الدخيلة (اليونانية واللاتينية) :

عندما حكم البطالسة إستخدامو اللغة اليونانية فى الأعمال الرسمية وظلت هذه اللغة فى معزل عن اللغة المصرية الأصيلة ولم تنتشر بين المصريين .

وعندما جاء الرومان وافقوا على بقاء اليونانية اللغة الرسمية تصدر بها القرارات والقوانين حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته كانت تكتب أصلا باللغة اللاتينية ثم تترجم الى اليونانية .

ولكن ظل المصريون يتكلمون لغتهم الأصلية ومن تعلم منهم اللغة اليونانية كان بقصد الحصول على وظائف أو أعمال حكومية أو ممن كان عملهم يقتضي الاتصال برجال الحكومة مثلما حدث فى العصور اللاحقة ايام حكم الأتراك أو الانجليز فان اللغة التركية ومن بعدها الانجليزية كانت اوضاعها مثل وضع اللغة اليونانية أو اللاتينية ، كلها لغات دخيلة لم يستخدمها إلا المستعمر نفسه ولم تثبت نفسها أصلا أو ظلا وبقيت اللغات الأصلية .

اللغة القبطية :

أثناء عهود البطالسة والرومان كانت اللغة المصرية تكتب بالخط الديموطيقى الذى استخدمت فيه حروف منحدرة من الحروف الهيروغليفية والتى لم يكن بها حروف متحركة مما يقيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت جامدة لا تقابل التطور لهذا كان تعلم الديموطيقية أمرا عسيرا حتى على المصريين أنفسهم .

أمام هذه الصعوبات إتخذ المصريون خطوة ثورية لإنقاذ لغتهم من هذا الجمود بأن اتخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم ولما وجدوا ان الأبجدية اليونانية لا تفى بحاجة جميع اصوات اللغة المصرية أضافوا اليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى وانطلقت اللغة من عقالها لتنتقل ألفاظا وافكارا جديدة ولتخرج بعد ذلك فكرا وأدبا جديدا .

وكان أول واعظم اعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الإنجيل الى المصريين فى لغة مصرية وثوب مصرى لا ثوب اجنبى يونانى أو لاتينى .

وكان هذا اكبر وأهم العوامل التى ساعدت على انتشار الدين المسيحى بين المصريين جميعا .

وقد بقيت اللغة القبطية ـ وهى آخر مرحلة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة ـ متداولة فى البلاد حتى القرن السابع الميلادى والأول الهجرى عندما حلت محلها اللغة العربية ، وأصبح استعمال اللغة القبطية مقصورا على الطقوس الدينية فى الكنائس .

اللغة العربية :

عندما دخل العرب مصر لم يكن هدفهم الاستيلاء على اراض أو تحقيق اهداف اقتصادية ولكن كان هدفهم الأول والوحيد هو نشر الإسلام جاءوا يبشرون ويدعون اليه وكانت لغتهم عربية وكتابهم هو القرآن وهى عربى لا يسمح بترجمته الى لغة أخرى .

وفى المرحلة التى دخل العرب فيها مصر كانت اللغة الفرعونية ومن بعدها اللغة القبطية قد ضعفت بسبب كثرة الغزاة من فرس ويونان ورومان .

ولم يحفظ الإنجيل اللغة القبطية لأن الإنجيل كتب بعدة لغات منها العبرية والآرامية واليونانية والقبطية وكان يسمح بترجمته الى كل لغة ، بينما نزل القرآن بالعربية ولم يسمح بترجمته ، وكل من دخل الإسلام طائعا مختارا كان يتحمس لدينه الجديد ومن أهم قواعده فريضة الصلاة التى يجب ان تؤدى فى مواعيد محددة خمس مرات فى اليوم ويصليها بالعربية الفصحى ولم يسمح للصلاة أن تترجم إلى أى لغات أخرى وإلا أصبحت باطلة ، وبذلك كانت الصلاة بالنسبة للمصرى الذى اعتنق الإسلام حديثا مذاكرة ومداومة على استعمال اللغة العربية الفصحى فلم تفرض اللغة العربية بحد السيف أو بقانون ولكن الذين اعتنقوا الدين الجديد وقد أصبحوا الغالبية العظمى هم الذين انتقلوا من لغتهم الأصلية إلى العربية والعربية الفصحى فى البداية حبا فى الدين الجديد وإيمانا به كما أغراهم فصاحة وبلاغة القرآن وحلاوة كلماته وألفاظه .

ولهذا امكن للغة العربية ان تسود فى فترة قصيرة جدا وأن تختفى اللغة القبطية تدريجيا وبسرعة .

وبمجرد أن يعتنق المصرى الإسلام كانت تزول الموانع الشرعية فى مصاهرة المسلمين القادمين من الجزيرة العربية .

وأقبل المثقفون من المصريين على تعليم اللغة العربية سعيا للحصول على وظائف فى الحكومة الإسلامية الجديدة.

وساعد على تعليم العربية أنه كانت هناك ألفاظ مشتركة بين اللغتين المصرية والعربية من قديم وساهم فى ذلك كثرة الهجرة من الجزيرة العربية الى مصر قبل الإسلام كانوا يفدون للرعى والتجارة ومنهم من يستقر وأكثرهم يعود ثانية بعد قضاء اغراضه .

وبعد الإسلام أصبحت هجرات جماعية كثيفة تصل مصر وتستقر نهائيا وفى قرون قليلة بعد الفتح العربى استقر فى مصر ستون قبيلة من القبائل العدنانية وبطونها ومائة واثنتان وسبعون قبيلة من القبائل القحطانية وبطونها وعاشوا فى مصر واندمجوا مع المصريين وأصبحوا بمرور الأيام مجتمعا واحدا متجانسا فى الدين واللغة والعادات والحياة الاجتماعية والسياسية والنشاط الاقتصادى .

ولهذا كله سادت اللغة العربية وأصبحت لغة المصريين كلهم سواء من دخل منهم الإسلام أو من ظل على دينه نصرانيا أو يهوديا .

وهكذا استقر الإسلام فى مصر شريعة ولغة .

الزراعـــــــة

عرف الإنسان المصرى الزراعة من قديم الزمان وربما كان أول من عرفها فى تاريخ البشرية وقد دلت الآثار التى اكتشفت فى كوم امبو عام ١٩٧٩ ان المصرى قام بزراعة الشعير زراعة حقلية منظمة وبمساحات متسعة نسبيا منذ ١٧ ألف عام .

وقد سبق الزراعة المستقرة مرحلة الصيد والقنص والتقاط الثمار والأعشاب من الأشجار والنباتات التى تنمو بريا ، وبعد هذه المرحلة تعلم الرعى فقد استأنس الأبقار والأغنام والأوز .

وكل من الصيد والقنص والتقاط الثمار ثم الرعى واستئناس الماشية والدواجن التى سبقت فلاحة الارض وزراعة محاصيل ماهى إلا صور من صور الزراعة البدائية والإنتاج البسيط الذى يغطى احتياجات الإنسان من الطعام فى تلك الأزمان البعيدة .

ومنذ عرف الزراعة المنظمة إرتبط ابن مصر بالنيل ارتباطا وثيقا وأحبه وقدسه ، فهو الذى يمده بالمياه التى بدونها لاتتم الزراعة .

كان النيل يسير وتتدفق مياهه حسب ماتفرضه العوامل الجغرافية ولكن عادة يفيض فى اواخر الصيف فى اغسطس وسبتمبر نتيجة الأمطار التى تتساقط على مرتفعات الحبشة وتصل المياه فياضة سريعة تحمل الطمى الذى يعطى الخصب للاراضى الزراعية .

وتمكن فلاح مصر ان يحول المياه الزائدة أيام الفيضان إلى الأراضى الزراعية على جانبى النهر فيدخلها فى حياض حولها جسور ترابية عالية وتدخل مياه النهر الى هذه الحياض طالما كانت المياه فى النهر عالية فإذاانتهت فترة الفيضان فى أوئل الخريف وانخفض مستوى الماء فى النهر فان المياه التى غمرت الحياض تعود إلى النهر بعد ماترسب

ماكان عالقا بها من الطمى على أرض الحياض وقبل ان تجف يبذر الفلاح الحبوب التى يريد زرعها من قمح وشعير وفول وعدس وبرسيم لتنمو طول الشتاء دون حاجة إلى ماء وكانت تسمى الزراعة البعلية وكانت أراضى الحياض تزرع بهذا الأسلوب مرة واحدة فى السنة بين نوفمبر ومايو .

اما فى شمال مصر فقد أقام المصريون الترع والقنوات ومجارى المياه وكانوا يحافظون عليها فيقومون بتقوية جسورها ويطهرون مابها من طمى وحشائش خلال فترة الشتاء وكان الوجه البحرى بفضل هذه الترع يستطيع ان يزرع الأرض مرتين فى السنة وكان الاهتمام بالمحافظة على الجسور الترابية حول الحياض فى الصعيد ومجارى المياه فى الوجه البحرى وصيانتها من أولى المسائل التى تشغل بال الحكام والحكومات فى كل التاريخ المصرى على اختلاف الحكام وثقافتهم وكانت جسور النيل نفسه تلقى الاهتمام الأكبر سنويا فى موسم الفيضان حتى لاتتقطع وتغرق القرى والحقول .

كانت الزراعة الفرعونية تهتم بمواد الغذاء الأساسية مثل الحبوب واللحوم والألبان والبيض والخضر كما زرعوا الكتان فقد كانت الملابس تصنع منه كما توسعوا فى زراعة الأشجار الخشبية لأغراض البناء وصناعة الأثاث والمراكب .

وفى عهد اليونان والرومان كان الاهتمام بزراعة القمح والشعير لتوفير الخبز ثم التوسع فى زراعة العنب لصناعة الخمور وتصديرها إلى بلادهم .

وعندما جاء العرب لم تكن لهم خبرة ولادراية بالزراعة وعلومها وفنونها فلم يتدخلوا فيها ولكنهم جعلوا قدرا ثابتا من دخل الدولة لإصلاح الترع ومجارى المياه واستمر الحال على ذلك من الفتح العربى وأيام الأيوبيين والعباسيين ثم الفاطميين .

وجاءت عهود الظلمات ، المماليك والعثمانيين ، فلم يحافظوا على تراث قديم ولم يستحدثوا شيئا فى عالم الزراعة المصرية بل كان أكبر همهم تحصيل الضرائب على الزراعة والفلاح حتى تدهورت إلى وضع لامثيل له فى تاريخ الزراعة المصرية كلها .

وكان التقدم الحضارى الكبير للزراعة فى عهد محمد على لأنه اعتمد على العلماء وأهل الخبرة ويعتبر هذا العهد نقطة تحول هامة فى تاريخ الزراعة والرى فى مصر وامتدت آثاره الى يومنا هذا .

بدأ العمل باقامة القناطر الكبرى على مجرى النيل واقامة القناطر الخيرية التى تنظم الرى وتتحكم فيه لكل الوجه البحرى كما حفرت الترعة المحمودية لتغذية أراضى البحيرة ومدينة الإسكندرية .

وأدخلت فى عهده زراعة القطن وكثير من الخضر وزراعة التوت فى وادى الطميلات بالتل الكبير لتربية دودة الحرير .

وقد تحسن الإنتاج الزراعى وزادت كمياته وحسنت صفاته وتفوقت جودته وكان من نتيجة ذلك ان السكان لم يكن يزيد عددهم على المليونين أن زاد العرض على الطلب وصدرت حاصلات كثيرة .

وفى تاريخ لاحق حفرت ترعة الإبراهيمية فى الصعيد والرياح التوفيقى محاذية لفرع دمياط وترعة الإسماعيلية فى شرق الدلتا لتغذية المدن الجديدة التى أنشئت على قناة السويس وهى بورسعيد والإسماعيلية والسويس بالمياه الحلوة ولزراعة اراض جديدة فى محافظات القليوبية والشرقية .

ثم كانت الوثبة الحضارية العظيمة التى بدأت ببناء السد العالى واجتمع لها فى نفس الوقت تقدم تكنولوجى هائل فى علوم الزراعة على المستوى العالمى وسرعة وسهولة نقل هذه التكنولوجيا والحصول عليها وتطبيقها سواء فى استنباط اصناف وسلالات جديدة متفوقة الصفات أو أساليب جديدة للزراعة والخدمة والحصاد والجنى كما تقدمت وتطورت صناعة المبيدات وطرق استخدامها وآلات العلاج واستخدمت وسائل جديدة للرى بالرش والتنقيط وتقدمت الآلات المستخدمة فى الزراعة تقدما سريعا حتى أصبحت وافية لجميع اغراض الخدمة وتوصل العلماء إلى اكتشاف طرق جديدة لتغذية وتسميد النبات وإنتاج البروتين الحيوانى من لحم وبيض ولبن وزراعة الأسماك .

وابتكرت وسائل جديدة وأساليب متطورة للتعبئة والتسويق والنقل والحفظ والتصنيع مما ساعد على توزيع المنتجات الزراعية وتصديرها إلى أى موقع فى العالم .

حقق السد العالى كل الأهداف التى شيد من أجلها وفى مقدمتها .

١ ـ تصرف ثابت من مياه الرى يبلغ ٥٥,٥ مليار متر مكعب وقد أتاح ذلك تحويل اراضى الحياض ومساحتها ٧٠٠ألف فدان إلى رى مستديم وزاد المساحة المنزرعة أرزا الى مليون فدان سنويا على الأقل ونقل زراعة الذرة من العروة النيلى الى العروة الصيفى وقد ضاعف ذلك إنتاج الذرة بنسبة ١٠٠ ٪ لأن نجاح الذرة يحتاج الى كميات من الحرارة والضوء تتوفر فى اشهر الصيف اكثر من اشهر الخريف . كما ان الاصابة بآفات الذرة وأهمها الثاقبات تكون قليلة صيفاء وشديدة جدا فى الخريف إبتداء من سبتمبر لارتفاع درجة الرطوبة النسبية .

كما وفر مياها تكفى لإضافة ١,٣ مليون فدان على الاقل من مياه النيل .

٢ - وقاية البلاد من غوائل الفيضانات العالية .

٣ - توليد قوى كهربائية تقدر بعشرة مليارات كيلو وات ساعة فى السنة وقد أتاحت هذه الطاقة الفرصة لإقامة صناعات كثيرة هامة ووفرت خدمات ضرورية للسكان فان جميع قرى مصر سيصلها التيار الكهربائى .

٤ - إنتظام الملاحة فى النيل .

وقد أخذ البعض على السد أن له آثارا جانبية فى مقدمتها النحر فى مجارى المياه وغياب الطمى أما عن النحر فإنه بعد مرور خمسة عشر عاما على تحويل مجرى النيل فإن واقع النحر ليس بالخطورة التى قدرت من قبل نظريا ويجرى صيانة مجارى المياه فى مواقع النحر بصفة مستمرة أما غياب الطمى فيسهل تعويضه بالتسميد وقد تقدمت وسائل تغذية النبات بالأسمدة الكيماوية والمواد الغذائية والتسميد الورقى . ومن المعلوم أن أكثر من ٧٠٪ من المناطق المنزرعة فى العالم تروى بمياه الأمطار وهى مياه لاتحمل الطمى .

والتوسع الزراعى الأفقى فى مصر يتوقف على الموارد المائية التى يمكن الاستفادة منها وعلى استصلاح الاراضى الجديدة القابلة للزراعة ورفع كفاءة استخدام المياه .

الموارد المائية :

المصدر الرئيسى للمياه فى مصر هو النيل ويأتى بعده ماء الصرف والمياه الجوفية ومياه الأمطار .

وقد أصبح إيراد بحيرة السد ثابتا بعد إنشاء السد العالى ويبلغ حالياً ٥٥,٥ مليار متر مكعب وهى حصة مصر وحدها بخلاف حصة السودان .

وهناك زيادة فى المستقبل بعد تنفيذ مشروعات اعالى النيل ويقدر نصيب مصر من هذه الزيادة بنحو ٩ مليارات متر مكعب ولكن هذه المشروعات تتعرض لمعوقات سياسية .

واستخدام مياه الصرف يعتبر تجربة جديدة فى ميدان الزراعة المصرية وتقدر المياه المستخدمة حاليا فى الوجهين البحرى والقبلى بنحو ٤,٨ مليار متر مكعب ويمكن

الاستفادة من هذا المصدر بقدر اضافى نحو ٢ , ٤ مليار متر مكعب أى تصبح الكمية التى يمكن ان تستغل للرى من مياه الصرف نحو تسعة مليارات متر مكعب .

وترد بعض الاعتراضات من المختصين على التوسع فى استخدام مياه الصرف من الناحية الصحية لاحتوائها على مواد ضارة بصحة الإنسان والحيوان نتيجة التلوث بالميكروبات والطفيليات ونتيجة لوجود المواد المعدنية التى تتخلص منها المصانع وتلقى بها فى المصارف . وهناك اعتراض آخر من الناحية الفنية بسبب ارتفاع نسبة الأملاح الضارة فى مياه الصرف مثل كلورور الصوديوم (ملح الطعام) وكربونات الصوديوم التى تضر بخصوبة التربة كما ان هناك صعوبات فنية لتنفيذ عمليات خلط مياه المصارف بمياه الترع .

ويرى من يثير هذه الاعتراضات أنه يجب التحفظ قبل التوسع فى استخدام مياه الصرف وأن تجرى تجارب ميدانية للاستفادة من نتائجها فى تحديد الموقف .

أما المياه الجوفية فإنها فى حاجة الى مزيد من الدراسات ويقدر ما يمكن استخدامه فى الدلتا بأمان وباستمرار نصف مليار متر مكعب سنويا .

أما فى الوادى الجديد وسيناء وغيرها من المناطق فإن الأمر يتطلب دراسات دقيقة تقوم على أساس علمى . وكل ماسبق نشره من بيانات حتى الآن لايستند إلى أى قاعدة علمية أو دراسة أو خبرة .

وبالنسبة للأمطار فإن مصر بلد غير ممطر وستظل الأمطار مصدرا لايعتمد عليه فى التنمية الزراعية .

وتحلية مياه البحر المالحة واستخدامها للزراعة والشرب لاتزال مرتفعة التكاليف على المستوى العالمى ولعل العلم يأتى بجديد فى المستقبل القريب فيكون الحل الفعال لمشكلة توفير الغذاء .

ومن واقع هذا العرض فان الموارد المائية التى تتوفر الآن والتى يمكن تدبيرها مستقبلاً هى :

٥٥,٥ مليار متر مكعب سنويا ـ من مياه النيل
٩ مليار متر مكعب سنويا ـ من مياه المصارف
٠,٥ مليار متر مكعب سنويا ـ المياه الجوفية فى الدلتا

---

٦٥ مليار متر مكعب سنويا ـ
٩ مليار متر مكعب سنويا ـ ستضاف مستقبلا عندما تتم مشروع أعالى النيل

---

٧٤ مليار متر مكعب سنويا ـ وهى جملة المتاح حاليا ومستقبلا

وهذا الرقم هو الموثوق به والمضمون الذى يجب ان توضع على اساسه كل خطط التوسع الأفقى مستقبلاً .

وطبقا لهذا الحصر للموارد المائية فإنه يمكن التخطيط لمشروعات استصلاح حوالى ٢ مليون فدان تضاف الى الستة ملايين المنزرعة فعلا داخل الوادى وحتى عام ٢٠٠٠ على موارد مائية متاحة بصفة مؤكدة .

وزيادة هذه الموارد مستقبلاً أمر محتمل اذا امكن تحقيق الأمور الهامة التالية وتطبيقها وتنفيذها بدقة وخبرة ومهارة ونجاح :

- الاقتصاد فى المياه المستخدمة فى الرى بترشيد وسائل الرى .
- الوصول الى مقننات مائية للمحاصيل اقل من المستخدمة حاليا .
- إستنباط سلالات جديدة من النباتات أقصر عمرا وأقل احتياجا للماء .
- إستخدام وسائل رى حديثة مثل الرى بالرش أو التنقيط أو الرى الجوفى .
- تحلية مياه البحر بتكاليف اقتصادية .
- مقاومة الحشائش فى مجارى الرى والصرف وفى مقدمتها ورد النيل .

إذا تحقق ذلك فانه يمكن أن تزيد الرقعة الزراعية بحوالى ٤ ملايين فدان زيادة على الستة ملايين فدان الحالية .

والواقع الذى لاخلاف عليه ولاجدال فيه انه لو نجحت كل خطط التوسع الأفقى وكتب لها التوفيق دون حدوث معوقات وأمكن زراعة عشرة ملايين فدان عند أو قبيل عام ٢٠٠٠ فان هذا لن يحل مشكلة الأمن الغذائى فى مصر لأن الزيادة السكانية بمعدلاتها الحالية أو دون هذه المعدلات ستسبق خطط التوسع والتنمية إذ سيصبح عدد سكان مصر فى ذلك الوقت اكثر من ٦٦ مليونا .

ولهذا أصبح من الواجب لكى يتحقق الأمن الغذائى ان ترتبط خطط التوسع الزراعى الأفقى والرأسى بعلاج مشكلة التضخم السكانى حتى يكون علاج المشكلة من جذورها .

وظاهر أن السباق مرير بين الإنتاج الزراعى والزيادة السكانية وحتى الآن فان الزيادة السكانية هى المتقدمة فى السباق وحسب الرؤية الواضحة أمامنا فإنها ستظل سابقة الى فترة زمنية قادمة .

وإذا لم تتخذ اجراءات جادة وفعالة وواقعية فإن المستقبل لايبشر بخير .

إستصلاح الأراضى الجديدة

- تحتاج الأراضى الجديدة فى استصلاحها واستزراعها إلى أسلوب جديد ومفهوم جديد يختلف عن الأسلوب التقليدى المتبع فى وادى النيل والذى توارثنا خبرته منذ آلاف السنين .

- كل الأراضى الجديدة المستصلحة يكون ريها بنظام الرى بالرش أو التنقيط أو أى طريقة مستحدثة ولايكون من بين طرق الرى النظام الحالى وهو الرى السيحى .
وهذه الطرق الحديثة للرى لن تحتاج إلى عمليات تسوية أو إنشاء مجارى للمياه أو مصارف .

وفى ذلك توفير للماء والأراضى والنفقات والوقت .

- وضع خريطة زراعية لمصر على أساس علمى توضح المساحات المنزرعة الآن والمساحات القابلة للاستصلاح وتتفق على هذه الخريطة كل الوزارات والأجهزة المخططة والمشرفة والمنفذة لعمليات الاستصلاح ولاتكون قابلة للتغيير أو التبديل بين وقت وآخر أو بتغير المسئولين .

- توضع قواعد وأسس للحيلولة دون تفتت الأرض الى قطع صغيرة متناثرة تعوق الإنتاج وتخفضه . .

- يتولى عمليات الاستصلاح شركات مساهمة قطاع خاص وشركات استثمار مختلطة (مصرية وأجنبية) والأفراد .

ولاداعى لدخول القطاع العام أو الحكومة أو الجمعيات التعاونية فى هذا المجال لأنها لم تحقق نجاحا قبل ذلك وقد أعطيت لها الفرصة والإمكانيات .

- وضع نمط زراعى اقتصادى ملزم لاستغلال الأراضى الجديدة بما يلائم احتياجات الأمن الغذائى .

- من الضرورى أن تأخذ المناطق الجديدة طابع التخصص فى الإنتاج كأن يكون منها ما يتخصص فى إنتاج الخضر أو النباتات الزيتية أو المراعى أو السكر أو الحبوب أو فاكهة معينة .
وأن يرتبط كل ذلك بالتصنيع الغذائى وكفاءة أجهزة التصدير .

رفع كفاءة استخدام المياه

لما كان الماء هو العامل الأول الذى يحدد الرقعة الزراعية لذا كان واجبا المحافظة على كل قطرة ماء ويتطلب ذلك .

- دعم مراكز بحوث المياه . . . مياه النيل . . مياه الصرف . . المياه الجوفية .
- الدعوة الى انشاء مركز عربى لبحوث تحلية مياه البحر تنفق عليه دول البترول وأكثرها يقع فى مناطق صحراوية قاحلة ليس بها مياه كافية .

أو ترصد البلاد العربية الغنية جائزة كبيرة عالمية لكل مبتكر طريقة .

جديدة لتحلية ماء البحر .

- تطبيق ما يمكن تطبيقه فنيا من وسائل الرى الحديثة على الأراضى القديمة التى تروى بطريقة الغمر .

والتوسع الأفقى يرتبط به ويكمله أى زيادة رأسية فى إنتاج المحاصيل وهو ما يسمى التوسع الرأسى وتتلخص أهم نقاطه فيما يلى :

الإنتاج النباتى :

تفوقت الزراعة المصرية فى انتاج بعض المحاصيل الزراعية ووصلت إلى المستوى العالمى مثل القطن والأرز والقمح بفضل بحوث الأجهزة العلمية لوزارة الزراعة وخبرة الفلاح المصرى .

ولكن هناك محاصيل أخرى لا تزال أمامها فرصة كبيرة لزيادة متوسط إنتاجها مثل الذرة البيضاء التى يمكن مضاعفة إنتاجها ثلاثة أضعاف عما هو عليه الآن .

وكان القصب متفوقا فى إنتاجه ولكن المحصول إنخفض الآن ولابد أن يعود إلى وضعه السابق .

والبرسيم هو محصول العلف الرئيسى وهو محصول جيد ولكن لم تبذل أى جهود لتحسينه وزيادة إنتاجه .

وزراعة الخضر هى من الآفاق التى يجب ان تتجه إليها الزراعة حاليا ومستقبلا وهى تتقدم حثيثا ولاتزال الفرصة كبيرة ومهيأة لمضاعفة متوسطات الإنتاج .

أما الفاكهة فان زراعتها تسير عشوائيا دون خطة مرسومة وأهمها الموالح التى تزرع فيها يصلح ومالا يصلح من الأراضى والتى يتعثر تسويقها ولم تصنع بعد وقد تدهورت المانجو ولم تعد زراعتها إقتصادية بسبب مرض ظاهرة التكتل الذى لم يكتشف له علاج ويمكن تدارك الأمر بزراعة الاصناف التى لاتصاب بهذه الظاهرة وهى الزبدة والمسك والعريسى والجينوفيا (بوز الغراب) وبعض الأصناف البلدية .

وقد أدخلت محاصيل جديدة أخيرا مثل علف الفيل وهو علف أخضر مستديم ولا يصاب بالآفات صيفا وقد فرض نفسه وانتشرت زراعته رغم المعوقات . كما أدخلت زراعة البنجر لاستخراج سكر فى شماله الوجه البحرى . .

ولم تجرب الزراعة المائية وهى لازمة للمدن الساحلية وخاصة على البحر الأحمر .

الإنتاج الحيوانى :

بعد أكثر من ستين عاما لم تنجح أقلمة أبقار الفريزيان عالية الصفات فى ادرار اللبن وانتاج اللحم بينما نجحت فى كل بلاد الشرق الأوسط المحيطة بنا بل نجحت فى الجزيرة العربية رغم ظروفها المناخية

ولم تبذل محاولة للوصول الى سلالات ممتازة من الجاموس المصرى ولم تتحسن صفات الاغنام المصرية ولم تنجح فى إدخال سلالات جديدة وليس هناك عذر مقبول لكل هذا .

ولذا فإن الفرصة كبيرة للنهوض بالإنتاج الحيوانى :

وقد تقدمت وسائل انتاج دجاج اللحم والبيض على شكل مشروعات متوسطة الحجم أو كبيرة . ولم يواكب ذلك توفر الأعلاف اللازمة .

ولكن من الواجب ان توفر السلالات المتفوقة فى انتاج اللحم أو البيض أو الغرضين معا على مستوى القرية .

والزراعة السمكية لإنتاج الأسماك لا تزال فى بدايتها وتسير ببطء شديد وقد نجحت نجاحا منقطع النظير فى الصين واليابان وهولندا وإن قدر لها النجاح فى مصر فإنها ستكون ذات أثر فعال فى توفير الأسماك .

التصنيع الزراعى :

التصنيع الزراعى يرفع الدخل من الزراعة ويوفر للمواطنين كثيرا من الأطعمة ولدينا حاليا شركتان قطاع عام هما قها وإدفينا . ولم تظهر إلى خير التنفيذ مجمعات كثيرة رغم أنه منذ عشر سنوات أنشئت وزارة بهذا الاسم ثم ألغيت .

إقتصاديات الإنتاج الزراعى :

تتحكم فى الإنتاج الزراعى عوامل كثيرة وتؤثر عليه تأثيرا مباشرا منها .

- تسعير الحاصلات الزراعية
- التسويق التعاونى .
- الإيجار النقدى .
- الضرائب الزراعية .
- التفاوت فى الإنتاج الزراعى .
- العمالة .
- القوانين الزراعية وتعددها .

وسنعود الى مناقشة هذه المسائل عند الكلام عن مستقبل القرية وتنميتها فى آخر هذا الكتاب .

ملكية الأراضى الزراعية وحيازتها

تطورت ملكية الأراضى الزراعية وحيازتها على مر العصور وبقى شىء واحد ثابت لم يتغير هو أن الفلاح وحده هو الذى يزرع الأرض ويفلحها سواء كان مالكا أو حائزا أو مستعبدا أو مأجورا أو مستأجرا بالنقد أو مشاركا فى الانتاج .

ومنذ بداية الزراعة فى العصور الفرعونية كانت العقيدة الدينية السائدة أن الملوك من الآلهة وترتب على هذا ان المالك يملك كل شىء حتى الأطيان الزراعية وهو مطلق التصرف يمنح من يشاء أو يستغلها حسب ما يرى . كان يمنح الأمراء وقواد الجيش والجنود ويأخذ الأرض من أصحابها أو ممن منحها لهم إذا أراد ذلك .

ومنذ نحو اربعين قرنا فى عهد الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة فى الفترة من ٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠ قبل الميلاد ، اخذ الأراضى السابق توزيعها على الأمراء والقواد وحكام المدن وذوى النفوذ وأعاد توزيعها ووضع على الحدود حجارة متوسطة الحجم ظاهرة واضحة لتكون فاصلة ومحددة لكل قطعة ارض وكان يكتب عليها أحيانا إسم المالك أو الحائز .

وقام سفنن رع الذى انتهى عهده عام ١٥٨٠ ق . م وأحمس الذى تولى بعده من ١٥٨٠ الى ١٥٥٧ ق . م بانتزاع الأراضى من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة وعادت كل الأراضى ملكا للجالس على العرش باستثناء أراضى رجال الدين ـ الكهنة والأراضى التى كانت مخصصة للمعابد وكانت كلها معفاة من الضرائب .

وكان الفلاحون يزرعون الأرض للملك نظير ايجار عينى من الحاصلات المنزرعة تقدم عقب حصاد المحصول مباشرة .

وكثير من ملوك مصر الفراعنة كان يعطى الجنود أرضا زراعية تبلغ عادة نحو ١٢ فدانا بالمساحة القديمة (أورورا) وتعادل سبعة أفدنة من مساحة اليوم ويزرعها الجندى أيام السلم فاذا كانت هناك حروب ودعى لها تولى زراعتها أفراد اسرته أو يؤجرها لآخرين .

وكانت اكثر الأراضى التى تمنح للجنود على حافة الصحراء لصد غارات البدو .

عهود البطالسة (٣٣٢ ق . م- ٣٠ ق . م)

حاول ملوك البطالسة ان يوهموا المصريين أنهم خلفاء شرعيون للفراعنه وقد توج الإسكندر الأكبر نفسه على نهج الفراعنة وسمى نفسه « إبن آمون » .

وادعى البطالسة ان كل الاراضى الزراعية أهداها الإلة حورس الى ابنه الملك حورس الحى بطليموس .

وبذلك انتقلت ملكية الأراضى الزراعية كلها الى الملك وكان لملوك البطالسة أهداف سياسية وراء تملك الأراضى الزراعية فى مقدمتها دعم اقتصاد الدولة والثانى اعطاء الفرصة لأعداد كبيرة من الإغريق لاستيطان مصر وتملك الأراضى واستغلالها .

وكما كان الحال أيام الفراعنة كان الملك يحتفظ لنفسه بأكبر مساحة من الأرض المنزرعة يفلحها أجراء تحت إشراف موظفين أو تؤجر بإيجار عينى .

وخصص الملك جزءاً من الأراضى للمعابد .

كما كانوا يهبون مساحات واسعة من الأراضى البور لكبار الموظفين والقواد وكان للملك حق استرداد هذه الأراضى .

وقد منح الإغريق والأجانب الذين خدموا فى جيوش البطالسة مساحات من الأراضى تختلف حسب رتبة الضابط أو الجندى .

ومع أن هذه الإقطاعات اعتبرت منحة يستردها الملك عند وفاة الجندى أو عجزه عن دفع الضرائب الا أنها فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد عوملت معاملة الملكية الخاصة من حيث حق البيع والميراث والهبة .

عهود الرومان (٣٠ ق . م- ٦٤٠ ميلادية)

توسع الرومان فى مبدأ الملكية الخاصة فشجعوا الأفراد على شراء الأراضى وخاصة البور منها لإصلاحها وكانوا يمنحوهم امتيازات كثيرة نظير ذلك وكانت هناك محاولات لزيادة طبقة صغار الملاك والحد من طبقة كبار الملاك ومع ذلك استمرت طبقة كبار الملاك مزدهرة اثناء العصر الرومانى وكان أصحاب رؤوس الأموال من التجار والصناع والحكام وخاصة العسكريين يستثمرون مدخراتهم فى شراء الأطيان الزراعية إذ كانت فى نظرهم خير ضمان لحفظ الثروة .

وكانت هناك ملكيات كبيرة تزيد على الألف فدان . أما وسائل حصولهم على هذه الأرض فكانت مختلفة متباينة :

فى أول العصر الرومانى صادر الرومان كثيرا من الأراضى مثل الأراضى الملكية السابقة وكانت كبيرة جدا كما استولوا على كثير من أملاك المعابد بقصد إضعاف سلطة المعابد والكهنة . كما نص القانون على أن تؤول الى الدولة جميع الأراضى التى يهجرها أصحابها أو التى يعجز الأفراد عن دفع ضرائبها .

ولم تستمر هذه الأراضى فى حوزة الدولة بل قامت ببيعها للأفراد باسعار زهيدة تصل الى عشر ثمنها الحقيقى وذلك لتشجيع الرأسمالية الرومانية من اغنياء روما والرأسمالية المحلية على استثمار اموالهم فى إصلاح هذه الأراضى واستغلالها .

وكانت هذه الأراضى التى بيعت تتمتع عادة بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء الكامل من الضرائب لفترة معينة أو التخفيض الجزئى لهذه الضرائب . أما الأراضى التى لاتباع فكانت تبقى ملكا للدولة تؤجرها للأفراد على ان الأغنياء كثيرا ماتوسعوا فى تملك الأراضى بطرق أخرى غير شريفة مثل إقراض الديون لصغار الملاك الذين يحتاجون الى مساعدة مالية لإصلاح أراضيهم أو لأسباب أخرى وكانوا يقرضونهم بفوائد باهظة وبضمان مقدار من الأرض يتناسب مع الدين ذاته وكانت هناك محاولات خبيثه للاستيلاء على الأراضى المرهونة عندما يتأخر المدينون عن سداد ديونهم .

وفى ظل هذه الظروف نشأت الاقطاعات الكبيرة التى عرفت باسم الوسنية ـ وهى كلمه رومانية ـ فى حياة مصر الزراعية اثناء القرن الأول من حكم الرومان .

ولم يستمر الحال على هذا النحو بل قامت حملة قوية عند نهاية القرن الأول للقضاء على اقطاعات الرومان بقصد القضاء على طبقة الملاك المتغيبين فى روما الذين لا يقيمون بأراضيهم ولا يباشرونها بأنفسهم وكذلك بقصد تقوية طبقة صغار ومتوسطى الملاك الذين يعيشون على أراضيهم .ويستثمرونها بأنفسهم وليس عن طريق الوكلاء .

ولكن طبقة كبار الملاك لم تتأثر كثيرا بهذه الحملة واستمرت إلى القرن الثانى الذى كان أكثر استقرارا ورخاء فلم تحدث أية هزات فى الملكية الزراعية .

ولكن ما أن أوشك القرن الثانى على الانتهاء حتى أخذ الاقتصاد المصرى يتعرض لهزات عنيفة ولكن المحنة الكبرى التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث سببت حدوث تضخم مالى فى مصر وهبوط شديد فى قيمة العملة حتى ان سعر

الفدان الذى كان فى القرن الأول نحو ١٧٥ دراخمة بلغ فى القرن الثالث ٦٠٠ دراخمة وكان هذا معناه ازدياد قيمة الملكية الزراعية لأنها اثبت وأضمن انواع الملكية ، وفى ظروف التضخم هذه لا يتأثر الأغنياء أما صغار الملاك وأصحاب الدخول المحدودة فإنهم يقاسون كثيرا من الضيق فيعجزون عن دفع ضرائبهم أو يضطرون الى الاستدانة من كبار الملاك المجاورين لهم . وأخذت الدولة تصادر أموال الذين يعجزون عن دفع الضرائب وتعرضها للبيع فى مزاد علنى . وكان للأثرياء فى هذه المزادات نصيب كبير .

وهكذا قفزت فى القرن الثالث الملكية الإقطاعية قفزة لم يسبق لها مثيل مما مهد لقيام نظام شبه إقطاعى فى مصر البيزنطية إذ ظهرت الملكيات الشخصية الكبيرة وارتبط باتساع هذه الملكيات الكبيرة إختفاء الملكية العامة للدولة وظهور نظام الحماية وكان هذا النظام نتيجة الضرائب التى ارهقت صغار الملاك . لذلك لجأ كثير منهم الى حيلة تبعده عن مسئولية دفع الضرائب وهى طلب حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ على اساس ان يتنازل له عن الأرض مقابل ان يدفع عنه الضرائب للدولة وبذلك تحول المالك الحر الى تابع أو مستأجر لدى مالك كبير . وحاولت الدولة منع هذا التيار ولكن دون جدوى بل استمر حتى صارت قرى بأسرها تحت حماية كبار الملاك .

ونتج عن كل ذلك ان فى أواخر القرن السادس الميلادى أصبح الطابع المميز للملكية الزراعية فى مصر هو الإقطاعات الكبيرة التى كانت تشبه الى حد ما الإقطاعات الأوربية فى العصور الوسطى .

وفى عهود البطالسة والرومان ابتدعت المسئولية الجماعية لدفع الضرائب اذ أصبحت القرية كلها ملزمة بدفع الضريبة المستحقة فاذا هرب أحد الفلاحين أو حلت كارثة بأحدهم مثل الوفاة أو غرق الأرض أو حريق يتحمل باقى أهالى القرية الضريبة التى كانت مفروضة عليه .

وكذلك نشأ نظام الالتزام فى هذه المرحلة من تاريخ مصر إذ ظهر ما يسمى « الملتزم » وهو المشرف على تحصيل الضرائب وبقى بعد ذلك قرونا طويلة الى عهد محمد على .

ملكية الأراضى من الفتح العربى إلى محمد على (٢٠ هـ = ٦٤١ م إلى ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م) :

كانت أرض مصر منذ الفتح العربى الأول إلى أن حكم مصر محمد على أرضا خراجية أي ملكا صريحا لبيت أو للسلطان أو للحكومة القائمة .

وكان الملتزمون أو المقطعون يدفعون ما عليها من المال خراجا سنويا ما عدا الوقف والكروم والبساتين فقد كانت معفاة من الخراج نوعا ما . وكانت الأرض تعطى للمقطعين أو الملتزمين يأخذونها هبة أو بالمزاد العلنى ويدفعون ما عليها من الضريبة والخراج وليس لهم حق الملك بحال من الأحوال .

وكان مسئول الخراج (الضرائب) يجلس فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الارض وقد جمع الناس من سائر القرى والأقاليم فيقوم رجل ينادى على البلاد واحدا بعد الآخر وكتاب الخراج امام مسئول الضرائب يكتبون ما ينتهى اليه تتابع القرى على متقبليها ـ أى ملتزميها ـ وكان التشغيل أو الالتزام لمدة أربع سنوات لأجل ما يطرأ على الارض الزراعية من الظمأ والاستبحار فكل من ضمن ارضا أو تقبلها والتزم بها يتعهد بزراعتها وإصلاح جسورها بنفسه وأهله ويحصل ما عليها من الخراج على أقساط تحل فى مواعيد الحصاد والجنى ويحسب له ما ينفقه على إصلاح الجسور والترع .

ثم نقل ديوان الخراج الى جامع احمد بن طولون فى أيامه . ونقل بعد ذلك الى دار الوزير يعقوب بن كلس فى صدر الدولة الفاطمية فإلى القصر الفاطمى نفسه طوال أيام الدولة الفاطمية .

فاذا انقضت ثلاثون سنة قاموا بتعديل الضرائب ونظام الالتزام وكانت الأراضى الزراعية من أول الفتح العربى الى آخر حكم الفاطميين تعطى بطريقه القبالات ـ أى الأحواض الزراعية ـ لمن يشاء من الأمراء والجند والأعيان من العرب والقبط . ومن وقع عليه الالتزام يدفع ما عليه من الضرائب والمستحقات الى بيت المال .

والمتقبل وبعده الملتزم كانت تختلف أساليبهم فى استغلال الأرض:فمتجبرمتسلط يريد كل الخير لنفسه ويسوم الزراع سوء الحساب فيهربون منه أو يتحايلون عليه .

أو معتدل يعطى الفرصة للزراع والفلاحين كى يحققوا إنتاجا طيبا يقتسمه معهم فيفيد ويستفيد وان كان يحاول عادة ان تكون كفته الراجحة .

أو ضعيف متهاون لا يستطيع مباشرة التنفيذ بدراية وحنكة ويفلت الزمام منه ويغلبه الزراع على أمره فتضيع الفرصة منه ولا يقدر على استعادة التجربة .

وعندما تولى الحكم الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى أن الأراضى المصرية موزعة على المقطعين والزراع توزيعا غير عادل فأمر بتوزيعها من جديد لأن رقعة البلاد الزراعية اتسعت فى عهده اتساعا كبيرا نتيجة لإصلاح طرق الرى والزراعة .

وقد ذكر المقريزى أنه إذا انحسر ماء الفيضان عن الحياض وتقبلت نواحى مصر بالزراعة أى اعطيت بطريقة الالتزام تحرر مساحة ما يشمله الرى وتكتب بذلك مكلفات واضحة بالفدان .

طلب محمد على من الملتزمين الذين كانوا يتولون جباية الضرائب عقود التزامهم ولما تم جمعها أحرقها كلها وحتى لا يثور هؤلاء الملتزمون أعطاهم مساحات من الأراضى فى جهات متفرقة يستغلونها ولايدفعون عليها ضرائب .

وقد أبطل الاقطاع فأخذ الأراضى التى كانت فى حوزة أمراء المماليك وكبار موظفى الحكم العثمانى ووزع ارض كل ناحية على أهلها وقيد أطيان كل ناحية بأسماء واضعى اليد عليها لدفع الضريبة العقارية دون التملك أو التصرف فيها لأنه اعتبر كل الأراضى الزراعية ملكا للدولة وكان له وحده اختيار اسلوب التصرف فيها .

وسميت هذه الأرض بالأراضى الخراجية . ثم أنعم على كبار موظفيه وامرائه بالأطيان البور الواسعة لاستصلاحها على ان يربط على المستصلح منها العشر من غلتها عينا ثم نقدا فيما بعد ، وسميت هذه الأرض بالأراضى العشورية .

ولقد استمرت الأرض الخراجية ملكا صريحا للدولة حتى أواخر عهد إسماعيل حيث أصدر قانونا سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م سماه « بالمقابلة » وفيه يسمو لواضع اليد على الأرض بالتملك لها بعد أن يدفع أموال الأراضى الخراجية أو العشورية ست سنوات ، ويكون له حق الملكية المطلقة هو وأعقابه والتصرف فيها بكافة أنواع التصرفات الشرعية وهى الميراث والبيع والرهن والوقف والهبة .

وبذلك أجاز إسماعيل مالم يكن جائزا من الفتح العربى الأول الى عام ١٢٨٨هـ أى مدة ١٢٦٨ سنة هجرية تعادل ١٢٣٠ سنة ميلادية .

وظل قانون المقابلة هذا معمولا به إلى سنة ١٨٨٠م .

وفى سنة ١٨٩٩ صدر الأمر بتخويل حق الملكية الصريحة فى الأطيان الخراجية والعشورية التى لم تدفع عنها المقابلة وبذلك أصبح واضعو اليد ملاكا لأراضيهم الزراعية .

وقد منح إسماعيل أراضى زراعية شاسعة لكثيرين ممن حوله أكثرهم من أفراد أسرة محمد على رجالا ونساء ورجال القصر وبعض الأجانب وبلغ مجموع الهبات التى وزعها ٨٧٦٨٦٣ فدانا .

وقد ذكر محمد صبيح فى كتابه « اليقظة » الجزء الثانى قائمة تفصيلية بأسماء من منحت لهم هذه الأراضى .

ملكية الأرض فى العهد الجمهورى (١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م) :

بمجرد قيام ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢كان أول أعمالها القضاء على الإقطاع والملكيات الزراعية الكبيرة وأصدرت سلسلة من القوانين والنظم كان من نتيجتها :

- تحديد الملكية وجاء هذا التحديد على مراحل ، بدأ بحد أقصى ثلاثمائة فدان ، ثم وصل هذا الحد الى خمسين فدانا فقط ملكا وكذلك الحيازة والإيجار لاتزيد على خمسين فدانا للفرد .
- وملكية الأسرة لاتزيد على مائة فدان .
- تحريم تملك الأجانب للأراضى الزراعية .
- إلغاء نظام الوقف .
- حدوث العلاقة بين المالك والمستأجر .
- ولهذا القانون الأخير آثار إقتصادية واجتماعية هامة تفوق فى أهميتها تحديد الملكية الزراعية .

مساحة الأراضى الزراعية

أول تسجيل تاريخى لمساحة الأراضى الزراعية كان منذ اربعة الاف سنة فى عهد الملك امنمحات الاول (٢٠٠٠ ـ ١٩٧٠ق . م) وبديهى ان هذا الملك لم يبدأ من فراغ فقد كانت هناك مساحات للارض الزراعية متعارف عليها عند الدولة وعند الزراع والجديد الذى أضافه هذا الملك هو تنظيم العملية ووضع اسس وقواعد علمية لها .

ووضع على حدود كل قطعة حجارة توضح موقع الفواصل بين حائزى الاراضى حتى تكون الحيازة واضحة المعالم معروفة المساحة وبالتالى يمكن حصر الضرائب المطلوبة للحكومة .

وقد تكرر مساحة الاراضى الزراعية فى العهود الفرعونية وكانت تبلغ نحو ستة ملايين من الأفدنة (الاورورا) وتقدر بنحو ثلاثة ملايين فدان من الأفدنة المعترف بها اليوم .

كما تكررت المساحة فى عهد البطالسة والرومان وبعد دخول عمرو بن العاص وعندما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة فى دمشق عام ١١٠ هـ - ٧٢٩ م امر واليه على مصر الوليد بن رفاعة بمساحة كل الاراضى المنزرعة فكانت ثلاثة ملايين فدان تقريباً وفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م ايام امارة احمد بن طولون تم عمل المساحة الثانية كانت الارض المنزرعة ٢,٥ مليون فدان تقريباً .

وفى عام ٤٨٣هـ - ١٠٩٢ م فى عهد الدولة الفاطمية اثناء خلافة المستنصر تم عمل المساحة الثالثة .

وتوالت مساحة الاراضى الزراعية فى عهد صلاح الدين الأيوبى ٥٧٢هـ - ١١٧٧ م واستمرت عمليات مسح الاراضى فى كل العهود لتقدير الخراج (الضرائب) .

وبعد دخول العثمانيين مصر امر السلطان سليمان القانونى بعمل مساحة جديدة للاراضى المصرية سنة ٩٣٠ هـ وقد باشر العملية الامير كيوان فى سنة ٩٣٣هـ وقد عمل حصرا جديدا للاراضى الزراعية وما تجبيه من الخراج وحدد الامير كيوان ارض مصر كل اقليم على حدة ووضح الأطيان المملوكة للأفراد والأوقاف والإقطاعات وكتب بذلك دفاتر وسجلات سميت دفاتر ترابيع ٩٣٣ على اساس الفدان ٤٠٠ قصبة وأصبح يعمل بهذه الترابيع الى عهد محمد على .

والتربيعة قائمة من الورق مربعة الشكل تكتب فيها عملية المساحة فى كل قرية وبضم ترابيع كل قرية بعضها الى بعض تكونت دفاتر الترابيع التى تردد اسمها فى كتب التاريخ التى كتبت عن تلك العهود .

ولما تولى محمد على عام ١٢٢٠هـ وتخلص من واضعى اليد على الاراضى الزراعية من المماليك وغيرهم من الملتزمين ونظار الاوقاف رأى الغاء الالتزام جملة ووضع ضرائب ثابتة على الأطيان فأصدر امره عام ١٢٢٧هـ بفك زمام جميع اراضى القطر المصرى ومسح كل قرية على حدة وسجل جميع النواحى القديمة والجديدة فى سجلات جديدة عرفت باسم « دفاتر التأريع » ولم تعمل خرائط ولا رسوم مساحية بل كان القياس بالقصبة ثم تحول الى الفدان وقد تمت مساحة القطر فى ثلاث سنوات وقد اطلق اسم تأريع وتواريع على دفاتر المساحة للاراضى الزراعية والتأريع هو ما يكتب فيه ريع البلاد والظاهر ان

الموظفين فى عهد محمد على اطلقوا كلمة التأريع على دفاتر المساحة لأنها هى الأساس فى حصر الأراضى الزراعية التى ينتج منها ريع البلاد أى إيراداتها .

واصطلح الموظفون بعد ذلك على استعمال كلمة تأريع بمعنى مساحة فيقال تاريع كذا اى مساحة كذا ودفتر تأريع سنة كذا اى دفتر مساحة تلك السنة .

ولما تولى سعيد باشا امر بفك الزمام وتم ذلك فى الفترة بين عام ١٢٧٠ الى ١٢٧٥ واستمرت كلمة تأريع تطلق على دفاتر المساحة الى اخر عهد سعيد .

وفى اواخر حكم اسماعيل امر السيد رفرس عام ١٨٧٨ بعمل لجنة لدراسة الأعمال المساحية فقامت هذه اللجنة بوضع قواعد علمية وفنية دقيقة لتحديد الممتلكات وإثبات ذلك على خرائط مساحية تعين بالضبط موقع وشكل كل قطعة مساحية باسم صاحبها .

وقد استمرت عملية المساحة الجديدة من ١٨٩٩ الى عام ١٩٠٦ وفى خلال هذه المدة مسحت كل الاراضى وعملت خرائط مساحية لكل النواحى من مدن وقرى وعزب وعملت دفاتر مساحة ودفاتر مكلفات وفى عام ١٩٠٩ نشرت وزارة المالية احصاءات تفصيلية عن اسماء النواحى والأحواض ومقدار الضريبة المالية المفروضة عليها وتكرر مثل هذا البيان فى اعوام ١٩٢٨ ، ١٩٣٣ ، ١٩٤٣ ويتكرر الان مرة كل عشر سنوات .

ومساحة الفدان المصرى وهى ٤٢٠٠ متر مربع تقرب من مساحة الايكر وهى الوحدة المستخدمة عالميا فى اكثر بلاد العالم وفى الاحصائيات الرسمية وتساوى ٤٠٠٠ متر مربع بينما يبلغ الهكتار عشرة الاف متر مربع اى ٢,٥ ايكر .

وفى البلاد العربية تستخدم وحدات اخرى مثل الدونم ومساحة الف متر وبعض البلاد العربية الاخرى كاليمن تستخدم الميعاد .

المقاييس الزراعية

اول ما عرفت مساحة الارض فى عهد الفراعنة كانت تقاس بحبل طوله نحو مائة ذراع قسم الى اجزاء بواسطة عقد عملت على ابعاد متساوية منه لتسهيل عملية القياس .

ثم استعملت قصبة الغاب وهى عود مستقيم من نبات الغاب (البوص) وفى أيام الفاطميين استخدمت القصبة الحاكمية نسبة الى الحاكم بأمر الله الفاطمى وكانت هناك قصبة تسمى السندفاوية نسبة إلى سندفا أحد شقى مدينة المحلة الكبرى وهذه القصبة تكبر القصبة الحاكمية .

وقد وجد الفرنسيون قصبة فى احد مساجد الجيزة واعتبرت نموذجية لذلك العهد وكان طولها ٣,٨٥ متر ومنها استخرجوا مساحة الفدان على عهد الحملة الفرنسية . والجدير بالذكر ان طول القصبة كان دائما وأبدا يمثل جزءا من ضلع قاعدة الهرم الاكبر .

القصبة المصرية القديمة وكان طولها ٣,٠٨ متر تساوى جزءا من ٧٥ من طول ضلع الهرم الاكبر .

والقصبة التى وجدها الفرنسيون بمسجد بالجيزة كان طولها ٣,٨٥ متر وتعادل جزءا من ستين من ضلع قاعدة الهرم الاكبر .

وفى عهد محمد على اصبح طول القصبة ٣,٥٥ متر وظل هذا الطول ثابتا حتى اليوم وفى سنة ١٨٨٠ استعمل الجنزير الحديد فى مساحة الارض وصدر قرار بإبطال القصبة واستخدام الجنزير إبتداء من اول يناير ١٨٨٩ بدلا من القصبة الغاب .

وقد أصبحت آلة القياس الآن هى المتر وهو مقياس دولى مقسم الى ١٠٠ سنتيمتر .

الفدان

وحدة المساحة للأراضى الزراعية فى مصر هى الفدان والحوض والقبالة والفدان كان وحدة المقاييس الزراعية فى عهد قدماء المصريين والقبط وأخذه العرب عنهم وهو أساس الضريبة العقارية فى مصر .

والفدان لغة هو المحراث واصطلاحا هو مساحة محددة من الأرض وفى عهد الفراعنة كان الفدان يسمى الأورور ومساحته ٢٧٥٦ مترا مربعا وعند دخول العرب كانت مساحة الفدان ٦٢٠٩ أمتار مربعة وفى عهد المماليك كان ٦٤٣٤ مترا مربعا وأيام الحملة الفرنسية كان ٥٩٢٩ مترا مربعا .

ونظرا لاختلاف طول القصبة وبالتالى اختلاف مساحة الفدان قرر محمد على عام ١٨٣٩ عمل لجنة من المهندسين المصريين والفرنسيين لتوحيد مساحة الفدان وقد اخذت اللجنة من الأقيسة التى كانت مستعملة قبل ذلك التاريخ خمسة افدنة فى الوجه البحرى

ومثلها فى الصعيد واخذت المتوسط فكانت النتيجة ٣٣٣ وثلث قصبة مربعة وتعادل ٤٢٠٠ متر مربع وطول كل ضلع من أضلاع الفدان اذا كان مربعا هو ١٨,٢٥ قصبة .

وقد اصدر سعيد باشا قرارا عام ١٨٦١ بجعل القصبة ٣,٥٥ متر فى جميع أرض مصر وبذلك حدد مقاس المساحة فى مصر واضحا واصبح هذا الطول ثابتا واجباريا .

والفدان مقسم الى ٢٤ قيراطا والقيراط مقسم ٢٤ سهما ومساحة الفدان ٤٢٠٠ متر مربع ومساحة القيراط ١٧٥ مترا مربعا والسهم ٧,٢٩٣ متر مربع .

ويقدر زمام القرى بالفدان وكذلك يقسم الزمام الى احواض كل حوض يحمل اسما او رقما والحوض عبارة عن قسم واحد من الارض متساو من حيث الخصوبة ومصادر الرى والصرف وتربط على ارض الحوض ضريبة موحدة .

الفلاح والضرائب

كان الفلاح ولايزال هو الممول الوحيد الذى يدفع ما عليه من الضرائب سنويا دون ان يفلت منها لأن الأرض التى يزرعها معلومة المساحة والمحصول القائم عليها واضح للعيان وجباة الضرائب منتشرون فى كل القرى . وهو يدفع الضريبة عينا او نقدا أو عينا ونقدا معا .

وليس الامر كذلك بالنسبة لكل الممولين الاخرين حيث يمكن التهرب او الافلات من دفع المستحقات الضريبية مثل الممولين الذين تتصل اعمالهم بالصناعة والتجارة والحرف المهنية والسياحة والملاهى والفنون والسمسرة وكل اولئك من ذوى الانشطة المشروعة . ويضاف الى ذلك ان هناك فئات من الناس وان قل عددها تزاول انشطة غير مشروعة وتجنى من ورائها الكثير مثل مزاولة الميسر وتجارة المخدرات او تهريب السلع المعمرة او الممنوع التداول فيها وتجار السوق السوداء وبديهى ان هؤلاء لا يدفعون شيئا من ارباحهم على الاطلاق .

على مدى التاريخ الضريبى الطويل الذى يزيد على اربعين قرنا لم يعرف الفلاح المعدل الضريبى الا خلال ومضات قصيرة من عمر الزمان تبدو وسرعان ماتخبو وخلال هذه الومضات يعم الرخاء وتسود الطمأنينة وعلى مدى الأربعين قرنا كان يصاحب جباية

الضرائب القسوة والعنف والاضطهاد والتعذيب على انه منذ اشرق القرن العشرون اختفت تلك الوسائل وبقيت الضرائب سواء كانت منصفة او مجحفة ولكن التحصيل والجباية إتخذ صورة إنسانية حفظت للفلاح كرامته .

جباة الضرائب موظفون يحصلون الاموال باسم الحاكم ايا كان اسمه ومكانه . . خليفة المسلمين فى دمشق . . خليفة المسلمين فى بغداد . . السلطان فى الاستانة . هؤلاء الموظفون والجباة يسومون الناس صنوف العذاب ويفوزون لأنفسهم بنصيب من الاموال والثمرات واضعاف مايصل للحاكم الأعلى حتى ولو كان أمير المؤمنين او خليفة المسلمين ، ومن قبل الفراعنة ، ومن بعد السلاطين والولاة . . إن هى إلا أسماء سموها . . ماهى إلا حكام سلطة يحرصون على المنصب والجاه والمال لهم ولمن حولهم ولأبنائهم من بعدهم . . . شأنهم شأن من كان قبلهم . . شأنهم شأن من سيأتى بعدهم . . وان اختلف الزمان ، وان اختلف المكان وان اختلف الإنسان فى عنصره او جنسه او لغته او دينه .

اختلفت الأزمان والمواقع وتغيرت الأديان والعقائد وتنوع أسلوب الحكم ووجوه الحاكمين وتبدلت طرائق جمع المال ضريبة أوخراجا أوزكاة تطوعا اوكرها تبرعا او سلبا وظل الهدف واحدا لايتغير ولايتبدل اثراء الغنى على حساب إفقار الفقير ، وإسعاد الحاكم ولو شقى المحكوم . وارهاب الضعيف وتخويفه ليأمن ويطمئن ويشبع الحاكم وأعوانه بينما يجوع الفلاح وأترابه .

فى كل العصور إلى مطلع القرن العشرين كان يصحب جمع الضرائب أساليب القسوة والبطش . . الضرب بالكرباج والتعذيب حتى وصل فى بعض الأحوال إلى إجلاس الناس على صوان اشعلت تحتها النار حتى احمر معدنها والقبض على النساء والإلقاء بهن فى الماء مثقلات بالاحجار حتى يغرقن والرجال من أهلهن موثوقو الأكتاف يشاهدون ولايستطيعون التحرك .

والفلاحون يعيشون على حد الكفاف او دونه إذ أن الضرائب تستنزف كل مواردهم ولا تبقى لهم شيئا المنازل أكواخ من طين وسوء التغذية والأمراض تلاحق بعضها بعضا .

وقد قدرت الضرائب على الفلاحين فى عهد المقوقس قبل دخول الإسلام بنحو ٢٠ مليون دينار وبعد دخول الإسلام كانت الضرائب تسمى خراجا وبلغت جملتها فى عهد عمرو بن العاص ١٢ مليون دينار وهى جملة ما على الإنتاج الزراعى مضافا إليها دينارين

جزية عن كل شخص لم يعتنق الإسلام . وبلغت الحصيلة ١٤ مليون دينار فى عهد عبد الله بن سعد بن أبى سرح أثناء ولاية عثمان بن عفان وقد أرسل الخليفة عثمان بن عفان الى واليه عبد الله بن سعد ينتقد زيادة الضرائب ويحذره ان تأتى بنتائج عكسية . ثم انخفضت الحصيلة الى ٣ ملايين دينار فى عهد الأمويين والعباسيين لضعف الإنتاج الزراعى وتدهوره وكثرة القلاقل .

وكان البلاء يشتد على الفلاحين حينما تكون الحقول مسرحا لعمليات حربية او هدفا لغارات بدو الصحراء فإن الإنتاج الزراعى يخضع بطبيعته لعوامل كثيرة متعددة الا انه فى تاريخ مصر الاقتصادى كان يبرز من هذه العوامل ثلاثة لها خطورتها ألا وهى النيل وحالة مياهه بين انخفاض الوارد والفيضان المدمر والثانى الضرائب والثالث الأمن . وتحل الطامة الكبرى بالبلاد والإنتاج الزراعى إذا شح النيل وزادت الضرائب واختل الامن بسبب الحروب او غزوبدو الصحراء للريف وأهله .

العدل والظلم الضريبى قائمان منذ عرفت جباية الضرائب وعندما يسود العدل يطمئن المنتج ويبذل جهده راضيا سعيدا ويصاحب العدل الضريبى حسن الجباية وطهارتها ونزاهتها اما عندما يسود الظلم الضريبى ويلازمه سوء الجباية واستغلال الجباة وعسفهم واحيانا بطشهم يهمل الناس الإنتاج ولايقبلون عليه إلا كارهين مضطرين .

وفيما يلى استعراض موجز للضرائب التى تحملها الفلاح على مدى التاريخ .

العهود الفرعونية

كان النظام السائد فى العهود الفرعونية ان القرى واراضيها هى ملك لأهلها ولكن كان يحدد لهم مقدار معلوم من إنتاج الأرض يقدمونه للدولة ويربط ذلك مرة كل أربع سنوات ينظر بعدها فى تعديل هذا الربط زيادة او نقصا تبعا للظروف التى تتحكم فى الزراعة من وجود آفات ومقدار مايأتى به النيل من ماء والظروف الجوية التى تؤثر على الإنتاج .

وكمية الخراج التى تربط عليهم تقدم للحاكم فيقسمها أربعة اقسام متساوية القسم الاول للملك يصنع به مايريد .

والثانى للجنود يوزع منه على الجنود ولمصاريف الجيش .

والثالث للصرف على المشروعات العامة التى تخص الزراعة مثل حفر الترع واقامة الجسور وبناء القناطر وكل مايعود بالنفع على الأرض والزراعة والقرى .

اما الرابع فيوضع فى المخازن تامينا للناس من المجاعات ومن النوائب التى تحل بالقرى كالفيضانات المدمرة والحرائق وفتك الجيوش الغازية والجراد .

وابرز نظام للضرائب الزراعية كان فى ايام حكم الملك امنمحات الأول من الأسرة الثانية عشرة التى انتهت عام ١٧٧٨ ق . م قام باصلاحات كثيرة جعلت البلاد كلها فى طمأنينة واستقرار إذ جعل للأقاليم حدودا تميزها وقسم بينهم الماء حتى لايكون هناك نزاع بين الفلاحين واهتم بشئون الرى اهتماما كبيرا .

وكان من قراراته التى اسعدت الناس انه جعل لهم الحق فى عدم دفع الضرائب اذا حدث قحط بسبب انخفاض ماء النيل او حدوث كوارث جوية للزراعة .

كما انه اقام القلاع والحصون على جافة الصحراء على امتداد شرق الدلتا لصد غزوات البدو المتكررة والحيلولة دون نهبهم وعدوانهم على المزارع فان وقع ذلك فانه يعفى الفلاحين من الضرائب .

ويتحدث الملك امنمحات الى ابنه سنوسرت الاول يصف افعاله « كنت أبذر الشعير الذى يحبه إله الحب وقد أنعم النيل علىَّ فى كل واد عريض ما تركت أحدا يشكو ظمأ أو جوعا وعاش الناس أجمع فى ظل سلام جامع بفضل مافعلته لهم وكلهم ألسنة تلهج بالثناء علىَّ » .

وبعد ذلك بقليل احتل الهكسوس مصر (١٦٧٥ ـ ١٥٧٠ ق . م) ولأنهم غزاة اجانب فقد تصرفوا تصرف المستعمر فى كل زمان ومكان باستنزاف خيرات البلاد واشتدت وطأة الضرائب بل كانت الحاصلات وخيرات الأرض تؤخذ من الفلاحين اغتصابا ودون قاعدة او نظام على عكس الحال أيام عهد الملك إمنمحات .

وكره المصريون وخاصة الفلاحون هؤلاء الغزاة وتمنوا زوال حكمهم الذى لم يستغرق الا نحو ماتة عام ولذا قام اهل مصر جميعا وراء واحد منهم هو احمس فقام بطرد الهكسوس الى فلسطين .

وكان من بين إصلاحاته الهامة العدل فى جباية الضرائب .

وعندما تولت الملكة حتشبسوت بعد زوجها تحتمس الثانى إجتهدت فى عمل الإصلاح داخل البلاد وكانت تردد « همى أن أعمر لا أخرب وأكمل مالم يكمل بناؤه بعد أن هدم الاسيويون ـ الهكسوس ـ ما أقيم من قبل فى أراضى الشمال » .

وفى عهدها استقرت الضرائب الزراعية فازدهرت الزراعة بما لم يسبق له مثيل ، وظل طابع الأسرة الثانية عشرة مرتبطا بالعدل الضريبى على الفلاحين وامتد الرخاء ووفرة الإنتاج إلى زمن الأسرة التاسعة عشرة فى عهدى سيتى الاول ورمسيس الثانى فقد

كانت الخيرات ووفرة الحاصلات تفيض على الناس جميعا وكانت قوافل التجارة تفد على مصر من البلاد المجاورة وتعود محملة بالحبوب من قمح وشعير وعدس وغيرها

غير أن الوضع تغير سريعا فحل البؤس والشقاء فى عهد رمسيس الثالث بسبب تدخل الكهنة ورجال الدين فى الحكم وتكرر وقوع الخلاف بين السلطتين الدينية والسياسية ـ بين الكهنة والفراعنة ـ وينتهى الخلاف بانتصار الكهنة وهكذا ظهر فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة وضع شاذ ولعل أسوأ أنواع الحكم حينما ينقلب رجل الدين إلى رجل سياسة ويمسك بزمام الأمور .

أصبح نصيب الكهنة من الخراج ـ الضريبة الزراعية ـ النصيب الأوفى والأكبر وقد سجلت إحدى أوراق البردى المعروفة باسم بردية هاريس فى أواخر حكم رمسيس الثالث أنه أصبح فى حوزة الكهنة مايلى

٧٥٠ الف فدان
٥٠٠الف رأس من الماشية
١٠٠ الف فلاح فى خدمتهم

هذا علاوة على نصيب سنوى من الحبوب يبلغ ١٨٥ ألف كيس وما يعادل ٣٢ ألف كيلو جرام من الذهب ومليون كيلو من الفضة وأصبحت خزائن الدولة خالية من القوت والمال وأصبح الشعب يعانى جوعا وحرمانا بعد أن كان منذ سنوات قليلة يعيش فى رفاهية وعز ورخاء .

وتمكن كهنة آمون من وضع السلطة رسميا فى أيديهم فنصبوا الكاهن الأعظم « حريحوز » ملكا عام ١٠٩٠ ق . م وتحولت الإمبراطورية المصرية إلى حكومة دينية كانت لقراراتها صفة القدسية وتجمعت أموال البلاد فى ايدى الكهنة وزادت الضرائب على الإنتاج الزرعى والفلاحين وقد بلغت أوقاف معبد آمون فى طيبة فى بداية الاسرة .

العشرين حوالى ٢٠ ٪ من الأراضى الزراعية مما أدى إلى ازدياد قوة الكهنة السياسية .

وبدأ الضعف يدب فى اوصال الدولة وأخذت الفتن تندلع فى الأقاليم وأصبحت الزراعة : والحقول نهبا لمحصلى الضرائب واللصوص وقطاع الطرق والبدو .
وقد تولى شوشنق ذو الاصل الليبى حكم مصر وانهى حكم الكهنة وظل هو وخلفاؤه من ملوك الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين يحكمون مصر حتى عام ٧٣٠ ق . م .

وكانت جباية الضرائب بالاسلوب والمفهوم الاستعماري هو الاستنزاف دون محاولة لإصلاح مقومات الزراعة : من ري وأمن .

وفي عام ٧١٥ ق . م استولى الاثيوبيون ـ الأحباش ـ على السلطة وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين .

وظل اسلوب جباية الخراج كما كان في عهد سلفهم لارابط ولا ضابط بل مبالغة في الضريبة دون خدمات تذكر لتحسين مرافق الزراعة .

وفي عام ٦٧٠ ق . م هبط الاشوريون مصر وبالغوا كثيرا في فرض الجزية والخراج .

وفي عام ٦٦٣ ق . م نجح بسماتك ـ المصري ـ أمير صا الحجر في أن يستقل بمصر وأسس الأسرة السادسة والعشرين .

وخلال حكم هذه الاسرة عاد العدل الضريبي الى الريف المصري والفلاح فازدهرت الزراعة : وفاضت الغلات .

وفي عام ٥٢٥ ق . م جاء قمبيز من فارس واحتل مصر وظل الفرس يحكمون مصر الى ٣٣٢ ق . م .

عهود البطالسة والرومان والبيزنطيين .

وفي عام ٣٣٢ ق . م جاء الاسكندر الاكبر وحكم مصر ويبقى حكم الإغريق الى عام ٤٨ ق . م .

وفي عام ٤٨ ق . م إحتل قيصر الإسكندرية واصبحت مصر عام ٣٠ ق . م ولاية رومانية اى مستعمرة ليس لها من امرها شيء .

وفي عام ٣٩٥ م وقعت مصر في قبضة الإمبراطورية البيزنطية الى ان فتح العرب مصر عام ٦٤٠ ميلادية .

وأثناء تلك المرحلة التاريخية التي بدأت بالاسكندر وانتهت بفتح العرب لمصر وتبلغ نحو الف عام (٣٣٢ ق . م ـ ٦٤٠م) كانت ذات طابع خاص بالنسبة لملكية الاراضي الزراعية وحيازتها واسلوب استغلالها وكذلك بالنسبة للضرائب الزراعية . . طابع مختلف عما كان ايام الفراعنة وعما حدث بعد الفتح الإسلامي بل حدث في هذه المرحلة ان السياسة الاقتصادية للبطالسة كانت على عكس السياسة الرومانية .

كان البطالسة يطبقون مبدأ « الارض ملك للدولة » أما الرومان فقد نفذوا نظام الملكية الخاصة الذي مهد لقيام النظام شبه الإقطاعي في عهد البيزنطيين .

فى بلاد اليونان والرومان كانت الزراعة تقوم على اكتاف الرقيق اما فى مصر فكان الوضع مختلفا فالزراعة تعتمد على الفلاحين الاحرار وليست على العبيد الذين يمتلكهم صاحب الارض .

خلال عهود البطالسة والارض ملك للدولة كانت الارض تسلم للفلاحين بإيجار عينى او نقدى او كليهما وكانت القيمة الايجارية تختلف حسب خصوبة الارض وموقعها ونوع المحصول وكانت هناك بعض المزارع الواسعة تديرها الحكومة ويعمل فيها الفلاحون بالاجر اليومى النقدى او لقاء إعاشتهم طول العام واكبر مثال على ذلك مزارع الكروم والزيتون .

وفى كل هذه العهود كانت هناك ضرائب على الفلاح سواء على صورة خراج عينى او نقدى او ايجار ولكن هناك عسف وقسوة من الموظفين جباة الضرائب ولم تظهر صور استبداد صاحب الارض لانه فى عهد البطالسة كانت الارض ملكا للدولة وفى عهد الرومان كان اكثر الملاك لايقيمون فى مزارعهم وقد يكونون خارج حدود مصر فى اوطانهم .

الضرائب الزراعية فى صدر الإسلام (٢٠ - ٣٨هـ = ٦٤١ - ٦٥٨م)

فتح العرب مصر واخذوا يدعون الى دين جديد . . الإسلام . . دين يحرر البشر من سلطان البشر دين جديد بكل معانى الجديد فهو عقيدةوشريعة ، عقيدة تقوم على التوحيد وشريعة تقوم على العدل .

فلما استتب لهم الأمر أخذوا يمارسون الحكم بأسلوب مبتكر وفكر متفوق وتنفيذ رائع لاتشوبه شائبة .

أخذوا ينشرون الدعوة للدين الجديد بالحكمة والموعظة الحسنة دون إكراه وبدأوا فورا فى تنفيذ خطط الإصلاح فى جميع الميادين وفى مجال الضرائب على الإنتاج الزراعى والفلاحون طبقوا القواعد والاسس التى جاء بها الإسلام ضريبة معقولة على الإنتاج الزراعى اى على ما تنتجه الارض فعلا ثم جزية على من لم يقبل اعتناق الدين الجديد وتحصل الضريبة بالحسنى والمحافظة على وجود علاقة طيبة بين الحاكم والمحكوم عدالة كاملة فى فرض الضريبة ورعاية وحسن معاملة واحترام عند تحصيل تلك الضريبة .

بدأ حكم العرب لمصر بواسطة عمرو بن العاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب وكانت بداية فريدة لنظام حكم لم يجد الزمان بمثله .

وفى عهد الرومان ظهر وضع لم يكن معروفا فى مصر من قبل وهو « المالك الغائب » يمتلك الارض فى مصر وتدار بواسطة موظفين وصاحب الارض فى وطنه فى الدولة الرومانية فى روما أو غيرها من البلاد .

الوالى عمرو بن العاص يعمل بما تفرضه أحكام الشريعة الإسلامية وهو يستشير الخليفة عمر بن الخطاب فى قواعد التنفيذ ويطبقه دون ادنى مخالفة .

كما ضرب المثل وكان القدوة الحسنة فى تصرفاته الشخصية كتب عمرو بن العاص اليه خطابا يقول فيه « أنا قد اختططنا لك دارا عند المسجد الجامع » فكتب اليه : « أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر . . ؟ » وأمره ان يجعلها سوقا للمسلمين .

ووضع عمرو بن العاص قاعدة ان الضرائب لاتحصل الا عند النضج والحصاد وان يصرف ثلث المحصل من الضرائب لعمل الترع والجسور والطرق .

واستمر المنوال بالنسبة للضرائب وطرق تحصيلها على هذا الأسلوب العادل فى عهود الخلفاء الذين جاؤوا بعد عمر .

وفى عهد عثمان بن عفان اجتهد عامله عبد الله بن سعد بن إبى السرح فى تحصيل الضرائب فزادت الحصيلة مليونين من الدينارات عن السنوات التى من قبلها فارسل إليه يؤنبه ويحذره من عاقبة الإسراف فى زيادة الضرائب .

ولما تولى الإمام على بن ابى طالب كرم الله وجهه كتب الى واليه على مصر محمد بن ابى بكر الصديق يشرح له سياسة الضرائب وكانت تأخذ إسم « الخراج » قال رضى الله عنه :

« تفقد امر الخراج بما يصلح أهله لأن فى صلاحهم صلاح لمن سواهم ، ولاصلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله وليكن نظرك الى عمارة الارض أبلغ من نظرك الى استجلاب الخراج لان ذلك لايدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج من غير عمارة اخرب البلاد واهلك العباد ولم يستقم امره الا قليلا وانما يؤتى خراب البلاد من أعواز أهلها وإنما يعوز اهلها لإسراف الولاة على الجميع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالصبر »

وهذا التوجية هو لاشك فلسفة غاية فى السمو وبعد النظر للأسس السليمة التى يمكن ان توضع عليها قواعد جباية الضرائب بحيث يكون الهدف الأساسى من فرض الضرائب هو الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى والعدالة ووضوح العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

كانت هذه الفترة القصيرة من عمر الزمان ايام ولاية عمر وعثمان وعلى لا مثيل لها على مر التاريخ كله بالنسبة لعدالة الضريبة والمساواة فى توزيعها واسس تحصيلها واسلوب الجباية الذى لاعسف فيه ولا تسلط ولا تعذيب ولا رشوة ولا اهانة بل حفاظ على كرامة الفلاح وآدميته ونزاهة وشرف فى الانفاق .

كانت ومضة قوية الاشراق قصيرة الزمان سرعان ما انطفأت ومضت ولن تعود .

واذا كان نظام الحكم الإسلامى لا يزال قائما واستمر فى مصر الى يومنا هذا فان الضرائب فى فرضها وتقديرها وجبايتها ومصرفها تغيرت وتبدلت مع تغير وتبدل انظمة الحكم حتى ثقلت وطأتها على الريف واهله واصبحت سوط عذاب .

وسنرى فيما يلى ماذا حدث بعد فترة حكم الخلفاء الراشدين .

الضرائب فى عهد الدولة الأموية (٣٨ - ١٣٣هـ = ٦٥٨ - ٧٥٠ م)

فى بداية حكم بنى امية استمر العمل سنوات قليلة كما كان ايام الخلفاء الراشدين وقد امر عبد الله بن عبد الملك بن مروان بترجمة نظام الضرائب من اللغة القبطية الى اللغة العربية ايام ان كان حاكما لمصر فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وتم ذلك سنة ٨٧ هـ .

واستغل الامويون هذه الترجمة لإدخال ضرائب جديدة او رفع رسوم الضرائب السائدة فى ذلك الوقت .

وقد بالغوا فى فرض الضرائب على الفلاحين وأهل الذمة وهم الذين لم يعتنقوا الإسلام بعد وتكررت ثورات الفلاحين من الأقباط بسبب الضرائب ولكن الشىء الجدير بالتسجيل لبنى أمية أنهم وإن كانوا قد زادوا فى الضرائب إلا أنه لم تكن هناك قسوة أو عنف عند التحصيل .

الضرائب فى عهد الدولة العباسية (١٣٣ - ٢٥٤هـ = ٧٥٠ - ٨٦٨ م)

بدات صورة الضرائب تتغير سريعا فى عهد العباسيين سواء من حيث مقدارها او اسلوب جبايتها او مصارف الانفاق .

فى عهد هارون الرشيد كثرت الاضطرابات المحلية والثورات الاقليمية داخل مصر وكان السبب التقليدى هو الحاح الخلافة فى بغداد على عمالها فى مصر لزيادة الضرائب تبعا لحاجة الخلافة المتزايدة الى الاموال للنفقة على مظاهر الترف والأبهة .

عز واسراف وترف فى بغداد واستنزاف ونهب للموارد الزراعية فى ريف مصر رخاء واسترخاء للولاة فى بغداد على ضفاف دجلة وسياط عذاب تلهب ظهور الفلاحين على ضفاف النيل .

فى بغداد المغنون والمغنيات والجوارى والمحظيات وبناء القصور واقامة الولائم والحفلات والخمر والشعر وعطايا وهدايا بغير حساب للمغنيات والجميلات والشعراء والندماء اكياس من ذهب واكياس من فضة .

والمغنية اذا اجتمع لها حلاوة الصوت وجمال الوجه اصبح سعرها عاليا وقد قال قائل فى عهد بنى العباس فى تفضيل المغنيات على المغنين من الرجال « ان الغناء لا يسمع من بين لحية وشارب » .

ويلغ ثمن المغنيات والجوارى مئات الالوف من الدنانير ويتنافس العظماء والحكام واعوانهم على اقتناء الإماء .

تنفق الاموال فى بغداد من حصيلة الضرائب فى الأقطار والأمصار الإسلامية وأولها مصر لاتساع رقعتها وارتفاع مستوى الانتاج الزراعى فيها .

واذا كانت الثورات والقلاقل ايام الامويين تأتى من جانب القبط لان غالبية دافعى الضرائب كانت منهم ولان الفلاح القبطى كان يدفع جزية علاوة على الخراج فانه فى عهد العباسيين زاد عدد الداخلين فى الإسلام واخذت البلاد الصبغة العربية ومع هذا اتحد الاقباط والمسلمون لمواجهة الظلم الضريبى وفوضى الجباة .

وكان مركز الاضطراب والقلاقل ضد الرشيد هو الحوف الشرقى وهو محافظة الشرقية حاليا وكانت تضم فى ذلك الوقت الاقباط ومعهم عرب من قبائل قيس والقبائل اليمنية ومن الحوف الشرقى امتدت الثورة والقلاقل الى باقى بلاد الوجه البحرى حتى وصلت مدينة الاسكندرية .

وظلت الامور فى ريف مصر وخاصة الوجه البحرى غير مستقرة ايام الرشيد وخلفائه الامين ثم المأمون ومن جاء بعدهم .

ولما كثر السلب والنهب والعدوان على الانفس والاموال والخروج على قواعد الدين والاخلاق قامت جماعة تدعو الى المعروف وتنهى عن المنكر واطلقوا على انفسهم اسم « الصوفية » وقفوا ضد الفساد بصوره المتعددة وجعلوا انفسهم مشرفين على الامن والاخلاق ولم يطل امرهم كثيرا فسرعان ما انغمسوا فى الفتنة وتدخلوا فى السياسة حتى ابتلعتهم امواج السياسة وانتهى امرهم وكانت النهاية على عكس البداية .

ولما وصل الامر فى الحوف الشرقى والوجه البحرى والاسكندرية الى صورة الثورة العارمة وارسل الخلفاء فى بغداد حملات تأديبية ففى عام ٢١٤هـ (سبتمبر ٨٢٩م) جاءت حملة بقيادة المعتصم بن الرشيد كل جنودها من الاتراك لحرب اهل الحوف الشرقى وارغامهم على دفع الضرائب وفى السنة التالية ٢١٥هـ جاءت حملة اخرى قائدها حيدر بن كادوس المعروف بالافشين واكتشف ان ثورة الفلاحين فى الحوف الشرقى والدلتا واهالى الاسكندرية قد اشتدت واصبحت عامة وحدثت معارك شديدة فى قرية خربتا فى الحوف الشرقى وقرية دميره وقتل فيها اعداد كبيرة من اهالى الريف .

وساند الاقباط من الفلاحين اخوانهم من المسلمين واشتعلت الثورة مما اضطر الأمر الخليفة المأمون ان يحضر بنفسه عام ٢١٧هـ = ٨٣٢م واقام فى البداية فى قرية سلمنت بجوار بلبيس ثم اخذ يتنقل حسب متطلبات المعركة وكانت مدة اقامته فى مصر حوالى خمسين يوما استخدم فيها الشدة والعنف ضد كل الفلاحين مسلمين واقباط .

وكان اتحاد المسلمين والاقباط ضد المأمون وحكومة بغداد سببا فى عزل الموظفين العرب والاقباط واحلال الاتراك محلهم وقد اتخذ هذا القرار المعتصم بن الرشيد عام ٢١٨هـ = ٨٣٣م بل امر بقطع المعونات التى كانت تعطى لبعض الاهالى من غير مثات الموظفين .

وهكذا خلال فترة الخلافة العباسية ساد مصر ثورات داخلية وقلاقل كان سببها الوحيد هو الظلم الضريبى حتى عجزت الخلافة ان تفرض سلطانها على مصر وفلاحى مصر .

وكره الناس فى مصر حكم بغداد والعباسيين ومهد هذا لانفصال مصر عن بغداد وتم ذلك على يد احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية .

عهد الدولة الطولونية (٢٥٤هـ - ٢٩٢ = ٨٦٨ - ٩٠٥م)

كان عهد الدولة الطولونية عهد اصلاح فى جميع المجالات واولها الزراعة عماد الاقتصاد الاول للبلاد .

قام احمد بن طولون باصلاح الارض ووسائل الرى فزاد الانتاج فى عهد ولده ابو الجيش خمارويه فكثرت الحاصلات ورخصت الاقوات حتى بيع القمح كل عشرة أرادب بدينار واحد .

وقرر الا يجبى الخراج الا اذا بلغ مقياس النيل سبعة عشر ذراعا وعشرة اصابع .
وقد عمل حكام هذه الدولة على استتباب الامن وهو اقوى مقومات الزراعة وتطهير مجارى المياه وغرس الفاكهة .

العباسيون مرة اخرى (٢٩٢ - ٣٢٢ هـ ٩٠٥ - ٩٣٤م)

ولم يشتطوا فى فرض الضرائب ولم تكن هناك قسوة فى جباتها وكان عمر الدولة الطولونية قصيرا لم يتجاوز الاربعين عاما ولذا لم يسعد الفلاح طويلا بالراحة من عناء الضرائب وجباتها .

ثم عاد حكم مصر مرة اخرى الى العباسيين وسرعان ما رجعت فوضى الضرائب كما كانت قبل احمد بن طولون اى كما كانت فى عهد حكمهم السابق .

دولة الأخشيد (٣٢٣ - ٣٥٨هـ) (٩٣٤ - ٩٦٩م)

ولم يظهر لها اثر فى الاصلاح الضريبى .

الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧هـ = ٩٦٩ - ١١٧١م)

ثم جاءت الدولة الفاطمية ومدتها ٢٠٧ سنوات تولى الحكم فيها احد عشر خليفة وما من خليفة منهم الا واجتهد وجدد وعمر سواء فى الريف او الحضر فى العاصمة او القرى وكان حكمهم سلسلة متتابعة الحلقات تتنافس فى الاصلاح وانشاء العمائر فى المدن ومجارى الرى والجسور والطرق فى الريف مع العمل على استتباب الامن وحل الرخاء وزادت الحاصلات الزراعية ونشطت التجارة استيرادا وتصديرا .

ولم يتحمل الفلاح فى عهدهم عسفا او ظلما فى جباية الضرائب فتحسنت احواله وزادت موارده واستقرت نفسه واطمأنت

وان كانت ايامهم لم تكن كلها رغدة او على وتيرة واحدة من الرخاء والاستقرار .
ففى عهد الحاكم بأمر الله الذى اصيب بخلل فى عقله فى اواخر عمره انتهى به الى دعوى الألوهية كان يبذل جهدا كبيرا لراحة الناس وتوفير الاقوات لهم .

انشأعام ٤٠٥هـ مخازن جديدة كثيرة للغلال حتى ان القاهرة وحدها كانت مخازنها تسع ما يزيد على ثلث مليون اردب من الحبوب كان يأتى اكثرها من الصعيد كان يصرف منها للموظفين والخدم والعبيد وارباب الصدقات والعاملين بالمساجد ودور الضيافة .

واحصى المساجد التى ليس لها مورد تصرف منه فكانت ثمانمائه فخصص لها الموارد التى تأتى من خمس قرى منها اطفيح وصول وطوخ .

وقد حدث مرة ان توقف احد موظفيه عن صرف هذه الأقوات لمستحقيها فكتب اليه الحاكم بامر الله بخط يده :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ الحمد لله كما هو اهله :

اصبحت لا ارجو ولا اتقى　　　　الّا الهى وله الفضل
جدى وامامى ابى　　　　ودينى التوحيد والعدل

المال مال الله والخلق عيال الله ونحن أمناؤه فى الأرض أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام .

وفى عهد ولده أبى الحسن على الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله إنخفض النيل فقلت الحاصلات وارتفعت الاسعار وعز وجود الخبز ومنع الناس من ذبح البقر لقلتها ونهبت الأرياف وانتشرت الأمراض وزادت الوفيات فكانت مدة خلافته من أشنع المدد .
وفى عهد المستنصر بالله حدثت مجاعة كبرى بدأت سنة ٤٤٦ هـ واستمرت إلى سنة ٤٥٤ هـ وتجمعت كل العوامل لحدوث المجاعة . . . انخفاض النيل وانتشار الطاعون والقلاقل الداخلية حتى خرجت مصر كلها .

فلما ساءت الحال إستدعى المستنصر قائده بدر الجمالى نائب عكا وقتئذ وكلفه بادارة امور الدولة فقام بعمل اصلاحات سريعة وفى مقدمتها انه أراح الفلاحين من الأموال ثلاث سنين حتى صلحت احوالهم وتحسنت الاوضاع فى القرى كلها وكذلك القاهرة .

الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ١١٧١ - ١٢٥٠ م) :

ويطلق على الدولة الايوبية ايضا دولة الاكراد وتولى الملك منهم بمصر ثمانية خلال ثمانين سنة تقريبا أولهم صلاح الدين وآخرهم توران شاه وكان أكثرهم من الصالحين بمعزل عن الشهوات والطمع فى اموال الناس واعراضهم ولكن خلال مدة حكمهم كانت الحروب الصليبية تتكرر بين ملوك أوربا ومصر والشام فكان هؤلاء الملوك فى حاجة الى الاموال للانفاق على الجنود فكانت الضرائب تزيد على الفلاحين ولكن نظرا لأن الحرب تحتاج الى جنود من ابناء الفلاحين وتحتم ان تكون الجبهة الداخلية مترابطة مستقرة راضية عن الحاكم من أجل هذا كله كان تحصيل الضرائب يتم فى هدوء ودون أى عسف أو قسوة واهتم الأيوبيون كثيرا فى اصلاح الاراضى والنهوض بالانتاج الزراعى وعملوا على حماية الفلاحين من البدو الذين كانوا يفسدون فى الارض ويرهبون الفلاحين .

ومن أمثلة : اسلوب بعضهم فى الحكم ان السلطان الكامل ناصر الدين محمد كتب له أحد عماله يستكثر ما يصرف على الفقراء من صدقاته وقد بلغت مائة وسبعين ألف دينار وقال الموظف ان ذلك يحدث خللا فى موارد بيت المال فكتب له السلطان بخط يده على ظهر الخطاب « الغربة تذل الأعناق ، والفاقة مرة المذاق ، والمال مال الله وهو الرزاق فأجر الناس على عادتهم فى الاستحقاق ، ماعندكم ينفذ وماعند الله باق وأنا لانحب ان يؤرخ عنا المنع وعن غيرنا الاطلاق ، والآثار الحسنة من مكارم الاخلاق . واليكم هذا الحديث يساق . »

عهد المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ - ١٣٨٢

جاء المماليك الى مصر فى العصر الفاطمى ٩٦٩ - ١١٧١ م واستطاع هؤلاء المماليك وفيهم كثيرون من أصل شركسى ان يستولى على حكم مصر فى الفترة من ١٢٥٠ - ١٥١٧ وكانت الفترة الأولى من ١٢٥٠ الى ١٣٨٢ وهم المماليك البحرية والفترة الثانية من ١٣٨٢ الى ١٥١٧ وهم المماليك الشراكسه أصلهم من شركسيا بين البحر الأسود والقوقاز إستأثرت هذه الطبقة بكل اسباب القوه والجاه والسلطان وقصرت على نفسها التعليم العسكرى والفروسيه والتمرين على إعمال الحرب فكانت بذلك طائفة من الغرباء تحكم البلاد بقوة السلاح .

طبقة حاكمة من المماليك الذين جاءوا بهم الى مصر من بلاد بعيده ولم يكونوا أصلا من أهل البلاد ولامن جنسهم ولا لغتهم ، تولوا وحدهم الحكم واستأثروا بالجاه والعز والملك والسلطان بينما يعمل كل الشعب لخدمتهم ومعظم الشعب من الفلاحين الذين يزرعون الأرض ويحققون المورد الاقتصادى الرئيسى للبلاد .

ولكن الامبراطورية العثمانية استطاعت ان تقضى على سلطانهم فى عام ١٥١٧ وان كانت قد أبقت عليهم حكاما خاضعين لها الى ان جاء محمد على وقضى عليهم حكاما فى مذبحةالقلعة الشهيرة فى عام ١٨١١ .

والمماليك البحرية اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعلهم امراء دولة وأسكنهم قلعة الروضة وسماهم البحرية من أجل ذلك ، وكانوا نحو الألف وكلهم اتراك .

وأول من حكم منهم الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى وعين أبا سعيد هبة الله وزيرا وهو أول قبطى ولى الوزاره فى مصر وقرر ضرائب كثيره مستحدثه سماها الحقوق السلطانيه وثارت عرب الصعيد فوجه إليهم الملك المعز عساكره وهزمهم وكاد يفنيهم .

واغتصب السلطه بعده الأمير سيف الدين قطز ففرض على اهل الريف ضرائب جديده على قواعد وأسس عجيبة وذلك بأن يقدر ثمن الارض ويدفع صاحب الارض زكاة الثمن كل سنة وعلاوة على ذلك جباية دينار من كل إنسان وكان يأخذ ثلث الزكاة لنفسه .

فلما تولى بعده الظاهر بيبرس البندقدارى وهو من المماليك البحريه أيضا أبطل الضرائب التى قررها سيف الدين قطز ومع اشتغال الظاهر بالحروب الا انه كان يبذل جهدا لرعاية القرى وأهلها وخاصه الفقراء .

وفى عهد الملك العادل كتبغا ـ وكان مملوكا للملك المنصور قلاوون ـ انخفض النيل واشتد الغلاء المفرط حتى أكل الناس الجيف وبلغ ثمن الأردب من القمح مائة وسبعين درهما وأكلت الكلاب والحمير والخيل والبغال .

وفى أيامه انخفض النيل فلم يبلغ فى الزيادة غير ستة عشر ذراعا الا قيراطين فشرقت الاراضى الزراعية وتعالت الاسعار فضج الناس وتشاءموا وصارت العامة تتغنى بالأزجال فى مسبته فشدد فى العقاب وقبض على كثير من العامة فقطع ألسنة بعضهم وضرب البعض . وامتنع الفلاحون عن دفع الخراج .

وكان آخر عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون يمتاز بالعناية بالزراعة وأهلها فأصلح الجسور والترع وأبطل المظالم التى كان يتعرض لها الفلاحون فكانت هناك ضريبة تبلغ اثنين فى المائه عن كل عملية بيع عقار أو خلافه وأبطل ضرب الفلاحين بالمقارع .

وفى عهد السلطنة الأولى للملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون انتشرت الرشوه والفساد وضعفت بسبب ذلك موارد بيت المال وفرض ضرائب جديده لسد عجز الميزانيه ومنها على سبيل المثال ضريبة درهمين من الفضة على كل نخلة وجمع من هذه الضرائب أموالا كثيرة واشتد الظلم والحوادث فى جباية الضرائب من الفلاحين وسكان القرى والمدن .

ولما تولى ركن الدين بيبرس الجاشنكير أقام جسرا للنيل - فرع دمياط - من قليوب إلى دمياط وكان عرض قاعدة الجسر ست قصبات ومن أعلا أربع قصبات .

وفى سنه ٧٤٩ حصل طاعون عام وفناء عظيم عم كل البلاد وتعطل الزرع بسبب موت الفلاحين ولم يكن الموت قاصرا على الأدميين بل أصاب الطاعون ايضا الخيل والجمال والحمير وحصل الغلاء واشتد حتى بلغ ثمن كيلة القمح مائة درهم فضة وبسبب هذا الهول اختفى جباة الضرائب فلم يستطع أحد المجازفة بالذهاب الى القرى وفى وسط هذه الهموم والكوارث يتندر أهل القرى قائلين إنهم استراحوا من جباة الضرائب واستضافوا بدلا منهم الطاعون والموت .

وفى عهد الملك صلاح الدين صالح خرجت عرب الصعيد عن الطاعة ونهبوا الغلال وقتلوا الفلاحين فخرج اليهم السلطان بنفسه ومعه جميع الأمراء فأفنوا كثيرا من العرب وعادوا للقاهرة ومعهم سبعمائه أسير منهم قتلوا جميعا بالقاهرة .

عهد المماليك الشراكسة (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ = ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

أولهم السلطان برقوق وهو شركسى الجنس . أخذ من بلاد الشركس وبيع ببلاد القرم وجلب الى القاهرة فاشتراه الأمير يلبغا . وفى مدة حكمه وقع غلاء ووباء تسبب عنه خراب كثير فى البلاد .

وفى عهد الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج توقف النيل وحل الغلاء والوباء بمصر حتى فى كل الجهات وهاجت عرب الشرقيه كل ذلك والسلطان فرج فى لهوه وشربه مع الملاح والندماء .

وفى عهد الملك المؤيد وقع وباء وغلاء استمر خمس سنوات وحصل للناس من ذلك ضرر كبير .

وتولى أبو السعادات أحمد بن المؤيد ولقب بالملك المظفر وعمره دون سنتين ـ أى تولى الملك رضيعا ـ ولكن احد الامراء ويسمى طنبغا حبسه مع مرضعته وظل فى السجن الى ان مات .

وفى عام ٨٢٤ هـ فاض النيل واستمرت الزيادة الى آخر هاتور (نوفمبر) ولم يحدث ذلك من قبل منذ دخل الإسلام مصر فحصل للناس الضرر الشامل وتلفت الأرض الزراعيه وغرق أكثر البساتين وفات أوان الزرع وانقطعت الطرق لكثره الماء ولحق بالريف والقرى وبكل البلاد من الخراب والدمار اكثر مما كان يحدث عندما ينخفض النيل ويشح ماؤه .

وفى ايام تولى الأشرف أبى النصر برسباى أمر الا يلبس الفلاح الزنط .

وفى ايام الأتابك إلى سعيد حدث وباء طاعون مات بسببه كثير من الخلق وحدث غلاء عم كل البلاد وشرقت اكثر الأرض وماتت البساتين والبهائم .

ولما تولى السلطان قايتباى واعتبره المؤرخون أفضل المماليك الشراكسه ولكنه بالنسبه للفلاحين شدد فى تحصيل الضرائب .

وتولى بعده ابنه السلطان محمد أبو السعادات وعمره أربع عشرة سنة ولقب بالملك الناصر واستمر فى الحكم ثلاث سنوات توفى بعدها وكان اثناء حكمة يتصف بالطيش والخفه وقلة التبصر فكانت مدته كلها شرا لجهله وقبح أفعاله ومعاشرته للعوام والأراذل فاختل النظام وسادت الفوضى وبلغ من الخفة والطيش مالا يوصف فمن ذلك أنه اهديت له مركب صغيرة فجعلها فى بحيرة ووضع بها مقدارا من الحلوى والفاكهة والجبن المقلى وصار ينزل المنزل وينادى بصوت مرتفع ويبيع مثل البائعين . واخرج جماعة من السجن وطلب سيافا يعلمه كيف يقطع الأيدى والآذان والألسن وهو يفعل ذلك بيده .

وكانت أيامه بالنسبه للفلاحين أيام عناء وبلاء لكثرة الضرائب والفوضى فى تحصيلها واخذ يأمر بمصادرة الأملاك والحاصلات عند نضجها .

وفى عهد السلطان قانصوه الأشرفى كانت الفتن متلاحقه وكثرت غارات البدو على الفلاحين فى الوجهين القبلى والبحرى حتى حصل لهم ضرر شامل .

ولما تولى الملك الأشرف طومان باى التركى وكان آخر ملوك الشراكسه تفشى الوباء وساد الغلاء وكثرت الحرائق وانتشر الفساد .

وتحمل الناس فى الريف والحضر المتاعب المظالم وكانت تخرب جهات فاذا عمرت خرب غيرها .

وفى الوقت الذى كان فيه عمال هذا السلطان يشتدون فى جمع الضرائب من القرى كان الخدم والمماليك فى العاصمة ـ القاهرة ـ يبيعون للناس مايصل الى ايديهم من اللحم والسمن والعسل وسائر انواع المأكولات والملابس بأبخس الاثمان فكان لهم سوق يباع فيه الاطعمة التى تتبقى على الموائد بعد انتهاء الولائم .

وفى أواخر حكم المماليك بصفة عامة اهمل امر الرى وتوزيع المياه وامتلأت الترع والخلجان بالطمى فلم تصل المياه الى الحقول وتدهور الانتاج الزراعى الى درجة اضطرت الكثيرين الى الهجرة الى الشام والمغرب والحجاز وغيرها وتركوا ديارهم ومنازلهم فرارا من الضرائب ووطأتها والجباية وقسوتها ، فرارا من الجوع والفقر .

ولما انقرضت دول المماليك بموت السلطان الغورى ثم السلطان طومان باى واستولت على مصر الدولية العلية العثمانية وكثرت الحروب والمحن والفتن والاضطرابات لم يتمكن الفلاحون من زراعة الارض ولا العناية بالقناطر والجسور والطرق فكانت الارض تارة تبور وتارة تظمأ وفسد كثير منها فصار غير صالح للزرع وبسبب ذلك زاد القحط وقلت الحاصلات فاشتد الغلاء وانتشرت الامراض والأوبئة وساءت حالة الامن وكثر اللصوص وقطاع الطرق حتى صاروا يدخلون القرى للنهب جهارا ليلا ونهارا بلا مبالاة وتعطل السفر برا وبحرا وكثر خطف الاولاد والبنات .

وكثرت الرشوة للحكام واتسع نطاقها حتى صارت امرا معتادا وانتهز البدو الفرصة فكانوا يغيرون من الصحراء على القرى والحقول والمدن يعيثون فسادا وسلبا ونهبا .

ومن العجيب ان هؤلاء البدو ـ كانوا ولا يزالون ـ يعتبرون الفلاحة عارا ويرفضون فى كبرياء مصاهرة الفلاحين ، ولكن النهب والسلب واغتصاب الارزاق واستعمال القوة والخروج على القانون ليس عارا . .

وهكذا عاش الفلاح ايام المماليك فى كرب دائم من جابى الضرائب ونهب البدو وانخفاض النيل وتفشى الطاعون .

ولم يكن منتظرا ان يلقى الفلاح غير ذلك فى ظل نظام عجيب . . حكام اصلهم جميعا من غير مصر وهو اصل غير كريم لانهم اشتروا بالمال وبيعوا للسلاطين من آل أيوب ومن أتى بعدهم ، لايعرفون لغة البلاد ولاتطول ايامهم فى الحكم مايكاد الملك

اوالسلطان يتولى الحكم ويخلع على نفسه او يخلعون عليه الالقاب الفخمه . . العادل ، الناصر ، الظاهر ، الاشرف ، المؤيد ، المنصور ، العزيز ، المظفر ، وغير ذلك من الالقاب والنعوت التي لاحصر لها مايكاد يفعل ذلك حتى ينتهى حكمه مخلوعا او مقتولا وهاهو على سبيل المثال لا الحصر الملك القاهر بيدره تولى الحكم يوما واحدا وقتل ومنهم من لم يهنأ بكرسى الملك الا اياما او شهورا .

ومن ظواهر حكم المماليك تولى الاطفال الحكم . . الوليد الذى ترضعه مرضعته والطفل الصغير والصبى الذى لم يبلغ الحلم .

ماذا كان يرجو الفلاح منهم .. كانت الرابطة الوحيدة بينه وبين حكامه هم جباة الضرائب يطالع وجوههم الكئيبة وتلسعه سياطهم .

لم يكن يهمهم ان تعمر الارض فان حدث فانهم لايدرون كيف يحققون ذلك فان عرفوا لم يطل بهم العمر او طاحت كراسى الحكم من تحتهم وفى وسط كل هذه المتاعب وفى ظل هذا المناخ القاتم تحمل الناس الكثير سواء كانوا فى الريف او الحضر .

ولم يتورع الحكام عن فرض ضرائب عديدة متنوعة حتى بلغت اثنين وثلاثين نوعا . . . !!

عهد الدولة العثمانية (التركية) (٩٢٣ - ١٢٢٠هـ = ١٥١٧ - ١٨٠٥م)

بقيت مصر تحت الحكم العثمانى مايقرب من ثلاثة قرون كان الخليفة او السلطان فى تركيا يعين واليا من قبله على مصر .

وكانت هذه الفترة كلها من العصور المظلمة التى مرت بتاريخ مصر مثلها مثل عهد المماليك او اشد .

لايهم المستعمر الا استنزاف خيرات البلاد التى استعمرها واحتلها عسكريا . . بل يمكن اخذه من خيرات البلاد نقلوه الى بلادهم الاموال والجواهر والمنتجات الزراعية بل أخذوا العمال المهرة والفنيين للعمل فى تعمير عاصمتهم وبلادهم الاخرى .

وعلى طول عهدهم اختلت السياسة واختفى الانضباط واختل الامن وكثر اللصوص وقطاع الطرق واستشرى الفساد فى كل مكان كانت مرحلة تدمير يندر فيها التعمير كانت مرحلة اخذ لا عطاء فيها وغشى المصريين ماغشيهم من الظلمات بسبب فساد الحكم المستمر وجهالة الحكام والولاة واعوانهم .

وتحمل الريف المصرى اعباء لم يسبق لها مثيل فى التاريخ لا من قبل ولا من بعد وعاش الفلاح فى هموم متصلة متلاحقة بسبب الضرائب وسوء المعاملة من جباة الضرائب .

واذا حل بالريف رخاء وزادت الغلات اخذ النصيب الاوفى للحكام ولنقلها الى تركيا .

واذا جاء قحط او وباء او غلاء تحمله الفلاحون وحدهم دون ان تبدو من الهيئات الحاكمة اى بادرة للعطاء او تخفيف حدة البلاء كأن الحكام والمحكومين بعضهم لبعض عدو .

ووصل الامر ان الموظفين كانوا لا ينفذون اوامر الحاكم وكثرت الرشوة واتسع نطاقها حتى صارت امرا معتادا يحدث دون مبالاة .

وبعد ان كان نهب الحقول وسرقتها قاصرا على البدو ظهرت فئة جديدة تنهب الريف وتعربد وتخرب الا وهم عسكر الحاكم وجنده .

وهكذا تجمعت كل قوى الشر ضد الفلاح تستنزفه وتستغله ثم تسىء اليه وتهين كرامته وتحتقره .

ولا داعى لتفصيل ما حدث من كل والى مع الفلاح فان كل الولاة فى العهد العثمانى كانوا على شاكلة واحدة .

وكما ابتدع الملك الصالح نجم الدين ايوب المماليك عندما اشترى من ماله نحو الالف كلهم اتراك وتطور امرهم الى حكم مصر . فإن العثمانيين ابتدعوا هم الآخرون بدعة الانكشارية فى بلادهم وقبل الاحتلال فلما سيطروا على مصر كان لهذه الطائفة شأن كبير فى مساعدة الحكام العثمانيين فى الحروب والامن الداخلى وجباية الضرائب .

والانكشارية بدأت بأنها فرق مشاة نظامية كونها العثمانيون فى القرن الرابع عشر الميلادى واصبحت قوة حربية مكنت من الفتوح الواسعة التى قاموا بها فى ذلك القرن والقرون التالية .

ويرجع تنظيم اولئك الجنود الى السلطان اورخان بن السلطان عثمان وعدم الانقياد لرؤسائهم حتى صارت من اكبر دواعى تأخر الدولة العثمانية .

وفى مصر كان لهم دور بارز فى جباية الضرائب وسوء معاملة الفلاح وابتزاز امواله ونهب حقوله .

فلما زادت متاعبهم واصبحوا عالة على الدولة قضى السلطان محمود فى ١٥ يونيه ١٨٢٦ الموافق رمضان ١٢٤٠هـ واصدر امرا بإنهاء نظامهم ودمر ثكناتهم ووجه امره الى جميع الولايات واولها مصر بالتفتيش على كل من بقى منهم واعدامه حتى لاتبقى منهم باقية .

الحملة الفرنسية

ومدتها ألف يوم بدأت يوم الاثنين ١٨ محرم ١٢١٣ هـ أول يوليه عام ١٧٩٨ ميلادية وتميزت هذه الفترة بمقاومة الشعب المصرى كله للحملة الفرنسية التى قادها نابليون بونابرت وكان للفلاحين الدور الأكبر فى هذه المقاومة الباسلة فإن كل القرى فى طريق الجيش كان الأهالى يهجرونها ويتركونها خالية بل كانوا يحرقون وراءهم الحقول حتى لا يستفيد منها جيش نابليون . وكانوا يسوقون معهم ماشيتهم . فاذا وقعت قرية تحت سيطرة الجيش تجمع الفلاحون من القرى المجاورة واشتبكوا مع الجنود حدث ذلك مرات لا حصر لها فى قرى كثيرة مثل قرية شباس عمير بالقرب من البرلس وقرية بركة غطاس ودمنهور وبلبيس والخانكه وأبو زعبل والمنير ومنوف وتتا وغمرين وكفر عشما والجمالية والمنزله

كل هذه القرى والمدن وغيرها قاومت جيش نابليون ببسالة وشجاعة منقطعة النظير وكان الجنود الفرنسيون يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص .

على الفلاحين دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال وفرض الغرامات على البلاد واستمرت حملات التأديب ونال « ميت الخولى » النصيب الأوفى فقد كان لدى الاهالى مدفعان قديمان يفرقان بهما مراكب الفرنسيين فى النيل وقد احرقت القرية ونهبت ويقول قائد الحملة الفرنسية فى اليوم الذى عاد فيه الجنود الى دمياط بعد حملتهم التأديبية على ميت الخولى كانت مدينة دمياط اشبه بسوق او مولد باع فيه الجنود الفرنسيون الى الاروام ماغنموه من الماشية والطيور والخيل والحمير والاغنام وكثيرا من قطع الذهب والفضة التى كانت حليا للنساء .

وامتدت معارك الفرنسيين الى الصعيد فكان اهل الصعيد وفلاحوه مثل اخوانهم فى الوجه البحرى والقاهرة وقاوموا جيوش نابليون بعزيمة ووطنية وشجاعة فى كل قرية ومدينة ومنها على سبيل المثال البهنسا وسدمنت والفيوم وبنى سويف وقرية الفقاعى واسيوط وجرجا وارمنت وقنا وأبو مناع واسنا واسوان وغيرها .

كان الأهالى يجتمعون فى أعداد متزايدة ويهاجمون مؤخرة الجيش الفرنسى وأجنحته وكانت عقوبة الحرق توقع على القرى .

قرى لاحصر لها لا يمكن تمييز واحدة على اخرى فى الشجاعة والبسالة وابتكار اساليب المقاومة والانتقام ودفع الكل ضريبة الدم فى سخاء ودفع المال مرغما واحرقوا مساكنهم وحقولهم حتى لا ياخذها العدو لقمة سائغة .

وجاء فى مذكرات الجنرال بليار من قواد الحملة يصف ما حدث له من مقاومة النوبيين فى اسوان قال حمل الاهالى اسلحتهم وصاحوا صيحات القتال وخرجت النساء ينشدن اناشيد الحرب ويقذفن التراب فى وجوهنا اما الرجال فقد اطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر وكنت قد احضرت معى مدفعا لإخضاعهم فدعوتهم الى الصلح والسلام فكان جوابهم انهم لا يقبلون منا كلاما وانهم لايفرون من امامنا كما يفر المماليك وفى ٢١ فبراير احتللنا الجزر الاخرى المجاورة لجزيرة فيله والتى اشترك اهلها فى الثورة ثم عاد الجنود وبقيت فصيلة منهم واستولت على البلح وكثير من اللحم والمؤونة واستولينا على ٤٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة وسيف .

ومع ان الشعب كان يعلم أنه يخوض معركة غير متكافئة فلا قبل لقرية من القرى بالمدافع العسكرية المتفوقة والجنود النظاميين المدربين ومع هذا فلم يخطر ببال احد الفرار ولا فكر فى الاستسلام .

وما نقله هذا القائد الفرنسى عن احساس اهل اسوان بالنسبة للمماليك واحتقارهم لهم امر يدل على تغير كامل احدثته هذه الحرب الاستغلالية فى نظر المصريين لعصابات المماليك التى لم تستطع ان تحس باحساس المواطن المصرى الذى يدافع عن شرفه وشرف وطنه .

وتحولت حرب الصعيد الى حرب حقيقية وكتب القائد ديزيه الى نابليون فى ١٧ مارس ١٧٩٩ يقول : « انى لا اخفى عنكم الحقيقة . . اننا لن نكون سادة هذه البلاد لاننا اذا اخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود عادت الى حالتها القديمة » .

وجاء فى تقريره ايضاً « اصبحت بنى عدى اكواما من الخرائب وتكدس القتلى فى شواعها ولم تقع بجزرة اشد هولا مما حل ببنى عدى وبلغ عدد القتلى نحو ثلاثة آلاف .

وكانت بنى عدى من اغنى بلدان الصعيد حتى ان قائدا فرنسيا قدر نصيب كل جندى من الذين هاجموها واحرقوها من الغنائم ١٥ الف فرنك ذهبى وبعضهم حصل على ٢٠ الف فرنك ذهبى .

هكذا كان الحال خلال الألف يوم التى هى عمر الحملة الفرنسية . . لم يكن هناك ادنى اثر للمماليك واعوانهم . . ولكن الذى دافع عن الوطن هم الفلاحون فى كل موقع مرت به الجيوش الفرنسية وفى العاصمة القاهرة كانت الثورة بقيادة رجال الدين من الازهريين ومن القيادات الوطنية المصرية الصادقة المخلصة . .

الفلاح هو الذى حارب وضحى بالدم وهو الذى ضحى بالمال عندما كان يحرق القرى والحقول حتى لاتصل غنيمة سهلة الى ايدى الغزاة والفلاح هو الذى كان يدفع الغرامات الباهظة حينما يسيطر الجنود وتفرض بقوة السلاح ارادتها على القرى المهزومة .

كان نصيب الفلاح من الضرائب ايام الحملة الفرنسية . . ضريبة دم اولا ثم ضريبة مال يدفعها مرغما عندما تفرض عليه الغرامات بقوة السلاح . . ثم ضريبة مال يدفعها سعيدا راضيا عندما يضحى بمسكنه وحقله حرقا وتدميرا حتى لا تكون من نصيب اعدائه .

ورحل الفرنسيون فى شهر سبتمبر ١٨٠١ من الإسكندرية وهم فلول ممزقة عددها ٧٢٠٠ من الجنود و ١٥٠٠ من البحارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من غير العسكريين .

وحمل القائد المهزوم « مينو » على محفة مصابا بالطاعون انتهت حملة الفرنسيين بهزيمة نكراء .

انتهت بصفحة فخار وشرف للانسان المصرى الاصيل والفلاح ابن مصر الذى عاش عمره وفيا لوطنه لانه صاحب هذا الوطن .

الضرائب فى عهد محمد على وأولاده :
(١٢٢٠ ـ ١٣٧٢ هـ = ١٨٠٥ ـ ١٩٠٢ م)

فى هذه الفقرة من الحديث عن الضرائب الزراعية سيكون البحث محددا بالمدة من ولاية محمد على الى اول القرن العشرين لانه منذ بداية هذا القرن حدثت تغييرات جوهرية فى الضرائب واسلوب جبايتها .

عندما تولى محمد على حكم مصر كان المصريون يمتلكون الاراضى وينفقون بها حسب النظم التى كانت مقررة فى الدولة العثمانية كان السلطان سليم يعطى الأرض للناس لزراعتها ثم لا يستردها منهم وكان زارع الارض يورث حقه فى الزراعة لورثته فاصبحت حيازة الأرض واستثمارها اشبه بالملكية .

ولكن عندما استتب الامر لمحمد على اصدر فرمانا عام ١٢٢٩هـ بان تؤول اليه ملكية جميع الاراضى فى كل مكان .

كل الاراضى الزراعية فى مصر اصبحت ملكا له وحده بجرة قلم وقرار واحد « فرمان » وشكل لجانا من اهالى الوجه البحرى لتقدير الضرائب الزراعية على ارض الصعيد وبالمثل لجان من اهل الصعيد يقدرون الضرائب على اراضى الوجه البحرى ولما انتهت هذه اللجان من عملها وضعت نظاره المالية على كل ارض خراجا حسب قرارات اللجان .

اعطى محمد على الارض للفلاحين لزراعتها لقاء مبلغ معين اى ما يشبه الايجار طبقا لتقدير اللجان السابق ذكرها وسميت الضريبة « كلفة الذخيرة » اى لتغطية الانفاق على الحروب والجيوش ومتوسط هذا المبلغ على الفدان الواحد مايعادل ٢٣ جنيها بعملة اليوم ويزيد او ينقص حسب ما قررته اللجان ولكن هذه الضريبة او الايجار كان فوق مقدور الفلاحين فتراكمت عليهم الديون للحكومة .

وفى عام ١٨٣٩ سافر ابراهيم باشا الى القليوبية ثم الى المنوفية والغربية لتحصيل الخراج عن هذه السنة بالاضافة الى البواقى التى تراكمت على الفلاحين وهى بواقى سبع سنين ـ وكان الباشا والده سامح فى ذلك ولكن ابراهيم طالب الفلاحين بكل ما عليهم . . ضريبة العام والديون المتراكمة وامر ان تدفع كل قرية ما عليها فى ثلاثة ايام ففزع الفلاحون ومشايخ البلاد وتركوا الغلال فى الاجران وهربوا فى النواحى بنسائهم واولادهم وكان يحبس من يجده من النساء ويضربهن .

وفى ذلك العام اضيفت ضرائب جديدة وهى ٢٠ قرشا على كل رأس من الجاموس وستين قرشا على الجمل وخمسة عشر قرشا على البقر والخيل وقرشا على الشاه .

وقام محمد على بتقسيم القطر الى اقسام واصبح لكل مركز وكل قرية حدودا ادارية واضحة المعالم وقد ذكر محمد على فى احد منشوراته التى توزع على حكام الاقاليم انه تحقق له عدم الدقة والالتفات من مأمورى الأقسام خصوصا فى عدم الاعتناء بزراعة التقاوى المستوردة من الخارج والإهمال فى الحصاد وجنى الثمار ولهذا صمم تصميما قطعيا على زيارة انحاء القطر بنفسه وانه اذا وجد من المأمورين والقائمين او حكام الاخطاط والمشايخ والخول تأخيرا فسيجمعهم فى وسط الغيط الذى وقع فيه الإهمال ويامر بحفر حفره ويدفنهم احياء على رؤوس الأشهاد .

وقد ارتاب محمد على فى ان تكون هناك ارض « خارج الزمام » يزرعها الاهالى دون علمه واعلن عن مكافأة بضعة افدنة لكل من يبلغ عن مثل هذه الحالات

ومع كل هذه الاستحكامات والقوانين ومتابعة التنفيذ بالقسوة والعنف فان الانتاج الزراعى اخذ يتدهور والغلات تتناقص فاخذ محمد على يوجه النصائح واستقدم الخبراء واستورد التقاوى الممتازة من الخارج .

ولكنه نسي او تناسي واهمل العامل النفسى فى الزراعة وهو حسن معاملة الفلاح وعدالة الضريبة لو تحقق هذا لكان للإنتاج الزراعى فى عهد محمد على شأن تاريخى واى شأن لانه اصلح الرى واقام القناطر واستعان باهل الخبرة والعلم من الداخل والخارج وادخل على الزراعة المصرية محاصيل جديدة وعمل جاهدا على تحديث اساليب الفلاحة .

ولكن مع كل هذا تزدهر الزراعة ولم يزد الإنتاج بسبب المظالم الضريبية واساليب العنف التى كانت تتبع لجباية تلك الضرائب .

وفى الوقائع المصرية عدد ٤٣٥ لسنة ١٢٤٨هـ كتاب للمأمورين بأن الباشا محمد على علم من الكشف المرسل الى دفتر دار بك اى الكاتب مقدار المنزرع من الذرة فى العام الماضى والمزمع زراعته فى هذا العام ولما هو معلوم له من حصول تكاسلهم فى الامور يشير ببذل الهمة والغيرة فى زراعة الذرة على الوجه المبين بالكشف ادناه وعدم التراخى فى ذلك وفى ضم المحصولات باوقاتها كما هو اهم مطلوبه وبانه عين معاونين ومساحين مخصوصين وسيرسلهم لملاحظة الزراعة وخدمتها ومن يظهر عنده خلاف مطلوبه يدفنه بنفس الغيط .

وقرر مجلس الشورى النظام الخاص بالرهن الذى كان يؤخذ من الفلاحين الا يعطى لهم الا بعد دفع اموال الميرى او تادية خدمة كلفوا بها وانه اذا هرب يؤخذ دينه من ابنه او اخيه او احد اقاربه وما كان لهؤلاء من ذنب فاذا كان الهارب من المشايخ يؤدب اولا وان هرب يرسل الى ميناء الاسكندرية مدة شهرين للشغل وان هرب ثالثا يعزل واذا كان الهارب من الفلاحين يؤدب ويحصل من شيخ القرية التى كان بها المطلوب منه ولا يقبل فى اى بلد الا بتذكرة وفى توجهه بدون تذكرة يلحق بالجهادية .

فلما زادت الضرائب واعمال السخرة التى فرضها محمد على على الفلاحين هاجروا جماعات الى الشام .

ما من صنف من صنوف العذاب لم يتحمله سكان المدن والقرى فى هذا العهد . . القتل ودفن الاحياء وبتر الاعضاء ولاسيما الاذان واجلاس الناس على صوان اشعلت تحتها النار حتى احمر معدنها والقبض على النساء والإلقاء بهن فى الماء امام ازواجهن الذين ربطوا بالحبال .

وبعد انقضاء عهد محمد على وابنه ابراهيم قام بعدهما عباس الأول بتعديل نظام حيازة الاراضى وتخفيف الضرائب مما سيذكر تفصيلا عند الكلام عن تطور ملكية الاراضى الزراعية .

كما اصدر سعيد امرا بإعفاء الفلاحين من الضرائب المتاخرة والتى تراكمت منذ عهد محمد على .

وجاء عهد إسماعيل . . ! !

ودخلت الضرائب الزراعية وأسلوب جبايتها مرحلة جديدة فكانت من أسوأ مراحل التاريخ .

فرض إسماعيل ضرائب على كل ما ينتج من الأرض سواء كان بعد الإنتاج مباشرة او بعد تحويله او تصنيعه او اعداده للتسويق وقد ذكر على باشا مبارك ان عدد الأصناف التى فرضت عليها الضرائب فى عهد اسماعيل كانت ٤٣١ اربعمائه وواحد وثلاثين صنفا منها :

كافة الحبوب والسمن والزبد والدهن والجبن والعسل بأنواعه والكشك والحصر والفواكه باجناسها والبلح والكتان والتيل وأفلاق النخل والجريد والليف والبوص والحطب والتبن والغرابيل والطيور والحمام والفراخ والاوز والعصافير والبيض والغنم والبقر والجاموس وكل حيوانات الذبح واحجار الطواحين والسكر والقصب والقطن والجلود وانواع الفحم والنطرون والافيون والبرسيم والصمغ والزيتون والسمار والدريس والشعر والنيلة واللبن والمخلل (الطرشى) وماء الورد وماء الزهر والنعناع والعتر والجلود والاخشاب من شجر الاتل (العبل) واللبخ والتوت والجميز وحيوانات الجر مثل الخيل والحمير والجمال والحناء والحصر المصنوعة من السمار والابراش المصنوعة من الحلفاء واكثر من هذا وضعت ضرائب على العباية او البشت الصوف الذى يلبسه الفلاح وكان يوضع عليه ختم للتأكد من سداد الضريبة .

كل هذه الضرائب وضعت وقررت علاوة على الضرائب التى وضعها محمد على ومنها التمغة على المنسوجات من الأقمشة والحصر والمصوغات والحلى والأوانى وابتدع شيئا جديدا وهى قروض يقدمها الفلاح للدولة مرغما ولكنها لا ترد .

وفوق كل هذه الضرائب التى تشمل كل صور الانتاج فانه كان يصاحبها العنف والقسوة فى جبايتها وسوء التقدير والمغالاة حتى اصبح الناس لا يتحملونها .

وكانت الضرائب وطريقة جبايتها همّ الفلاحين الدائم الذى يشغل البال ويكدر صفو الحياة ويجعل المعيشة كلها غما وهما ونكدا .

وفى عهد توفيق صدرت الاوامر ببيع املاك الحكومة الزراعية وذلك بان يكون للمشترى حق الملكية المطلق فكانت خطوة نحو تحديد جزء كبير من الاطيان الزراعية من القيود القديمة التى وضعها محمد على والذين تبعوه كذلك شرعت الحكومة فى بيع البرارى القابلة للإصلاح .

واثناء حكم توفيق احتل الانجليز مصر على اثر الثورة العرابية كما قررت حقوق استثنائية للاجانب واصبح للاجانب محاكم خاصة وكانت قنصليات الدول الاجنبية تقوم بتسجيل العقود الناقلة للملكية .

وكان احمد عرابى الثائر من ابناء الفلاحين ومنذ بداية القرن العشرين حدث تغير هام بالنسبة للضرائب التى تفرض على الريف وأهله الا وهو امتناع وسائل العنف والقسوة فى جبايتها فلم يعد هناك سياط ولا عصى ولا مقارع ولا سجن ولا تهديد ولا جلوس على صوانى النحاس الساخنة ولا قطع للاذان ولا سباب ولا شتائم ولا شك ان ذلك راجع الى عوامل كثيرة منها زيادة الوعى الوطنى وظهور زعماء وطنيين مثل مصطفى كامل ومن بعده سعد زغلول وهو من ابناء الفلاحين الذى قاد ثورة ١٩١٩ بنجاح عظيم ثم انتهاء حكم اسرة محمد على وقيام النظام الجمهورى وظهور صحافة حرة وجمعيات وهيئات ومؤسسات ونقابات هيأت كلها مناخا لكى يعيش الفلاح حرا موفور الكرامة وان ظلت الضرائب بالنسبة له عبئا لقلة الموارد وكثرة الإنفاق وقد تعددت اشكال الضرائب من المنبع الى المصب وتنوعت أسماؤها ضرائب عقارية تسويق تعاونى تسعير الحاصلات الزراعية دعم وغير ذلك مما سياتى ذكره تفصيلا .

تلك هى قصة الفلاح مع الضرائب أو قصة الضرائب مع الفلاح منذ عرف الزراعة تفرض عليه فرضا دون ان يكون له رأى فيها ولكنه يؤديها مرغما او راضيا .

ضرائب ما أكثرها واكثر أسمائها خراج .. زكاة .. ضريبة .. إستيلاء .. مصادرة .. حراسة .. تبرع .. قروض .. إيجار .. تسويق تعاونى .. تسعيرة .. دعم .. الخ .

تعددت الاسماء والضريبة واحدة ..

مصروفات الدولة

الضرائب على الاطيان الزراعية والانتاج الزراعى بصورها واسمائها المختلفة هى المصدر الرئيسى فى موارد خزينة الدولة وفى كثير من مراحل التاريخ كان القطاع الزراعى هو المصدر الوحيد للموارد .

اين تنفق هذه الموارد . . ؟

طبيعى ان اهم ما يشغل الحاكم هو الامن الداخلى والخارجى ولذا اهتم الحكام فى كل العصور بتكوين الجيوش .

كما ان كل حكومة مسئولة عن الخدمات الرئيسية وغير تكوين الجيوش اختلفت ابواب الصرف باختلاف العصور ايام الفراعنة كان الملوك والكهان مشغولين بكل ما يتصل بالعقيدة الدينية والحياة فى الدار الاخرة ولذا كان الانفاق الرئيسى للحكومة على القصور والمعابد والمقابر ومن بينها الاهرامات وكانت الجثث تحنط وتوضع فى توابيت انفق عليها الكثير وكانت توضع مع الجثث المصوغات وادوات الزينة والاطعمة .

ومقبرة توت عنخ امون خير شاهد على ذلك .

وفى عهود اليونان والرومان كان اهتمام الحكام بتصدير الخيرات من انتاج مصر والاموال الى بلادهم .

اما فى صدر الاسلام فان سياسة الخلفاء الراشدين هى اخذ جزء من ضرائب الجزية والخراج على ان ينفق الجزء الاكبر على تعمير البلاد والعناية بالرى والزراعة .
ورفض عمر بن الخطاب فى اباء وشمم ان تكون له دار فى الفسطاط وهو المقيم بالحجاز .

وتغيرت الصورة فى عهد الايوبيين والعباسيين إذ طالب الحكام فى دمشق وبغداد بالاموال الطائلة التى بلغت حد الاستنزاف لمصر والمصريين وفى مقدمتهم الفلاح المصرى .

اما فى العهود التى بدات بالحكم الفاطمى وانتهت بحكم اسرة محمد على فإن الانفاق كان يختلف تبعا لسلوك ومستوى تفكيره وحدثت مفارقات كثيرة نذكر بعضا منها على سبيل المثال :

والدة الخليفة المستنصر بالله الذى حدثت فى عهده اكبر مجاعة فى تاريخ مصر كانت تمتلك ما يزيد على خمسين الف عبد كانت تشتريهم من كل مكان وتنفق عليهم بسخاء من مال الدولة فى فترة تعانى فيها البلاد من هول المجاعة والسلطان الناصر محمد بن قلاوون مات عن ١٢٠٠ وصيفة مولدة وبلغ عدد مماليكه اثنى عشر الف مملوك حتى صار راتبه اوراتب مماليكه من لحم الضأن كل يوم ٣٦ الف رطل .

وتولى الملك بعده ولده الملك المظفر حاجى وكان مولعا باقتناء الطيور والاهتمام بها وخاصة الحمام وبلغ من حبه لها انه عمل لها خلاخيل من ذهب فى ارجلها وقلائد ذهبية حول اعناقها وجعل لها مقاصير من خشب الابنوس وطعمها بالعاج واقام لها غلمانا لخدمتها وصرف على ذلك اموالا طائلة .

وكانت ثروة الاسرة المالكة زمن المعز وبعده فوق ما يتصور . . . احدى بنات المعز ماتت وتركت خمسة اكياس من الزمرد ومقادير كبيرة من الاحجار الكريمة و ٣٠٠٠ اناء فضى مطعم .

وعندما مات السلطان برقوق ترك ثروة خاصة . . كان فى خزائنه ١,٤ مليار دينار ذهب كما ترك ١٢ الف فرس و ٥ الاف جمل ومثلها من البغال وكان عليق هذه الدواب عشرة الاف اردب كل شهر :

وابتدع بعضهم ابوابا للصرف لا اساس لها من الدين كانت تنفق عليها اموالا فى غير موضعها ففى زمن صلاح الدين يوسف بن ايوب عام ٦٥٩هـ انشأ اول دار خانقاه وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة وجعلها للفقراء الصوفية الواردين من مختلف البلاد ووقفها عليهم ووقف عدة املاك يصرف من ريعها عليها ورتب للصوفية كل يوم طعاما لحما وخبزا وبنى لهم حماما بجوارها .

وبعد ان انقرضت الدولة الايوبية حذا حذوهم السلاطين الشراكسة وبعض الامراء فصار فى مصر الى اول القرن التاسع الهجرى اثنتان وعشرون خانقاه .

ثم لما زال ملك السلاطين الشراكسه اندثر اغلبها وتخرب كثير منها وبقى الامر على ذلك فاستبدلت بالتكايا .

ووصل عدد التكايا بالقاهرة ثمانى عشرة تكية كان يقيم فيها الدراويش وجميعهم اعاجم ليس فيهم مصرى واحد ولا عربى وكان المفروض انهم منقطعون للعبادة والتصوف وقد اطلق عليهم المصريون اسم « تنابلة السلطان » واخذوا يتندرون عليهم بالنكت .

وكان هَمُّ العثمانيين ان ينقلوا الى تركيا ما يمكن نقله من حاصلات وفاكهة واموال حتى العمالة الفنية المتفوقة أخذوها الى الاستانة لتشيد لهم القصور وتعمر بلاهم فى المدن والقرى .

وتصرفات الخديوى اسماعيل وبذخه معلومة للجميع بذخ لاحدود له قصور واحتفالات وعطايا وهبات فى الوقت الذى يدفع فيه الفلاح ضرائب على كل شىء حتى على الحصيرة التى ينام عليها والعباءة او البشت التى يرتديها شتاء .

وهكذا فان اسراف الحاكمين كان على حساب المحكومين واسراف الفراعنة والأباطرة والقياصرة والخلفاء والسلاطين والملوك والولاة والرؤساء على حساب دافع الضرائب ودافع الضرائب فى مصر هو الفلاح .

ومن قبل قال على بن ابى طالب « ما رأيت اسرافا الا كان وراءه حوت مضيع » .

وفى ايام المماليك اسرف السلاطين فى اعطاء المرتبات للامراء والعساكر بلغ مرتب بعض الامراء عشرين الف دينار الثلث للامير خاصة والثلثان للجند وكان للاعيان رواتب سنة والأضحية بحسب الدرجات وفى رمضان السكر والحلوى واذا ولد لأحدهم ولد عمل له راتب من الدنانير واللحم والخبز وعليق الدواب .

وكانت هناك انعامات سنوية فى المناسبات وخلع والخلعة الواحدة من الحرير او الصوف ترصع بالذهب والجواهر وثمن الخلعة الواحدة تفوق الحد ومن تقلد ولاية يعطى له سيف محلى بالذهب وفرس بسرجه ولجامه وقد صرف يوم تولى الاشرف بن حسن بن محمد بن قلاوون ألفا ومائتى خلعه وكانت العطايا والأرزاق توزع على كل من يطرق الباب سائلا سواء كان زائرا أو من الأغراب ومن الجند من يقطع له بلادا يستغلها وينتفع بها كيف يشاء حتى سروج الخيل كانت مفضضة ومرصعة وبالنسبة للسيدات كثر استعمال العنبر والفراء وبالغوا فى بناء القصور وبنى الناصر محمد قصرا بالقلعة وتم افتتاحه وزع ١,٥ مليار درهم عطايا وخلعا سنية .

المجاعات

تعرضت مصر على مدى التاريخ لمجاعات متعددة وكان اكثر أسبابها مياه النيل سنوات متوالية او حدوث غارات الجراد الذى يلتهم الزروع فى ساعات معدودات وكانت الحروب هى الأخرى سببا من أسباب المجاعات وخاصة اذا كانت ميادينها داخل البلاد فى الوادى المنزرع واصبح الريف مسرحا للعمليات الحربية وما يصاحبها من سلوك الجيوش المتحاربة عندما تدمر وتحرق وتخرب وتتلف اثناء كرها وفرها .

كما حدثت مجاعات نتيجة للحكم المستبد وعصور الفوضى والظلام والمبالغة فى فرض الضرائب والتعسف فى جبايتها مما دعا الفلاحين الى الهجرة الى الشام وبلاد اخرى كما كان تفشى مرض الطاعون سببا فى حدوث بعض المجاعات حيث يتعطل العمل ويتوقف الانتاج واحيانا كان البدو وعرب الصحراء يقومون بنهب المحاصيل الزراعية فتحدث ازمة فى الطعام ومن بين المجاعات الكثيرة التى دونها تاريخ مصر نذكر بعضا منها .

المجاعة فى عهد سيدنا يوسف

فسر سيدنا يوسف لفرعون مصر رؤيا رآها وقال له انه سيمر بمصر سبع سنوات كثيرة الخير وفيرة الزرع وياتى بعدها سبع عجاف ونصحه ان تخزن فوائض الحبوب بسنابلها حتى لا يفتك بها السوس .

وحدث بالفعل ما كان قد اخبر به سيدنا يوسف واتخذه فرعون وكلفه ان يعد العدة لمواجهة المجاعة القادمة .

فلما انتهت سنوات الخير وبدأت سنوات المجاعة اشتد الجوع على اهل مصر فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهبا فاشتروا بالفضة حتى لم يجدوا الفضة فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنما فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة ولا ذهب ولا شاة ولا بقرة خلال سنتين فأتوه فى السنة الثالثة فقالوا له لم يبق لنا الا انفسنا واهلنا وارضنا فاشترى يوسف ارضهم كلها لفرعون ثم اعطاهم طعاما يكفيهم واتفق معهم على زراعة الارض على ان يكون لفرعون الخمس مما تنتجه الأرض والباقى يأخذه من يزرع .

المجاعة فى عهد المستنصر بالله

عام ١٠٥٩ فى عهد الفاطميين وأيام تولى المستنصر بالله ابى تميم نكبت مصر بالشدة العظمى وعانت من القحط والوباء أعواما طويلة .

انخفض النيل انخفاضا شديدا واستمر على ذلك سبع سنوات ذاق الناس أقصى واقسى انواع الغلاء فى التاريخ المصرى وكما دون المؤرخون ان السكان كانوا يأكلون بعضهم بعضا .

اردب القمح بلغ سعره مائة وعشرين دينارا ورغيف العيش خمسة عشر دينارا اكل الناس الكلاب والقطط والحمير الكلب ثمنه خمسة دنانير والقط ثلاثة دنانير تحول الناس

الى وحوش بالمعنى الحقيقى لا المجازى القوى يهجم على الضعيف يذبحه ويأكله والبعض يجلسون فوق أسطح المنازل وبأيديهم حبال فيها خطاطيف فاذا جاء احد الناس القوا عليه الحبال ونشلوه بالخطاطيف بسرعة ثم يذبحونه ويأكلون لحمه دون انتظار لطهى هذا اللحم .

والوزير أبو المكارم ركب يوما على بغلة ودخل الى دار الخلافة وترك البغلة مع غلامه فجاء ثلاثة اشخاص واخذوا البغلة والغلام وذبحوا البغلة والغلام وأكلوهم وألقى القبض على هؤلاء الاشخاص وشنقوا وعلقت جثثهم ولما استيقظ الناس فى صباح اليوم التالى لم يجدوا أحدا من المشنوقين فقد انقض الناس على جثثهم وأكلوها .

سجل هذه المجاعة ابن اياس المصرى وكل من كتب تاريخ هذه المرحلة ومنهم ابو الفرج بن الجوزى وعبد الله بن الحكم .

المجاعة فى عهد السلطان كتبغا عبد الله المنصورى

فى عام ١٢٩٦ (٦٩٤هـ) وفى زمن السلطان العادل كتبغا عبد الله المنصورى شح النيل فهلك الزرع والضرع ومات ثلث السكان جوعا حتى طرحت الموتى فى الطريق واكل الناس الكلاب والحمير والبغال ولم يبق أحد عنده شىء من الدواب وبلغ ثمن الاردب من القمح مائه وسبعين درهما .

المجاعة فى عهد الملك الظاهر سيف الدين جقمق

فى عام ٨٥٣هـ = ١٤٤٩م فى عهد الملك الظاهر سيف الدين جقمق توقف النيل عن الوفاء والعطاء فعزت الاقوات وساد الغلاء وجفت البساتين والزروع وماتت البهائم واستمر القحط سنين .

المجاعة فى عهد الوالى على باشا

فى عام ١١٠٧هـ = ١٦٩٥م هبط النيل بسرعة فشرقت الاراضى ووقع الغلاء والفناء وفى منتصف المحرم سنة ١١٠٧هـ اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساء وصبيانا وطلعوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع فلم يجبهم احد فرجموا

بالحجارة اسوار القلعة فركب الوالى وطردهم فنزلوا الى الرميلة وهو حاليا الموقع الذى به ميدان القلعة ونهبوا حواصل الغلة التى بها ووكالة القمح وحاصل عاصمة الباشا وكان به فول وشعير وكانت هذه الحادثة ابتداء الغلاء حتى بيع اردب القمح بستمائه نصف فضة والشعير بثلاثمائة والفول بأربعمائه وخمسين والارز بثمانمائه نصف فضه وحصل شدة عظيمة بمصر واقاليمها وحضر اهالى القرى والارياف حتى امتلأت منهم الازقة واشتد الكرب حتى اكل الناس الجيف ومات الكثيرون من الجوع وخلت القرى من اهلها وخطف الجائعون الخبز من الاسواق ومن الافران ومن على رؤوس الخبازين ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخلف وبايديهم العصى حتى يتم خبزه بالفرن ثم يعودون به .

واستمر الامر على ذلك الى ان عزل على باشا اسماعيل باشا ورأى ما فيه الناس من الكرب والغلاء جمع الفقراء ووزعهم على الامراء والاعيان كل انسان على قدر حاله وحالته واخذ لنفسه مجموعة منهم وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء الى انقضى الغلاء وانتهت المجاعة .

ولكن اعقب المجاعة وباء عظيم وكان يموت كل يوم اعداد كبيرة وكانوا لا يجدون الكفن للفقراء والغرباء .

وكان المسئول عن تحصيل الضرائب ايام الوالى على باشا هو ياسف اليهودى فاشتد فى فرض الضرائب وتحصيلها فى الوقت الذى يعانى فيه الناس المجاعة والوباء .

فلما عزل على باشا وتولى مكانه اسماعيل باشا تجمهر الناس على ياسف اليهودى وقتلوه وجروه من رجله وطرحوه فى ميدان القلعة واحرقوه .

المجاعة فى عهد ابراهيم بك

فى عام ١١٩٩هـ = ١٧٨٤م اجتمعت كل الاسباب لإحداق المجاعة فى هذه السنة انتشر الوباء وساءت ادارة الحكم وانخفض النيل وتوالت اسراب الجراد .

عمت البلوى بمصر من الطاعون وتوالت الشدائد من غلاء وفناء وفتن وانخفاض مياه النيل وسوء الحكم ومصادرة الاموال وكثرة المظالم وفرض الضرائب الكثيرة وجبايتها بالعسف وتشتت الفلاحون وهربوا من حقولهم وقراهم وقل الزرع واشتد الكرب وهلك الحرث والنسل ولما وجد جباة الضرائب ان الفلاحين قد هربوا واتجهوا الى اصحاب الاملاك يفتشون منازلهم ويبيعون مواشيهم واثاث منازلهم وما يمتلكون .

وطمع ابراهيم بك فى المواريث فاذا مات الميت اخذوا كل مخلفاته سواء كان له وارث ام لا وحل بالناس جميعا ما لا يوصف من انواع العناء حتى خربت مصر كلها . . الريف والحضر . . وانقطعت الطرق واختل الامن .

وانتشر الفلاحون فى المدينة بناتهم واولادهم يصرخون من الجوع وياكلون ما يتساقط من قشر البطيخ واوراق الشجر حتى لا يجد الزبال شيئا يكنسه من ذلك واشتد الكرب حتى اكلوا الميتة من الخيل والحمير والبغال والجمال فكان اذا وقع حمار ميتا تزاحموا عليه وقطعوه فمنهم من ياكل ما اخذه نيئا من شدة الجوع ومات الكثير جوعا هذا والغلاء مستمر والاسعار فى زيادة مستمرة.

مجاعات الماضى والمستقبل

اختفت اكثر الاسباب ـ او كادت التى كانت تعمل على ظهور المجاعات، فى الماضى بسبب التطور الحضارى الشامل على مستوى العالم وتقدم العلوم فان وباء مثل الطاعون لم يعد له وجود وآفة الجراد اصبحت تقاوم تعاونيا وعلى اسس علمية بين الدول التى تتعرض لغاراته وتشرف منظمة الاغذية والزراعة التابعة لهيئة الامم على التخطيط والتنفيذ وتقدم مصر نصيبا كبيرا من المشاركة فى هذا الجهد وترسل البعثات لمكافحة هذه الافة الى البلاد المجاورة مثل السعودية واليمن والاردن والسودان فلم يصبح للجراد ذلك الخطر الذى كان فى الماضى وتقدمت علوم مكافحة الامراض والافات النباتية والحيوانية .

وفى مصر امكن التحكم فى مياه النيل بكثير من المشروعات التى نفذت فى مجال الرى والصرف واقيمت الخزانات على طول مجرى النهر واكبرها واهمها السد العالى الذى هيأ للزراعة فى مصر موردا ثابتا واصبحت موارد مياه النيل معروفة ومحسوبة ويتم توزيعها والتصرف فيها بنظام غاية فى الدقة على مدار العام ولكل المزروعات واحتياجات السكان والصناعة وغيرها .

ولكن هناك عوامل للقحط لا سلطان للبشر عليها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وهى العوامل الجوية واثرها على الامطار كمياتها ومواعيدها ومواقع سقوطها .

وقد حدث منذ بداية عام ١٩٨٠ الى اليوم قلة فى الامطار فى الساحل الأفريقى وهو الحزام الاوسط لقارة افريقيا الذى يشمل المنطقة الممتدة من المحيط الاطلسى الى المحيط الهندى وجنوب البحر الاحمر ونتج عن ذلك جفاف اهلك الزرع والضرع وسيطر الجوع

على كل سكان البلدان الوسطى من قارة افريقيا واعتبرت اكبر مجاعة على مر التاريخ لقد مات حتى الان اكثر من عشرين مليونا من البشر ويتعرض الباقون لاثار امراض نقص التغذية وقد هبت كل بلاد العالم لاغاثة منكوبي الجفاف ونشطت كل اجهزة الاعلام من صحف واذاعة وتليفزيون والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والفنية تدعو كلها لسرعة بذل الجهود لانقاذ الجياع ولا تزال الامطار شحيحة وقد مرت ست سنوات وليس للكارثة من دافع الا رحمة الله وفضله .

واذا كانت العوامل الجوية ليست من صنع البشر ولا سلطان لأحد عليها فان هناك عاملا لايقل خطورة وهو الانفجار السكانى الواقع حاليا فى كل بلدان العالم الثالث اى الفقيرة التى تنشط فى الانجاب وتتقاعس عن العمل جهلا وكسلا انفجار يتفاقم خطره يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة .

فى العالم اليوم سبعمائه مليون جائع يعيشون فى اسيا وفوق ارض افريقيا اغنى بلاد الدنيا فى مواردها الطبيعية واذا كان عدد سكان العالم حاليا خمسة مليارات من البشر فمعنى هذا ان هناك فردا جائعا بين كل سبعة افراد ماذا سيكون الحال بعد عشر سنوات عندما يضاف لهذا العدد مليار جديد .

المجاعة القادمة وهى قادمة بكل تاكيد سيكون سببها البشر انفسهم الذين يتزايدون ولا يعملون .

السخرة

السخرة هى تشغيل الفلاحين والعمال فى تنفيذ المشروعات العامة للدولة دون اجر او اجر بسيط مع استعمال العنف والقسوة فى تشغيل الفلاحين واهمال العناية بهم فى الاقامة والماكل والرعاية الصحية .

والسخرة قديمة منذ استقر الانسان المصرى على ارض بلاده وترك الرعى وقد بدأها الفراعنة لبناء المعابد والمقابر والأهرامات والمسلات واقامة جسور النيل واصلاحها فكان الحكام يجمعون الفلاحين والعمال لقطع الحجارة من الجبال ونقلها الى مواقع العمل ثم تنفيذ البناء تحت اشراف المهندسين والفنيين .

يعمل الفلاحون اياما وشهورا وسنوات طويلة فى بناء المعبد او الهرم وفى قطع الحجارة ونلقها وقد استغرق بناء الهرم الاكبر عشرين عاما .

يعملون نهارا وقد يواصلون العمل ليلا فى الحر والبرد ينامون فى العراء ويتناولون من الغذاء الكفاف .

والسياط والعصى تلهب ظهورهم مع الفاظ التهديد والوعيد والسباب وفاحش القول وبذىء الكلام .

واستمرت عهود السخرة وتلاحقت حتى اتصلت منذ الفراعنة الى اخر القرن التاسع عشر .

ويمكن ان نذكر قليلا من أمثلة السخرة لان حصرها شيء يفوق الوصف والعد .

بنى صلاح الدين الأيوبى القلعة لتكون له معقلا وحصنا يعتصم به من اعدائه وكلف بهاء الدين قراقوش الاسدى بالإشراف على البناء وبنى سور القاهرة وكان ينقل الحجارة من الجيزة من الاهرامات الصغيرة التى كانت منتشرة فى صحراء الجيزة وبناها الفراعنة وكانت كثيرة العدد .

وقصد صلاح الدين ان يكون السور محيطا بالقاهرة والقلعة ومصر واستخدم قراقوش فى بناء القلعة والسور خمسين الف اسير وكان يستخدم معهم القسوة البالغة حتى صار اسم قراقوش تعبيرا يطلق على كل عمل استبدادى او ظالم ويردد الناس اسمه حتى اليوم وبعد مرور ثمانية قرون على عهد قراقوش .

هدم الهرم

فى عهد الملك العزيز بن صلاح الدين الأيوبى اشار عليه من حوله بهدم الهرم الأكبر لظنهم ان تحته كنوزا فجمع العمال والفلاحين من الريف والصناع من المدن باعداد كبيرة واستمروا ثمانية اشهر وكانوا لايقدرون على خلع حجر أو حجرين فى اليوم .

ولما لم يصلوا الى نتيجة عدلوا عن هذا الأمر .

ترعة المحمودية

تم حفرها فى عامين وكانت تسمى الأشرفية بدأ العمل فيها فى بداية عام ١٨٣٨ وانتهى فى آخر عام ١٨٣٩ .

عمل بها ٤٠٠ الف فلاح وكانت مكعبات الحفر احد عشر مليونا من الامتار المكعبة يساق الفلاحون فى غير مواسم الزراعة للعمل فى حفر الترع ، يبدأ العمل شتاء الى ان يقترب وقت الحصاد (مايو) فيرد الفلاحون للأرض لجمع المحصول فاذا نودى بوفاء النيل فى اغسطس صدر أمر محمد على لحكام الاقاليم بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب وبعد انتهاء العمل يعودون الى بلادهم فيطالبون بالضرائب (المال) عن كل فدان حمل بعير وكيلة قمح وكيلة فول .

موسم العمل الأول فى الشتاء فى شدة البرد والموسم الثانى فى الصيف فى شدة الحر فيهلك الكثير ويمرض الكثير وكل من مات أهالوا عليه تراب الحفر والترع التى حفرت فى عهد محمد على وابنائه بلغ مجموع مكعبات الحفر منها ١٢٦ مليون متر مكعب كلها تمت بأعمال السخرة .

قناة السويس

إبتدأ الحفر فيها فى ٢٥ أبريل ١٨٥٩ واستمر عشر سنوات ، بدأ جميع الفلاحين فى البداية من الشرقية ولما اتسع العمل جمع الفلاحون من جميع البلاد من الوجهين البحرى والقبلى .

وكانت المشكلة فى البداية هى توفير ماء الشرب ونقلها من ترعة بحر مويس عند الزقازيق الى مواقع العمل فى الصحراء وكانت إقامتهم فى خيام يكتظون بها ليلا ويعملون نهارا تحت الشمس الحارقة وفى البرد يعملون على ضوء المشاعل التى كانت تصنع من خشب الراتنج المثبت فى مقابض من الصاج وكانت ترص متقاربة وتضىء مساحات واسعة تمتد مسافة اربعة كيلو مترات .

ولم تكن هناك رعاية طبية وأصبح يهرب من يستطيع الهرب .

وانتشر التيفوس وبدأ بين الفلاحين القادمين من قنا وأصبحت الإصابة عامة فى جميع مواقع العمل عام ١٨٦٢ .

وظهرت الكوليرا عام ١٨٦٥ .

وانتشرت بينهم أمراض أخرى مثل الدوسنتاريا والتهاب الكبد وضربة الشمس . وكان الرمد اكثر الأمراض شيوعا .

والطعام الذى كان يقدم لهم خبز ناشف وبصل وعدس وأرز وزيت وكان الخبز يصاب بالعفن والسوس .

وذكر الكتاب الاجانب ان الفلاحين المصريين الذين يحفرون القناة كانوا يموتون كالذباب . والجمال ايضا كانت تموت جوعا وعطشا .

اما الأجور فكانت هزيلة وتتراوح بين ٦ ـ ٨ قروش عن كل متر مكعب من الحفر وكانت الاجور لاتصل الى اصحابها كاملة اذ يتقاسمها معهم الموظفون المشرفون على العمل .

وكان رؤساء العمل المصريون ويسمون المشايخ ومن الأوروبيين يقومون بضرب الفلاحين ويسيئون معاملتهم .

ومن الطريف ان الذى ثار وضج من أجل السخرة فى حفر قناة السويس وما يلاقيه الفلاحون هم الانجليز هناك فى لندن بمجلس العموم البريطانى والصحف البريطانية .

وبديهى أن هذا لم يكن حبا ولاعطفا على فلاحى مصر ولكن كرها فى الفرنسيين الذين سبقوهم الى فكرة انشاء قناة السويس وتنفيذها .

ومنذ بداية القرن العشرين اختفت السخرة وقد نفذت مشروعات رى وصرف كبيرة وأقيمت سدود ترابية واقيم السد العالى بأيدى الفلاحين والعمال المصريين وكانت تدفع لهم الاجور المجزية مع الرعاية الصحية والعناية بأكلهم وإقامتهم مع حسن المعاملة والحفاظ على كرامتهم .

القرية فى النصف الأول

من القرن العشرين

تخطيط القرية ومساكنها والمعيشة فيها

لم تتغير صورة القرية ومساكنها منذ عهد الفراعنة الى منتصف هذا القرن . ولم يكن هناك ولايزال حتى اليوم تخطيط لإقامتها أو حتى للاتساع مستقبلا ولم تكن هناك أفكار عامة وخطوط رئيسية عند التفكير فى انشاء أى قرية . أى ان التخطيط كان عشوائيا تشهد بذلك شوارع القرية وحواريها ولكن تحكمه ضوابط عامة .

أول كل شيء يختار موقع القرية فى مكان مرتفع لا تصل اليه مياه النيل عند الفيضان مهما كان الفيضان مرتفعا فاذا لم يتوفر هذا المكان المرتفع أقيم حول القرية جسر ترابى مرتفع ليحميها من مياه النهر . ويكون الموقع كذلك بعيدا عن مجرى السيول وذلك فى المناطق الملاصقة للصحراء .

ومن الضرورى أن تكون القرية قريبة من مصدر مياه عذب لشرب السكان والماشية .

وأن تكون على طريق رئيسى يربطها بباقى القرى المجاورة هذا بالنسبة لموقع القرية .
أما المساكن فكان يراعى فى كل القرى ان تكون المنازل متلاصقة باستثناء قرى بلاد النوبة . التى كانت تقع بين أسوان ومدينة حلفا أى على حدود السودان فإن المنازل كانت متناثرة غير متلاصقة لاتساع الارض الصحراوية على ضفاف النيل ولان الشريط المنزرع كان ضيقا ثم ان هذه القرى تميزت باستتباب الأمن والطمأنينة واختفاء الجرائم أو قلة وقوعها .

تكون المنازل متلاصقة والنوافذ عالية حتى لا يرى من يسير فى الشارع على قدميه أو راكبا دابة من بداخل المنزل من الحريم وللمسكن باب واحد حتى يمكن التحكم فى قفل الدار ليلا .

والشوارع ضيقة تكفى سعتها لمرور جمل محمل بأحطاب القطن أو الذرة وهى شوارع غير مستقيمة . والحوارى اكثر ضيقا وقد تنتهى إلى نهاية مسدودة..

ويترك مكان فسيح فى أحد أطراف القرية للجرن حيث تدرس الحبوب فى مواسم نضجها .

ويترك متسع آخر لوضع أكوام السماد البلدى بنقلها من الدور الى هذا الموقع تمهيدا لنقلها الى الحقول .

ولابد من ترك ساحه كبيرة لإقامة الموالد والأفراح والمآتم والمناسبات العامة . ويختار للمسجد أو دور العبادة كالكنيسة فى القرى مكان متوسط .

أما أماكن دفن الموتى وتسمى الجبانة أو القرافة فتكون على مقربة من القرية دون ان تتصل بالمساكن وقد تخدم الجبانة الواحدة جملة قرى وبلادا متقاربة .

الشارع :

يمتد على غير اتفاق ، يعتدل أو يعوج ، يضيق او يتسع ، ويرتفع او ينخفض دون ضابط او رابط والمساكن مصفوفة على الجانبين وقد يزيد فى ضيقها ان توضع أسمدة او احطاب بجوار أبواب الدور . ولا يفكر أحد من السكان فى كنس الشارع أو نظافته بل إنهم يرمون فيه كناسة الدار وغيرها .

الحارة :

اكثر ضيقا وأقل طولا من الشارع وعرضها لا يسمح بمرور الجمل المحمل بالأحطاب وفى مثل هذه الحالة توضع الاحطاب على أول الحارة ثم تنقل الى داخل المنزل حيث تخزن فوق السطح واحيانا تكون الحارة مقفلة لأن منزلا اعترض مسارها عند النهاية .

الحوش :

وهو مكان متسع قليلا تحيط به المنازل من كل ناحية وعاده تضم المساكن المحيطة بالحوش عائلة واحدة أو اقارب فيسمى الحوش باسمهم وقد تكون به شجرة توت أو نخيل أو شجرة جميز .

المنشآت العامة :

أهمها وأولها المسجد وبكل قرية مسجد على الأقل وقد يزيد عليه فى أطراف القرية مكان صغير للصلاة يسمى زاوية أو مصلى ولا تقام فى الزاوية أو المصلى صلاة الجمعة التى تقام فى المسجد فقط واذا كان فى القرية فلاحون مسيحيون أقيمت كنيسة للعبادة والصلاة يوم الاحد وأيام الاعياد وتقام فيها الافراح والصلاة على الميت .

وكان فى كل قرية كتاب لتحفيظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة ومبادىء علم الحساب ثم أصبح فى كل قرية عدة مدارس لتستوعب تلاميذ المرحلة الالزامية وهى المرحلة الاولى ثم مدرسة اعداديه وهى المرحله التى تلى مرحلة الالتزام واحيانا يكون بالقرية مدرسة ثانوية اذا كانت القرية كبيرة التعداد او كان من بين أهل القرية أحد أصحاب النفوذ فيسعى لإقامة مدرسة ثانوية .

المساكن :

تقام المساكن فى القرية لإقامة الأسرة فيها واحيانا يكون لدى البعض اماكن للضيافة ومسكن العائلة يسمى الدار أو البيت أو المسكن ومكان الضيافة يسمى المنظرة أو المضيفة أو الدوار وهو اكبر حجما واتساعا من المنظرة . ولا يقيم بها أحد من افراد الاسرة ولكنها تخصص لاستقبال الضيوف واقامتهم .

المنزل :

يبنى المنزل من الطوب النى أو الطين ـ الطوف أو البلستة ـ ويكون له باب واحد على الطريق ويحتوى عدة اماكن حسب حجم الأسرة واحتياجاتها علاوة على حوش سماوى أى مكشوف لا يغطيه سقف . والمنزل العادى به غرفة تستعمل للنوم والجلوس وبجوارها قاعة تستخدم شتاء إنها معده اعدادا خاصا للتدفئة ففيها فرن تعلوه مصبطة عريضة تشغل فراغ ثلاثة ارباع القاعة ويبلغ ارتفاع هذه المصطبة نحو متر أو اكثر ويظل الجزء الباقى فى مساواة ارض القاعة وهو نفس مستوى ارض المنزل . ويكون عرضه نحو متر وربع ويكون بطول القاعة كلها ويسمى « البحراية » ويكون اتجاه الفرن نحو هذا الجزء من القاعة . وليس للقاعة إلا نافذة صغيرة فى أعلى الحائط وقريبة من السقف وتسمى الطاقة .

وعندما يأتى موسم الشتاء تنتقل الأسرة للنوم ويبدأ فى إعداد التدفئة من قبيل المغرب حيث توقد احطاب القطن أو النباتات الجافة فى الفرن وتمتلىء القاعة بالدخان الذى يترك أثره على الجدران فتصبح سوداء اللون . وعندما تنتهى عملية اشعال الأحطاب فى الفرن وينصرف الدخان يقفل الباب ولا يفتح الا للدخول والخروج . كما تسد الطاقة العلوية بقطعة من الخيش .

ويستفاد من سخونه الفرن فى اعداد بعض الأطعمة أو تدفئتها ثم يوضع فيه كيزان الذره للتحميص للقضاء على حشرات السوس وحتى تصبح جاهزه للطحن .

ويوضع فوق مصطبة الفرن شريط من حصير وبعض المخدات ـ الوسائد ـ ولا يحتاج الامر لغطاء من البطاطين أو الألحفه لان القاعة تكون دافئه وتظل كذلك الى الصباح .

واكثر المواضع سخونة فى المصطبة هو ظهر الفرن ويسمى قبة الفرن ويتزاحم الأطفال فوقها لانها اكثر دفئا .

وتحرص ربة الدار على ان يكون معها فى القاعة الكتاكيت الصغيرة خوفا عليها من البرد وكذلك يبيت فى البحرايه العجل حديث الولاده أو الخروف او الجدى الصغير .

وليالى الشتاء طويلة وتسهر الاسرة فى رواية الحدوته او الفزورة او الاحاديث مستمتعين بدفء القاعة وقد يمضون الوقت فى مص اعواد القصب او اكل الفول السودانى او العجوة .

وفى جدران القاعة طاقات مقفلة يوضع فى احداها مصباح ينير حتى تنام الاسرة ويطفأ قبل النوم مباشرة .

وقد يعلق فى افلاق السقف ربط البصل او الثوم واذا انتهى الشتاء واقبل الصيف لم يعد للقاعة استخدام الا اذا استعملت كمخزن مؤقت لبعض حاجات المنزل او الحقل .

وحوش الدار يتسع لأغراض متعددة فيه مكان للماشية وللدواجن وفيه الفرن الذى يستعمل لخبز العيش وتسوية الطعام وفيه الكانون الذى يطهى عليه الطعام ويسخن الخبز قبل تناول الأكل . والخم وهو مأوى من الطين صغير الحجم للطيور او للأرانب . ويبنى للحمام برج صغير فى الحوش او على سطح المنزل وقد يكتفى للحمام بعمل بنانى ـ جمع بنية ـ وهى تجاويف فى الحائط بها قادوس من فخار يسكنه الحمام ويبيض ويربى زغاليله وقد يعلق للحمام فى سقف العريشة التى تغطى جانبا من الحوش صفائح الماء الفارغة او جرة من الفخار فيأوى اليها الحمام ويسكنها .

وفى ركن من الحوش السماوى يخزن التبن وادوات الزراعة مثل المحراث والقصابية والفؤوس .

وقد تبنى صومعة من الطين فى الحوش اذا كان هناك متسع لذلك او تقام فوق سطح المنزل وهى تصنع من الطين ارتفاعها طول قامة الرجل مخروطية الشكل وسمك جدارها لايتجاوز بضع سنتيمترات ولها فتحة من اعلا فى قمتها وفتحة من اسفل عند قاعدتها . وكانت للصومعة اهمية خاصة لخزن الحبوب وخاصة القمح والذرة والفول والعدس والشعير لوقايتها من السوس وحفظها من الرطوبة وتخلط الحبوب قبل تخزينها بالصومعة برماد الفرن ليساعد على الوقاية من السوس والحشرات وتصب الحبوب فى الصومعة من اعلى بعد ان تكون الفتحة السفلى قد سدت بالطين ويبقى الحب فى الصومعة ويؤخذ منه حسب احتياجات المنزل او الحقل اذا اريد اخذ تقاوى للزراعة وللسوق اذا كان هناك فائض عن حاجة الاسرة وقد يكون بالمنزل صومعة واحدة او عدة صوامع .

وقد اختفت الصومعة او كادت بعد ان تغيرت اساليب تخزين الحبوب وانتشر استخدام المبيدات الحشرية التى تقضى على السوس وكل الافات التى تصيب الحبوب .

ويستخدم سطح المنزل لتخزين الأحطاب الجافة من القطن والذره والارز وغيرها من الحاصلات لتستعمل وقودا يوميا لتسخين الخبز والطهى وخبز العيش أو لتسخين المياه أو للتدفئة ، كما كان يضاف الى هذه الأحطاب روث الماشية الجاف الذى كان يجفف على هيئة اقراص مستديرة رقيقة وتخزن فوق السطح ايضا لحين الحاجة اليها .

وقد يكون فوق السطح متسع لإقامة صومعة أو برج حمام على ان البعض يبنى فوق الدار غرفة صغيرة تسمى « صُفّة » للنوم فيها صيفا ، وقد يكون الدور الثانى مكون من غرفة أو غرف ويسمى « المقعد » .

حظيرة الماشية أو الزريبة :

قد تبيت المواشى فى حوش الدار مع أصحاب الدار أو يكون لها مكان مستقل يتصل بالدار بباب من الداخل ، وقد يكون باب الحظيرة على الشارع رأسا .

وفى الزريبة مدود أو طواله يوضع فيها التبن والعليقة أو العلف الجاف ، وكانت العليقة من الحبوب وخاصة الفول أو الذره للماشية أو الشعير للحمير والخيل ثم استخدمت العلائق الجافة المكونة من خليط من كسب بذرة القطن والنخالة وبعض

الحبوب المجروشة وفى مقدمتها الذرة . والعليقه تقدم صيفا . أما فى الشتاء فيكون غذاء الماشية البرسيم الاخضر الذى يحضر من الحقل مساء مع عودة المواشى من الحقل ويوزع عليها فى المداود أو الطوايل .

ويضاف الى ارض الزريبه التراب الناشف ليتشرب بول الماشية ويساعد على عمل السماد العضوى - البلدى - ويقطع هذا السماد بالفأس كل فتره لينتقل الى الحقول لتسميد الحاصلات الزراعية وهو خير الأسمدة على الإطلاق كانت ولاتزال الاراضى المصرية فى حاجة اليه ومهما استجد من أسمدة ومخصبات كيماوية ومهما تعددت اشكالها وانواعها فان السماد البلدى يحتوى العناصر الرئيسية والعناصر النادرة والمادة العضوية التى يحتاجها النبات .

الفراش والأثاث

الفراش يتكون عادة من حصير أو كليم من الصوف وقد توجد كنبة أو سرير ، وللسرير أربعة أعمدة من زهر الحديد الاسود أو من النحاس أو المعدن الابيض تركب على الاعمدة ناموسية لمنع الحشرات عن النائم وأهمها الناموس ليلا والذباب نهارا .

والمخدات والمراتب حشوها من القطن وكذلك اللحاف . أما البطانية فهى من الصوف

ويوجد صندوق خشبى بصفيح ملون من الخارج وله قفل وتوضع به الملابس والاشياء ذات القيمة كالنقود والمصاغ . واذا كانت الاقمشة التى ستخزن بالصندوق صوفيه وضع فيها ثمره من ثمار الحنظل وشكلها على هيئة بطيخة صغيرة الحجم وذلك للوقاية من العتة التى تصيب الملابس الصوفية .

ويقوم مقام الشماعة عصا أو حبل أو عرجون نخل جاف توضع فى ركن وتثبت فى جدارين وتكون بارتفاع الشخص وتعلق عليها الملابس كما تربط مشنة أو قفة أو سبت بحبل يتدلى من السقف وتوضع به الأطعمة السكرية والحلوة هربا من النمل .

وتوجد بالدار مصطبة أو كنبة أو دكة تغنى عن الكراسى وبالمنزل ادوات اخرى لاغنى عنها وهى القفه والمقطف والمشنه والسبت والزكيبة والشوال والكيس .

أدوات الطهى :

الحله والقزان وهو حلة كبيرة والطاسة واللحوقى وكلها من النحاس والطاجن أو القعب وهو من الفخار والسلطانية أو تبسية وهى من الصاج أو النحاس . والصلايه وهى من الخشب يدق فيها الملح والاشياء الصلبه قبل اعدادها للطهى ومغرفه من الخشب أو النحاس أو الالومنيوم .

أدوات صناعه الرغيف :

وتسمى ادوات الخبيز وأهمها اللقان أو الماجور وهو إناء كبير من الفخار يوضع فيه العجين حتى يخمر والمطرحه وهى مستديرة تشبه المروحه مصنوعة من جريد النخيل ويفرد عليها الرغيف قبل وضعه فى الفرن .

أدوات اللبن :

المترد أو الشاليه أو الكشكول وكلها اسماء لوعاء واحد من الفخار يوضع فيه اللبن عند جلبه من ضرع الجاموسة أو البقرة .

ومن مستلزمات تصنيع اللبن قربة من الجلد يوضع فيها اللبن ويخض اى يهز فترة زمنيه الى ان تنفصل الزبده عن اللبن الذى يضاف له الملح ويسمى المش واذا اريد عمل جبن فانه بعد نزع القشدة من على وجه اللبن يوضع اللبن المنزوع القشدة فى حصر من السمار المر وتعلق على الجدار حتى يتصفى الشرش وتتكون الجبن وتسمى جبن قريش اذا كانت منزوعه الدسم وجبنة بخيرها اذا كانت لم ينزع منها القشدة ويوضع اللبن ومنتجاته فى دولاب خشبى خاص للمحافظة عليه من الذباب والحشرات والأتربه وهذا الدولاب يسمى نملية اللبن .

أدوات الطعام :

المائدة هى الطبلية وهى قرص مستدير له أربعة أرجل ترتفع عن الارض نحو شبرين وتتسع لنحو ستة اشخاص يجلسون عليها فى دائرة . ويوضع عليها الطعام الرئيسى وقد تكون حوله أطباق أخرى اصغر حجما اذا كانت هناك أطعمة أخرى أو فاتحات للشهيه

مثل أصناف المخلل . كما يوضع على الطبلية مجموعة من الأرغفه تجدد كلما أكل اكثرها . وتناول الطعام بالايدى واحيانا تستعمل الملاعق المعدنية أو الخشبية .

أدوات الشرب :

الكوز أو الكباية أو الشربه وقد تكون من الصفيح أو الزجاج والابريق والقله والبلاص والزير من الفخار وقد يكون فى الدار ركن خاص لزير أو اثنين ترفع على حوامل خشبية وتسمى مزيره وتوضع بجوارها القلل ويغطى الزير بغطاء خشبى لحفظ ماء الشرب من التلوث .

أدوات القهوة :

كانت القهوة هى السائدة قبل انتشار الشاى وكانت تشرب عادة سادة أى دون سكر وأدواتها الكنكه وهى من نحاس ومصحن للبن وهو من الفخار ويصحن فيه البن بعد تحميصه وقد يضاف له الحبهان ليكسبه رائحة عطرية ويساعد على الهضم وتصب القهوه فى فنجان بيشه وهو مصنوع من الصينى وليس له يد يمسك منها أو طبق يوضع عليه أو تصب فى فنجان له ظرف يحمله حتى لايشعر ممسك الفنجان بسخونته واخيرا تطور فنجان القهوة الى فنجان له طبق يوضع عليه يأخذ شكله ولونه .

أدوات الشاى :

وهى ابريق من صاج يحضر فيه الشاى ثم يصب فى فناجين أو اكواب زجاجية .

أدوات الماشية :

يحرص الفلاح على وجود أدوات الماشية حرصه على وجود ادوات المنزل وربما يكون اشد حرصا على توفير ماتتطلبه استخدام الماشية فى الحقل والعمل ومن أهمها البردعة للحمير والسرج للخيل والبغال والرحل للجمل واللجام للحمير والخيل . وكذلك الجهال والقيود والأوتاد والغمايه التى توضع على عينى الماشية اثناء دورانها فى الساقية أو الطاحونه . والفرقله والعصى .

السلاح :

كل فلاح مهما كان مسالما فإنه يحتفظ فى داره ببعض أنواع الأسلحة للدفاع ولأغراض الأمن حتى ولو لم يستعملها إلا ان وجودها ضرورى

يبدأ السلاح بالعصى العادية والعصى المجهزة بأن يثبت فى آخرها مسامير أو حلقات من الحديد أو الجلد وتكون من خشب صلب شوم أوزان وتسمى العصى المجهزه لأغراض الأمن زقلية أو نبوت أو شومة أو هراوة .

والكرباج العادى والكرباج السودانى ويوضع حوله سلك من النحاس على هيئة الخاتم على مسافات متباعدة على طول الكرباج

وتجهز سكاكين خاصه للدفاع عن النفس منها ماله حد واحد ومنها ماله حدان وهناك الخناجر المديه حامية الأطراف ثم السيوف وهذه تسمى السلاح الأبيض .

أما الأسلحه النارية فأصغرها المسدس ويسمى أيضا الطبنجه أو الفرد والبندقيه ، والخرطوش عيار ١٢ أو عيار ١٦ أو البندقيه الرصاص .

ويصل الأمر احيانا ان يقتنى الفلاح مدفعا سريع الطلقات وذلك فى القرى غير الآمنة

الملابس

ملابس الفلاح أيام الفراعنة كانت بسيطة وهى جلباب قصير يسهل العمل فيه فى الحقل .

أما المرأة الفلاحة فكانت ملابسها ايضا بسيطة على عكس سيدات الطبقة الحاكمة والاغنياء اذ كن يرتدين الملابس الشفافة الخفيفة المطرزه تطريزا جميلا رائعا ومحلاة بألوان زاهية .

كانت الفلاحة تلبس ثوبا من الكتان طويلا يصل الى القدمين وهو ضيق يبرز تفاصيل الجسم ومفاتنه وليس به ثنايا وينحدر من تحت الثدى حتى يبلغ القدمين ويحمله حمالتان تمران فوق الكتفين وتكون معقودة على الأكتاف أحيانا وفى العصور الأولى كان صدر الثوب يغطى الثديين تماما ولكن بعد ذلك كان الصدر يقصر حتى ينكشف الثديان تماما . وكان اللون الابيض هو الغالب لملابس نساء القرية واحيانا يكون ملونا باللون الأحمر أو الاخضر أو الأصفر .

وكانت ملابس الفلاحات تبدو بسيطة متشابهة .

وفى عصر الدولة الوسطى قضت « الموضة » بان ترتدى النساء قطعتين من الثياب .

وقد طرأت على هذا الزى تغييرات كثيرة فى عصر الدولة الحديثة فأصبح الرداء العلوى يسدل فوق الذراع اليسرى وتبقى الذراع اليمنى حرة مكشوفة .

ولم يحدث تطور كبير فى ملابس الفلاحين رجالا ونساء فى العهود التى جاءت بعد الفراعنة وهى عهود اليونان والرومان .

فلما جاء الإسلام فرض الحجاب على النساء فتغيرت الملابس بالنسبة لهن تماما فالمرأة داخل منزلها حرة فيما تلبس فلن يراها إلا أهلها ولكنها اذا خرجت من الدار تلبس ملابس واسعة فضفاضة سوداء تخفى كل ملامح الجسم وتقاطيعه وتضع على الرأس طرحة وعلى الوجه .

نقابا (برقعا) كثيفا ولايظهر من جسمها الا الكفان والعينان اما ملابس الرجل فهى الجلباب ولم يتغير شكل الجلباب كثيرا .

وفى اوائل هذا القرن كان جلباب الفلاح واسعا ومصنوعا من القطن عادة وقد يكون من الكتان او الصوف وتحته قميص واسع قصير الأكمام يصل الى الركبة او دونها بقليل وسروال (لباس) يربطه بالوسط شريط من قماش يسمى دكة . وقد يلبس صديريا فوق القميص وتحت الجلباب . وفى الشتاء يرتدى زعبوطا من الصوف او بشت او دفية .

ويمشى الفلاح حافيا اذا ذهب الى حقله اما فى المساء فقد يلبس حذاء « بلغة » ويلبسها فى المناسبات اذا ذهب لمأتم او حضور حفل او لصلاة الجمعة .

ملابس الطبقة الوسطى والعليا فى القرية

وتعبير وسطى وعليا هنا هو تعبير نسبى بالقياس الى مجتمع القرية .

الملابس الداخلية للرجل هى سروال وقميص واسع وفوقه صديرى ثم قفطان عليه حزام من حرير او قطن .

ويرتدى فوق تلك الملابس الداخلية جلباب من الصوف او جبة وعباءة من الجوخ والجبة ملونة مفتوحة من الامام والاكمام واسعة اما العباءة فهى عادة سوداء ونادرا ذات لون بنى وليس بها اكمام .

ويلبس على الرأس طاقية من القطن او الصوف ويضع فوقها العمامة وهى طربوش من لباد او جوخ احمر اللون له شرابه تسمى زر مصنوع من خيوط حريرية زرقاء اللون ـ ويلف حول الطربوش شاش ابيض ناصع نظيف ويتفنن صاحب العامة فى لف الشال حتى يبدو انيقا .

وتستعمل الجوارب شتاء وهى من القطن او الصوف والحذاء ويسمى مركوب وهو عادة من الجلد الاحمر السميك وطرفه مدبب ومعقوف الى اعلى . او يكون الحذاء من جلد وله رقبة واستك او رباط او ازرار .

ولم يكد هذا القرن ينتصف حتى حدث تطور كبير فى ملابس اهل القرية نساء ورجالا واطفالا .

لقد اختفى الحجاب واصبحت المرأة تخرج سافرة وتلبس الملابس الملونة التى تتغير وتتبدل حسب الموضة والفتيات يلبسن البدلة .

وتغيرت ايضا ملابس الرجال . ان الفلاح لا يزال يلبس الجلباب ولكنه اثناء العمل فى الحقل يرتدى البنطلون واختفى الحفاء تقريبا الا من قرى الصعيد .

واختفت الجبة والقفطان او كادت وكذلك الحال بالنسبة للعمامة واصبحت الرأس عارية او عليها طاقية بسيطة .

وتطورت الاحذية واصبحت متعددة الأشكال والألوان والأغراض .

المصاغ ـ الحلى

تهتم الفلاحة بالحلى فهى من وسائل الزينة ويستخدمها الجميع كل حسب مستواه المادى والمصاغ اما ان يكون ذهبا او فضة او من نحاس يطلى بالذهب .

وانواع المصاغ فى القرية كثيرة من اهمها الاشياء التى سيلى وصفها بإيجاز .

البرقع ـ وهو شريط مستطيل من قماش اسود يربط بالرأس فيخفى معالم الوجه عدا العينين ويتدلى الى محاذاة الركبة او دونها .

توضع على البرقع ثلاثة صفوف من القطع الذهبية مختلفة الاحجام والاسماء تأخذ شكل ورسم العملات الذهبية منها ماهو فى اتساع وحجم الجنيه الذهب او نصفه او ضعفه وتسمى محمودى أو بندقى او مجيدى او غازى

ويحلى الصف الاوسط باللؤلؤ والمرجان . وفوق الانف قصبة من الذهب بطول الانف تقريبا تعلوها حبة مرجان حمراء كبيرة .

ويختلف قيمة البرقع بما يحمله من قطع ذهبية ولؤلؤ ومرجان .

اما المرأة الفقيرة فانها تصنع البرقع على نفس الهيئة والشكل ولكن من نحاس مطلى بالذهب ويسمى قشرة .

وقد يكون البرقع خاليا من كل شيء الا حبة المرجان توضع فى اعلى البرقع بحيث يكون موضعها فوق الجبهة بين الحاجبين ويسمى البرقع فى هذه الحالة شطبه تمييزا عن البرقع المرصع بالذهب .

الحلق : وهو القرط ويكون من ذهب او فضة او نحاس مطلى بالذهب وقد يكون مرصعا بالاحجار الكريمة كاللؤلؤ او الماس او الياقوت او الفيروز اما الاقراط الرخيصة فتكون مرصعة بخرز ملون .

الشناف ـ او الخزام وهو حلقة من الذهب قطرها نحو ثلاثة سنتيمترات ويعلق به خرز او قطع صغيرة من الذهب مستديرة .

ويوضع الشناف فى ثقب فتحة الانف اليمنى ويتدلى فوق الفم فاذا ارادت ان تأكل او تشرب رفعته بيدها اليسرى والشناف قليل الاستعمال وكاد يندثر حاليا .

العصبة : شريط من قماش اسود او ملون يثبت به قطع ذهبية مستديرة وتربط به الرأس فوق الجبين .

العقد : وتسمى اللبة او الشعير وهى الحلية التى تلبس على الصدر وهى قديمة منذ عهود قدماء المصريين وتختلف فى رسومها واشكالها ويتفنن الصناع فى ابداع اشكال مختلفة متجددة عساها ترضى ذوق المرأة ومزاجها .

وهى طبعا من الذهب وللفقراء من القشرة او الخرز او الكهرمان وقد سمى العقد احيانا بالشعيرة لان بعضها كان يصنع من وحدات على شكل حبة الشعير .

وقد تلبس السيدة عقدين او ثلاثة فوق بعضها .

الخواتم : ويلبسها النساء والرجال احيانا وتصنع من الذهب وتركب عليها فصوص من الماس او العقيق او الفيروز او اللؤلؤ . اما خواتم الرجال فهى عادة من الفضة ويركب عليها فصوص عقيق او فيروز او ماس .

الاساور : من ذهب ولها اشكال كثيرة وهى تتطور من عام إلى آخر .

الغوايش : وهى الاساور التى تصنع من الزجاج الملون او العاج أو الكهرمان او غير ذلك .

الصفا : وهو خيوط حريرية تعلق فيها قطع ذهبية مستديرة تجدل مع ضفائر الشعر وتتدلى منه حتى تتجاوز اسفل الظهر .

الخلخال : وهو حلقة من الذهب او الفضة توضع حول الرجل فوق الرسغين وكان له شأن هام فى تزيين المرأة على مدى التاريخ ومهما كان موضع المرأة الاجتماعى سواء كانت ملكة او فلاحة تعمل فى الحقل .

ولأهمية شأنه كان يذكر فى الشعر والموال والأغانى والغزل وتقول إحدى الأغنيات التى تتغزل فى جمال الفلاحة :

رنت خلخاله ياأمه .... الكل قال اسم الله .... حتى العزول القاسى

الطعام

الطعام الرئيسى هو الخبز والملح ومنتجات اللبن مثل المش والجبن القريش واللبن الذى أخذ منه القشدة ويسمى اللبن الرايب .

وصناعة الخبز عملية اساسية لكل ربة دار وفى بعض قرى الصعيد الأعلى يخبز العيش يوميا اى يوما بيوم . وتختلف صناعة الخبز من منطقة الى اخرى فيكون من الذرة فقط وفى هذه الحالة يضاف للدقيق دقيق الحلبة ليساعد العجين على التماسك او يكون مخلوطا من دقيق القمح ودقيق الذرة بنسب متفاوتة قد يكون القمح بنسبة الربع او النصف او ثلاثة الارباع والباقى ذره . وفى المناطق التى يزرع فيها الارز يخلط دقيق الارز مع القمح وفى مناطق الصعيد الجنوبى يكون الدقيق من الذرة الرفيعة التى تسمى الذرة العويجة وخبزها لونه احمر .

يعجن الدقيق فى الماجور او اللقان الفخار فى اول الليل ويضاف لماء العجين قليل من الملح ثم تضاف الخميرة وعندما يختمر العجين فى الصباح او قرب الصباح تبدأ عملية التسوية فى الفرن فتوضع كمية من العجين على مطرحة من جريد النخل وضع على سطحها قليل من القمح او النخالة - الردة - وتهز المطرحة دائريا حتى تصبح قطعة العجين قرصا مستديرا يغطى وجه المطرحة ثم يرمى فى الفرن الساخن بحركة سريعة ويسمى فى هذه الحالة رغيف ثم يضاف اليه فى الفرن ارغفة اخرى وترفع كلها من الفرن بعود من خشب او جريد او حديد بمجرد تمام تسويتها وتوضع الارغفة فى مشنة مصنوعة من الحناء او برش مستدير مصنوع من خوص النخيل . ومثل هذه الارغفة تكون مستديرة الشكل رقيقة السمك ذات طبقة واحدة وقد يكون الرغيف سمكيا واقل اتساعا ومن طبقتين اما عيش الصعيد فيسمى الشمسى لانه يوضع تحت اشعة الشمس فترة قبل ادخاله الفرن ويكون كتلة صغيرة تكاد تكون مكعبة الشكل والكمية التى تخبز تكفى لاحتياج الاسرة بضعة ايام وربما تكفى ليوم واحد .

وتسخن الارغفة على النار على صاج من الحديد مستدير الشكل يوضع فوق الكانون وقد يوضع الرغيف عند التسخين على الجمر مباشرة دون استخدام الصاج وقد تتم هذه العملية فى الفرن .

وخضار الصيف هو البامية والملوخية التى تحتاج عند اعدادها للطهى الى فصل الاوراق عن السيقان ثم تقطع الاوراق بمخرطة من الحديد لها حافة كالسكين وهو هلالية الشكل لها مقبضان . . وخلال فصل الصيف تجفف الملوخية والبامية وتخزن لتستعمل شتاء . . ومن خضر الصيف ايضا الباذنجان والكوسة والطماطم والخيار والقثاء .

اما خضار الشتاء فأهمه الخبيزة والسبانخ والفول الأخضر والقلقاس . وتحضر الخبيزة بعد فصل الاوراق عن السيقان وعندما توضع فى الحلة يضاف اليها قليل من الدقيق وتحرك بقطعة خشبية تسمى المفراك وهو عود من خشب فى آخره قرص خشبى مستدير وله اسنان .

والفول من الأطعمة الهامة ويحضر بطرق مختلفة أهمها المدمس ويحضر عادة يوم خبيز العيش حيث يوضع فى قدرة توضع فى فتحة الفرن بعد الانتهاء من تسوية الخبز ويطهى الفول ايضا بما يسمى الفولية ثم الفول النابت وهو الذى يستنبت قبل طهيه ويصفه الاطباء للمرضى والناقهين من الامراض كما تصنع منه الطعمية والبصارة وكلها من الوجبات المحببة .

والعدس طعام رئيسى ايضا ويدمس فى الفرن او يطبخ او يعمل شربة فى الشتاء .
ويكثر طهى الارز فى مناطق زراعته حتى ان البعض يستخدمه فى الطعام ليقوم مقام العيش .

والبطاطس تطهى فى الافراح والولائم والمناسبات الاخرى مثلها فى ذلك مثل المكرونة .

والبيض يباع اكثره ولا يستخدم فى طعام الاسرة الا اذا كان هناك فائض منه او كانت الحالة المالية ليست فى عسر ويؤكل مسلوقا .
أو مقليا فى السمن او يعمل منه عجة أو يقلى مع العجوة

ومن الوجبات الشهية الكشك ويصنع من الدقيق واللبن الرايب ويخفف ويستخدم عند الطلب وقد يطهى مباشرة من الدقيق واللبن والمرق

ويصنع من حبوب القمح قبل جفافها الفريك ويدبس ويخزن للاستعمال حسب الطلب الى ان يحل موسم القمح التالى . ويستخدم الفريك فى الصعيد والمناطق التى لاتزرع الارز مثل استخدام الارز فى الطهى فيطهى وحده كالارز او يحضر فى الطواجن او تحشى به الدواجن .

وتصحن البامية الجافة وتسمى ويكة لاستعمالها فى فترة الشتاء

كما يطهى العصيدة وهى نوع من الحلو مكون من دقيق وسكر او دقيق وعسل اسود .

أما الفاكهة فهى الموجوده فى نطاق القرية يأكلها الفلاح اذا كانت من انتاجه ولايشترى الفاكهة الاخرى الا للضرورة وأهم الفاكهة هى البلح والعنب والبطيخ والجوافة والرمان والبرتقال واليوسفى .

وتصنع العجوة من الرطب وتخزن لتستخدم طول العام .

وتجفف اصناف البلح الجافة فى اسوان وتظل جافة الى ان تؤكل

وجبات الطعام :

يصحو افراد الاسرة كلهم مبكرين قبل شروق الشمس ويتنالون وجبة الافطار وهى وجبة خفيفة ولذا تسمى « تغيير الريق » وتكون من الخبز والملح الناعم او الخشن وقد يكون الملح مخلوطا بالشطة او الفلفل الاسود او الكمون . وقد يكون الافطار عيشا ومعه دقة من السمسم . وفى حالات نادرة يؤكل البيض واذا كان اللبن متوافرا فى المنزل فقد يكون ضمن الافطار أحد منتجات اللبن وقد يكون الافطار فولا مدمسا او عدسا .

أما وجبة الغداء فتحملها ربة الدار الى الحقل ظهرا او ترسل مع احد الأبناء وغالبا تكون خبزا وجبنا او ترسل طاجن من المش ومعه بعض اصناف المخلل مثل الفلفل او الخيار او قشر البرتقال او قشر البطيخ فاذا وصل طعام الغداء الى الحقل حاولوا ان يضيفوا اليه ما يمكن اضافته مما هو مزروع بالحقل مثل البصل والطماطم او السريس او الجعضيض .

اما العشاء فهو الوجبة الرئيسية الهامة وتحضر الزوجة طعام العشاء إبتداء من العصر بأن تقوم بطهى طعام بكمية تكفى الاسرة . فاذا كان لديها خضر فإنها تقوم بطهيها دون لحم وتسمى هذه الوجبة « فويرة » وهى كل خضار طهى دون لحم . على ان كل فترة من الزمن حسب حالة الاسرة فان ربة الدار تذبح فرخة اوبطة او وزة من تربيتها قد يحدث هذا مرة فى الاسبوع او فى المناسبات فقط اما اللحم فهو يشترى على فترات متباعدة .

ومع بساطة قائمة طعام الفلاح وقلة تعداد الاصناف فان ربة الدار تحاول ان تنوع هذه القائمة وتغير فى اسلوب الطهى .

واشهى الطعام هو ما يتم تسويته فى الفرن وخاصة فى الطواجن وتحاول بين الحين والحين عمل فطائر معجونة باللبن او اللبن والقشدة وقد تكون محشية بالعجوة . على ان افضل الفطائر هو الفطير المشلتت الذى يصنع من الدقيق والسمن وقد اشتهر بصنع هذا الفطير كل قرى الريف المصرى دون استثناء .

وقد تعمل الزوجة ايضا الرقاق وتخزنه ليفت مع اللبن ويؤكل فى الصباح او يفت مع المرق . او تصنع منه صوانى رقاق تسوى فى الفرن .

هذه الاطعمة وتلك الوجبات مع بساطتها ورخصها وقلة انواعها حفظت للفلاح المصرى صحته وحياته لانها فى مجموعها تكمل احتياجات الجسم اذ تجمع الخبز ومنتجات الالبان والخضر سواء كانت طازجة او مطبوخة والفول والعدس والفاكهة وان كانت قليلة واحيانا الاسماك التى يصطادها بنفسه من الترعه او المصرف او البركة .

وظل طعام الفلاح على هذا النمط قرونا طويلة وهذا الوصف هو للحياة فى الريف منذ القدم الى منتصف القرن العشرين اذ حدث بعد ذلك تطور نسبى فى الطعام وعاداته واسلوبة وهو تطور الى الافضل والاحسن وان لم يصل الى المستوى الواجب والمطلوب .

لقد عاش الماضى كله لايحصل على الكفاية . . ولكنه عاش على حد الكفاف فان هبط عن ذلك ظهرت عليه عوارض سوء التغذية وما كان اكثر ظهورها بداية بالاطفال كما تظهر على الكبار وعلى الآباء والأمهات وخاصة المرضعات .

وأمراض سوء التغذية قد يكون علاجها ميسورا فى اول ظهورها بالدواء وتحسين الغذاء اما اذا استشرت وأزمنت تضاعفت أعراضها وظهرت آثارها الجانبية ويستعصى العلاج بالغذاء والدواء وكل الوسائل وتكون القاضية والنهاية المحتومة .

وفى المرحلة التى تمر بها القرية اليوم هناك تحسن الى حد ما فى نوع الغذاء وكميته ولكنه لم يصل الى مستوى الكفاية ولن يبلغها الا بتحديث اساليب الزراعة مع المزيد من الجهد المثمر

على ان الخطر الداهم القادم ويواجهنا بخطى حثيثة هى تلك الزيادة السكانية التى تزيد فى معدلها على معدل الزيادة فى انتاج الطعام ولايتصدى احد لعلاج هذه المشكلة الاولى لا الافراد ولا الجماعات ولاالحكومات وإن بقى الحال على ما هو عليه فان الطامة الكبرى ستحل بعد سنوات قليلة جدا وتحدث مجاعة يستعصى التغلب عليها .

لقد كانت مجاعات الماضى تزول بزوال الاساليب فاذا شح ماء النيل يعود الخير مع فيضانه ثانيا واذا تلفت الزراعة بسبب آفة مثل الجراد فان الزرع يعطى بركاته بعد زوال الآفة واذا حدث وباء يصيب الناس فانه بمجرد ان يعافى الناس يعودون الى العمل المنتج واذا كانت هناك حروب تلحق الاذى والضرر بالحقول والقرى فانه بمجرد انتهاء الحرب تعود الحياة والنشاط الى القرى والحقول .

ولكن هذا الخطر القادم الذى بدأت تباشيره ولاحت نذره كيف يكون التغلب عليه والرقعة الزراعية زيادتها لها حدود تقف عندها والزيادة الراسية فى الانتاج لها حدودها أيضا وليست مطلقة الى مالا نهاية ولكن الزيادة السكانية ان استمرت عشوائية فلن تقف ولن يكون لها علاج .

مياه الشرب

المصدر الرئيسى لمياه الشرب هو النيل . وفى حالات قليلة تستخدم المياه الجوفية بواسطة طلمبات يدوية تمتص المياه من اعماق بسيطة لاتتجاوز العشرة امتار او من ابار تحفر لهذا الغرض .

ومياه النيل كانت محملة بالطمى الى ان انشىء السد العالى فترسب الطمى فى بحيرة السد واصبح الماء يصل رائقا .

ويحمل الماء من النيل والترع فى جرار من الفخار تحملها النساء على رؤوسهن فوق وسادة صغيرة من القماش ـ حواية ـ وتحفظ المرأة توازن الجرة فوق راسها بمهارة وتسير بها فى رشاقة دون ان تسندها بيدها .

ومن المناظر المالوفة ان تسير الفتيات فى سرب او مجموعة وراء بعضهن حاملات الجرار من الترع الى منازلهن .

وقد تحمل الجرار على الدواب اذا كانت الترع بعيدة .

وتترك المياه فى الجرة الى ان يترسب الطمى فى قاعها ويستخدم الماء الرائق من الطمى ولكنه يظل فى هذه الحالة ملوثا ببعض الشوائب وبديدان البلهارسيا .

وقد يوضع الماء فى الزير ويؤخذ الماء الآتى من تحته رائقا خاليا من الطمى والشوائب والبلهارسيا .

ولكن فى النصف الثانى من القرن العشرين اقيمت محطات كبيرة لرفع المياه من النيل او فروعه او من آبار ارتوازية ثم تنقى وتعالج كيماويا وتضخ فى مواسير الى ان تصل القرية ومنازلها .

واصبح كل الريف الان يشرب ويستخدم مياها نقية صحية خالية من الشوائب ومن البلهارسيا

ولاشك أن توصيل المياه النقية للقرى ومنازلها من اكبر الخدمات التى ادتها الدولة للفلاح .

التقيسم الاداري للبلاد المصرية

منذ فجر التاريخ ومصر تنقسم الى قسمين جغرافيين . . القسم الشمالى ويسمى الوجه البحرى او الريف او اسفل الارض او مصر السفلى ويقع جميعه شمال العاصمة ـ القاهرة ـ التى كانت تسمى منف او الفسطاط او مصر .

والقسم الجنوبى ويسمى الوجه القبلى او الصعيد او أعلى الارض او مصر العليا وتشمل كل ما يقع جنوب العاصمة الى اخر الحدود المصرية جنوبا .

وكان الملك مينا اول من وحد الوجهين وجعل منهما وطنا واحدا هو مصر .

وكل قسم منهما كان ينقسم الى وحدات اصغر الغرض منها سهولة حكم الاقليم وحمايته واحكام جباية الضرائب وتنظيم الخدمات العامة وضمان وصولها الى كل موقع .

وقد تعرض هذا التقسيم الى تغييرات مستمرة تبعا للمراحل التاريخية .

فى عهد الفراعنة كان عدد السكان يتراوح من ٦ الى ١٢ مليونا وكانت مصر مقسمة الى قسمين كبيرين هما الوجه البحرى والصعيد وكان فى الوجه البحرى عشرون قسما وفى الوجه القبلى ٢٢ قسما وعدد القرى فى الوجهين ٢٥٠٠ قرية .

اما أيام البطالسة كان عدد السكان يترواح من ٧ ـ ١٠ ملايين وكانت مصر مقسمة فى عهدهم الى ثلاثه اقسام كبيرة هى الوجه البحرى ومصر الوسطى ومصر العليا .

وقسمت هذه الأقسام الى وحدات ادارية تسمى كل منها « نوم » وهى كلمة يونانية معناها القسم وهى وحدة اداريه اذا قورنت بما هو قائم اليوم فانها اصغر من مساحة المحافظة واكبر من مساحة المركز .

وكان يشرف على ادارة النوم حاكم يعرف باسم « النومارك » يجمع الضرائب ويشرف على الادارة ويعاونه قضاة وموظفون وكتبة .

وكان بالوجه البحرى ٣٣ قسما اداريا « نوم » ومصر الوسطى بها سبعه نوم ومصر العليا ١٤ نوما اى ان مجموع الاقسام كان ٥٤ قسما .

ولما جاء الرومان ظل التقسيم على ما هو عليه من حيث الاسم وجعلوا جملة الاقسام ٣٦ قسما « نوم »

وكان لكل نوم إله وكهان يقيمون الشعائر الدينية فى الحفلات الرسمية فكان أهالى منديس وهى بلد قديم غرب النيل بالقرب من منفلوط يقدسون التيس واهل الفيوم يقدسوم التمساح واهل الطيبة يقدسون الكبش وكثيرا ما كانت تنشب الحروب والخلافات بين اهل كل نوم واخر بسبب هذه المعبودات المختلفة .

ولما جاء العرب اطلقوا كلمة « كورة » على النوم وكانت الكورة تكبر وتصغر حسب ظروف المكان والزمان وتفاوت الحضارة والعمران ورغبة الحكومة القائمة بالامر او حكام الاقاليم فى انشاء او إلغاء كل أو بعض الاقسام الادارية السياسية لأغراض خاصة او عامة .

وفى بداية الحكم العربى قسمت مصر الى سبعة اقسام كبيرة سمى كل منها « اقليم » وقسمت الاقاليم الى كور وبلغ عددها ٨٠ كورة .

وفى القرن الثالث الهجرى قسم الوجه البحرى الى ثلاثة اقاليم كبرى هى الحوف الشرقى وعاصمتة بلبيس وحوف بطن الريف ثم الحوف الغربى وعاصمته الاسكندرية .

وظلت كذلك الى حكم الخليفة الفاطمى المنتصر لدين الله الذى قسم القطر الى ٢٢ كورة كبيرة تشمل الثمانين كورة الصغيرة وقد ظل هذا التقسيم الاساس لكل التقسيمات الادارية الى الان اى نحو الف من السنين .

وعندما جاء عهد المماليك اطلقوا اسم « عمل » بدلا من كورة .

ويرادف الكورة فى عصرنا الحاضر كلمة مركز وهى كلمة قديمة مستعملة من القرن التاسع الهجرى اى منذ نحو خمسة قرون بمعنى دار الشرطة او نقطة البوليس كما هو الحال الان .

ويرادف كلمة العمل المديرية ثم المحافظة الان .

وكانت كل كورة او عمل تشمل عددا من القرى وكل قرية تعتبر وحدة إدارية ومالية معا .

فلما جاء عهد المماليك كان عدد السكان يتراوح بين ٦ إلى ١٦ مليونا وفى سنه ٧١٥ هـ أصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوما قرر فيه أن يفك زمام القطر المصرى ويسمى هذا المرسوم بالروك الناصرى وكلمة الروك قبطية معناها قياس الأرض بالفدان وتثمينها أى تقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها وقد ظل اصطلاح « الروك » يستعمل قرونا متعاقبه وفى هذا المرسوم تقرر تسمية الكورة « عملا » وجعل جملة الأعمال ٢١ عملا بدلا من ٢٤ عملا . وكان هذا التقسيم الجغرافى هو الذى استقر عليه الحال طول حكم دولتى المماليك .

ولما حكم العثمانيون مصر أعيد فك الزمام للقطر كله وهو الذى عرفت دفاتره باسم الترابيع وغيرت كلمة أعمال وكور باسم « ولاية » وقسم القطر كله الى ١٣ ولاية وتشمل المناطق الزراعية ، أما المدن الساحلية الكبيرة فقد جعلت محافظات وعددها ست وهى الاسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير .

وكان يرأس الولايه حاكم يسمى الكاشف ويراس المحافظه محافظ . أما القاهرد فحان يرأسها شيخ البلد .

ولما تولى محمد على حكم مصر عام ١٨٠٥ كانت مصر لاتتجاوز الثلاثة ملايين من الأنفس ، أمر بتقسيم مصر الى أخطاط يشمل كل خط منها عددا من القرى وعلى رأس الخط موظف يسمى حاكم الخط .

كما أمر بإبطال اسم ولايه وان تستبدل بها كلمة مأموريه ولما رأى أن اسم مأموريه يدل فى معناه على أنه أصغر من الولاية أصدر أمرا بتغيير كلمة مأموريه إلى مديرية وجعل المديريات ١٤ مديرية يرأس كل منها مدير .

وبعد قيام النظام الجمهورى فى مصر سميت المديريات عام ١٩٦١ محافظات ويرأس كلا منها محافظ . وكانت ٢٥ محافظة ثم قسمت سيناء الى محافظتين عام ١٩٧٩ بعد جلاء الاسرائيليين عنها وأصبح هناك سيناء الشمالية وسيناء الجنوبية ، وبذلك أصبح عدد المحافظات ٢٦ محافظة .

أسماء القرى

للقرية المصرية أسماء كثيرة منها مالايزال على إسمه الأصلى من أيام الفراعنة أو بالاسم الفرعونى محرفا بعض الشىء .

والبعض لايزال يحمل أسماء رومانية أو يونانية أو قبطية . وبعد الفتح الإسلامى طرأت تغييرات كثيرة على اسماء القرى .

وليس لتسمية القرى قاعدة ثابتة وفى كثير من الحالات نجد الاسم مركبا من اسمين وتسبق الاسم احيانا كلمات تنتشر فى كل من الوجهين القبلى والبحرى وتصبح جزءا لايتجزأ من اسم القريه مثل :

كفر ـ نجع ـ منية ـ ميت ـ أولاد ـ أبو ـ أم ـ بنى ـ تل ـ نزلة ـ كوم ـ زاوية ـ حوض ـ منشاة ـ منشية ـ قصر ـ حصة ـ غراقة .... الخ

وقد تسمى القرية باسم موقع جغرافى تقوم عليه أو تجاوره على ان كثيرا منها يسمى باسم الشخص أو العائلة أو القبيلة التى أنشأت القرية .

وقد تسمى القرية باسم موقع جغرافى تقوم عليه أو تجاوره على ان كثيرا منها يسمى باسم الشخص أو العائلة أو القبيلة التى أنشأت القرية .

وقد يطلق على القرية اسم لون من الألوان مثل البيضاء ـ والخضرة ـ والحمرة ـ والزرقاء ـ وسواده .

وقد يطلق إسم شجرة مثل .. الجميزة .. السنطة .. زيتونة .. نخيلة واحيانا تطلق أسماء شاذة مثل كوم التيس والزربية وميت جحيش وبنى مجنون والمسخوطة وقد استبدلت أسماؤها بأسماء جديدة ومن أسماء القرى التى بقيت على أصلها الفرعونى دون أى تحريف :

شبرا .... ومعناها كفر أو حقل
شبراخيت ... ومعناها الكفر الشمالى
شبراريس ... ومعناها الكفر الجنوبى
شبرامنت ... ومعناها كفر الإلاه مونت
بولاق الدكرور ... ومعناها جزيرة الضفادع
الحورانية ... بالقرب من الجيزة نسبة للإلاه حور
طهطا ... ومعناها معبر الأرض
قوص ... ومعناها الجبانة

وكذلك طره وطوخ وبسيون وصهرجت ودفره وشطانوف وهناك أسماء كثيرة كانت فرعونية ثم صرفت مثل الزقازيق كانت قرية اسمها الفرعونى جقاجيق تقع بجوار العاصمه بوبسطه ثم صرف الاسم ايام اليونان الى زقازيق ثم اضيف الى الاسم أل التعريف العربيه بعد الفتح الاسلامى وأبوتيج اسمها اليونانى ابو تيكى ومعناها المخزن وإسنا أصلها سنى ومعناها السوق .

والنوبه أصلها نوب ومعناها الذهب
والأشمونين إسم قبطى دون تحريف

عدد القرى

كان عدد القرى ايام الفراعنة نحو ٢٥٠٠ قرية منها حوالى ألف قرية كبيرة وأيام عمرو بن العاص أجرى تعدادا فكان عدد القرى عشرة آلاف واعتبرت قرية كل مازاد عدد سكانها على خمسمائة نسمة وأيام المماليك كان عددها ٢٢٨٣ قرية وأيام حكم سعيد كان ٣٦٣٩ قرية وعام ١٩٣٧ كان ٤١٨٨ قرية وفى عام ١٩٨٠ أصبح عددها ٤٣٢٠ وعدد التوابع والعزب ١٥٢٥٠ تقريبا ولم يوضع تعريف أو توصيف للقرية منذ نشأت على الأرض المصرية فالقرية هى مجموعة مساكن الفلاحين الذين ترتبط حرفهم واعمالهم بالزراعه بطريق مباشر أو غير مباشر ، وهى تجمع سكانى تكتظ وتتجاور فيه المنازل حتى تصبح ملتصقة ببعضها وذلك فى الغالبية العظمى من القرى .

والمفروض ان اسم قرية يطلق على تجمع سكانى لايقل عن مائة منزل وقد يصل الى الألف أو بضع آلاف فإن نقص عن هذا سمى « نجع » فان قل عن ذلك سمى « عزبة » والعزبة عادة تكون ملكا لفرد أو عائلة وقد تكون منزلا واحدا .

وكل أرض زراعية تنسب إلى القرية التى تقع الأرض فى زمامها وفى العصور الماضية القريبة كانت هناك بعض اراض لا تقع فى زمام قرى لوجودها متباعدة ولا يوجد على هذه الأراضى مبان فكانوا يطلقون عليها عند فك الزمام اصطلاح « غيط من غير حيط » أما الآن فإنه مع الزيادة المستمرة فى السكان وزيادة فى العمران لم تعد هناك اراضى يمكن ان توصف بأنها غيط من غير حيط ، وربما يأتى اليوم الذى يقال فيه إن هناك « حيط من غير غيط » إذا استمر التوسع السكانى على حساب الأرض الخضراء .

صور من الحياة الاجتماعية

نظام الحكم فى القرية

فى العهود الفرعونية كان حاكم القرية يسمى شيخ البلد وظلت هذه التسمية قائمة الى أواخر حكم محمد على حينها اصدر قرارا عام ١٢٦٠ هـ - ١٨٤٤ م بتسمية حاكم القرية عمدة .

والعمدة هو الحاكم المقيم الذى تعينه الحكومة أو يختار بالانتخاب المباشر وكان لا يتقاضى أجرا .

وكان العمدة فى البداية يعين مدى الحياة ويظل فى عمله الآ إذا استقال أو فصل .

وكان اختيار العمدة يخضع لقواعد واعتبارات ومقاييس منها أن يكون مقيما إقامة كاملة فى القرية ويمتلك أراضى زراعية لا تقل عن عشرة أفدنة وأن يحسن القراءة والكتابة ويفضل أن يكون من بين أفراد أكبر أسر القرية من حيث العدد أو النفوذ وأن يكون حسن السمعة محبوبا من الجميع أو من الغالبية .

ويمر ترشيح واختيار العمدة على سلسلة من اللجان الحكومية تبحث وتدقق قبل اتخاذ قرار التعيين فإذا وافقت هذه اللجان يعرض الأمر على حاكم الإقليم - المدير - الذى يصدر قرارا مكتوبا ويقوم العمدة الجديد بتأدية القسم أمام المدير بأن يؤدى عمله بالذمة والأمانة وأن يكون مخلصا لوطنه وللنظام الحاكم .

وفى العادة يكون للعمدة مقر يباشر فيه أعماله خلاف منزله يسمى الدوار أو المنظرة ويتسع هذا المكان لجلوس العمدة واستقبال الناس من أهل القرية والضيوف والقادمين لأعمال رسمية من المركز مثل رجال الشرطة والصراف وموظفى الزراعة والرى والصحة وغيرهم .

وفى هذا الدوار تخصص غرفة للتليفون تسمى غرفة التليفون وأخرى للبنادق التى يستعملها الخفراء وتسمى غرفة السلاح أو بالتعبير التركى السلاحليك .

وإذا كان العمدة شخصية قيادية صالحة فإنه يكون دائما أبدا وطول مدة عمله مصدرا للخير والطمأنينة لأهل قريته ، يصلح مابين المتخاصمين ويحكم دون تميز بين أصحاب القضايا والمنازعات يواسى المصاب ويزور المريض ويعين المحتاج ويساعد كل من يقصده فى قضاء مصلحته .

وهو ممثل الحكومة ورجلها وعينها المبصرة فهو المسئول أولا عن الأمن وعن مساعدة رجال الشرطة فى القبض على الخارجين على القانون والمتهربين من الأحكام القضائية وهو المسئول عن تقديم الشباب من مواليد القرى الى الخدمة العسكرية عند بلوغهم سن التجنيد . ومن مسئولياته أيضا تسجيل كل المواليد فى دفاتر معدة لذلك والابلاغ عن وجود أمراض معدية وخاصة الوبائية منها . وهو المسئول عن إطفاء الحرائق ومن أهم مسئولياته مساعدة الصراف فى تحصيل الضرائب فيحضر الصراف الى دوار العمدة ويجلس اليوم كله وقد يقيم أياما متصلة يحضر له الخفراء كل من يستحق عليه دفع ضريبة .

وكان من السلطات المخولة للعمدة أن يحكم بالسجن لمدة ٢٤ ساعة وألغى ذلك فى مطلع القرن العشرين .

ويقوم العمدة بمساعدة المشايخ وعامل التليفون بإعداد سجلات الناخبين وهم الذين لهم حق التصويت فى الانتخابات على مختلف أنواعها وتنظم السجلات بأرقام مسلسلة وحسب الحروف الأبجدية .

فالعمدة هو رجل القرية وكبيرها الذى تسمع كلمته ويرضى الناس بحكمه ويلجأون إليه فى السراء والضراء . وهو رجل الحكومة الملتزم بتنفيذ أوامرها وتعليماتها والحفاظ أولا على أمن القرية وأهلها .

أما إذا كان العمدة ضعيف الشخصية أو يخضع لخلافات عائلية أو قبلية أو ممن يقبلون الهدايا أو الرشوة أو يتحيز للبعض على حساب البعض الآخر فإن هذا كله يعكس على الحياة فى القرية ويكون العمدة السىء نقمة على القرية وأهلها .

ولهذا عدلت القوانين وجعل العمدة بالانتخاب ولفترة زمنية محدودة حتى لا تتحمله القرية مدى حياته إن كان سيئا أو ضعيفا .

وفى بعض القرى التى تشتد فيها الخلافات والصراعات العائلية أقامت فيها الحكومة نقطة شرطة وأوقفت نظام العمدة لتهدئة الصراعات العائلية والقبلية .

على أن نظام اختيار العمدة بالانتخاب ولفترة محدودة هو نظام مناسب للقرية المصرية فالعمدة وهو من أبناء القرية يعرف أهل بلده وطبائعهم ويعرف سلوك كل فرد ويعرف الخارجين على القانون الذين يخلون بالأمن .

يعرف الجميع لأنهم أهله وناسه ويتصرف معهم من هذا المنطلق ولهذا هو أقدر على حل مشاكل القرية من الشرطة .

المشايخ

ويساعد العمدة فى حكم القرية مجموعة من المشايخ يمثل كل واحد منهم أحد أحياء القرية السكنية .

ويختار من بين هؤلاء المشايخ واحد ينوب عن العمدة أثناء غيابه ويسمى نائب العمدة .

ويجتمع العمدة مع المشايخ دائما وبصفة مستمرة يتناقشون فى شئون القرى وأحوالها .

ويعين الشيخ أيضا بنفس اسلوب اختيار العمدة ويصدر بتعيينه قرار من مدير الأمن .

وكان يشترط فى الشيخ الا تقل أملاكه عن خمسة أفدنة زراعية .

ولم يكن العمد والمشايخ يتقاضون أجرا ، كانوا ينفقون على مظاهر الوظيفة من دخلهم الخاص ، فدوار العمدة يقدم الضيافة لكل من يحضر على نفقته الخاصة ولكن بعد منتصف القرن العشرين رفع من شرط التعيين تملك العشرة أفدنة للعمدة والخمسة للشيخ ومقابل هذا قررت الحكومة مكافأة للعمدة خمسة جنيهات شهرية ثم رفعت الى عشرة جنيهات .

الخفراء

هم رجال الأمن بالقرية المسئولون عن حراستها ليلا وتنفيذ تعليمات الحكومة نهارا ، ويعين الخفراء بمرتب شهرى ثابت ولهم رئيس من بينهم يسمى شيخ الخفر . وهو شخص له اعتباره ومكانته وربما يلى العمدة فى النفوذ ويتميز شيخ الخفر قليلا عن الخفراء .

للخفراء وشيخهم لبس رسمى عبارة عن بدلة سوداء سروالها قصير الى ما تحت الركبة والجاكت مقفل وعلى الرأس لبدة سوداء ، كالطربوش طويلة مرتفعة وعليها من الأمام شريط ملون عريض عليه قطعة نحاسية مستديرة عليها رقم الخفير ، والشريط الذى يوضع على مقدمة اللبدة يختلف لونه عند شيخ الخفر فهو بلون مخالف للون شريط لبدة الخفراء .

ولكل خفير بندقية وهو مسئول عن نظافتها ويصرف له عدد من الطلقات النارية عهدة تجدد كلما استهلك عدد منها .

وعند تعيين الخفراء يأخذون دورة تدريبية لمدة اربعين يوما يتدربون فيها على استخدام البندقية وتدرس لهم واجباتهم .

وينظم شيخ الخفر بموافقة العمدة توزيع مناطق الخفراء فكل خفير مسئول عن ناحية من القرية تسمى الدرك والمفروض ان يتجول طول الليل فى دركه ولا تأخذه سنة من النوم ، وحتى لا ينام الخفراء كان ينبه عليهم أحيانا أن ينادى كل منهم بأعلى صوته ويذكر رقما فيقول أولهم .. واحد .. ويرد التالى .. إثنين .. والذى بعده ... ثلاثة .. حتى يتأكد شيخ الخفر وأهل البلد أن كل الخفراء متيقظون لا نائم فيهم فإذا أصبح الصباح وضعوا سلاحهم فى غرفة السلاح حيث يربط بسلسلة من الحديد ـ جنزير ـ ويقفل عليها وتظل طول النهار فى حراسة خفير عليه نوبة النهار .

وهناك يوم فى الأسبوع يتجمع فيه خفراء جملة قرى فى مكان فسيح ويحضر لهم عريف (شاويش)أو أكثر من المركز ويقومون بتدريبات رياضية ويشرح لهم الشاويش التعليمات الجديدة ويذكرهم باللوائح والقوانين التى تتصل بواجباتهم ويسمى هذا الاجتماع طابور الخفر ، ليذكر الخفر بالنظام والأمن وما ينفع ومالا ينفع كأن يطلب من الخفر أن يذكر اسماء الطيور الممنوع صيدها طبقاً للقانون فيذكر أسماء طيور غير معروفة للفلاحين ولا للمسئولين عن الزراعة من مهندسين زرراعيين وأطباء بيطريين .. أسماء موجودة فى القاموس وحده .

وإذا وقعت حوادث اخلال بالأمن كالسرقة بالإكراه أو كسر الأبواب أو نقب الجدران فان الخفير الذى حدث ذلك فى دركه يوقع عليه عقوبات صارمة كانت تصل إلى الجلد أو السجن أو كلاهما .

ويحمل الخفير صفارة ليستغيث بها عند الضرورة .

عامل التليفون

بعد أن يعين العمدة يركب فى دواره تليفون يتصل بالمركز . وللتليفون غرفة خاصة ويعين له موظف يسمى عامل التليفون وهو موظف له أهميته الكبيرة فى القرية وهو فى الحقيقة سكرتير خاص للعمدة ولجهاز الحكم فى القرية . فهو يسجل أولا

الاشارات الصادرة والواردة بين المركز والرى والزراعة وأجهزة الحكومة كلها وبين القرية . وهو المسئول عن تسجيل المواليد والوفيات فى سجلات غير قابلة للتعديل أو الشطب والكشط . وهوالذى يعد كشوف الشباب المطلوب للتجنيد عند بلوغ السن القانونى . وعنده جداول الانتخابات يسجل فيها اسماء من يحق لهم التصويت فى الانتخابات على مختلف أنواعها . وهو الذى يكتب للناس شكاواهم ومطالبهم وبديهى أنه يكون على قدر من الثقافة قد تزيد على ثقافة العمدة والمشايخ والخفراء .

الصراف

وهو جابى الضرائب ، ومهما كانت شخصيته وسلوكه الطيب فإن جابى الضرائب غير محبوب وخاصة بالنسبة للفلاح لطول ماعاناه من الضرائب وتحصيلها .

المأذون

ويسمى مأذون الشرع وهو الذى يسجل عقود الزواج والطلاق وعادة يكون من رجال الدين أو ممن حصل على قدر من الثقافة الدينية . ولديه سجلات لكل من الزواج والطلاق ويحرر القسائم ويتقاضى الرسوم التى تحددها الدولة ويأخذ زيادة عنها لنفسه مبالغ أخرى على قدر حال العروسين .

ويعطى لكل من العروسين قسيمة ويسلم ثالثة للأجهزة الحكومية المختصة ويحتفظ فى دفتره بصورة أو صور أخرى .

ويحاول المأذون فى حالات طلب الطلاق ان يوفق ويصلح بين الطرفين فإن لم يستطع. فإنه ينفذ رغبة الطلاق ويحصل على رسم ويعطى لكل طرف قسيمة أيضاً .

دلال المساحة

وهو شخص من أهل القرية يعرف الأعمال المساحية وهو ليس موظفاً ولكن العمدة يستعين به فى حالة وجود نزاع على حدود ارض زراعية أو لتقسيم ارض بين ورثة أو حصر ارض زراعية كطلب الأجهزة الحكومية .

وعادة يقوم دلال المساحة بعملية أخرى هى القبانة فيكون لديه ميزان (سبية) يزن بها الحاصلات الزراعية مثل القطن والحبوب وغيرها .

ويتقاضى دلال المسحة والقبانى اجورهم ممن كلفهم بالعمل ويكون ذلك بالاتفاق وعادة يكون الأجر متعارفا عليه بين أهل القرية .

حلاق الصحة

قبل أن تتمكن الدولة من تعميم الخدمات الصحية بواسطة الأطباء والوحدات الصحية كانت تكلف أحد الحلاقين بالقرية بالقيام ببعض الأعمال الصحية مثل التطعيم ضد الجدرى أو عمليات الختان للأطفال . وكان مكلفا بالتوقيع على شهادات الميلاد وبالتبليغ عن الوفيات وعن ظهور امراض معدية مثل الحميات والأوبئة وقد انتهت هذه المهمة الآن .

الداية (القابلة)

وهى السيدة التى تقوم بالمساعدة فى عمليات الولادة والإبلاغ عنها والتوقيع على شهادة الميلاد أو ختمها بخاتم يحمل إسمها .

وقد قل وجود الدايات الآن بعد انتشار الخدمات الطبية التى تقدمها الدولة على مستوى القرى .

المنادى

يستخدم العمدة أحد أبناء القرية ممن وهبوا حنجرة قوية ليخطر أهل البلد بالتعليمات أو الأخبار الجديدة وهو ليس موظفاً ولايتقاضى أجرا ولكن يتطوع لتنفيذ أوامر العمدة .

يدور هذا الرجل فى شوارع القرية وحواريها مناديا بأعلى صوته ليخبرهم بأمر أو خبر جديد مثل :

« ياأهل البلد . . ياسكان البلد . . إسمعوا الأمر والتنبيه . . جت إشارة من المركز تقول إنه جت إشارة من المديرية تقول إنه جاءت إشارة من مصر المحروسة إنهم شافوا الهلال ويكره أول رمضان . . تصبحوا صايمين وكل سنة وانتم بخير والحاضر يعلم الغائب » .

وقد اختفت هذه الصورة نهائيا بعد تقدم وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية وظهور الاذاعة والتليفزيون ووصولها الى كل موقع فى القرى والحقول والصحارى ووجود مكبرات الصوت فى المساجد واماكن العبادة ويمكن اذاعة التعليمات والاخبار الهامة بواسطتها .

الأمن

من أكبر مشاكل القرية وأهلها استتباب الأمن فإنه اذا اختل تصبح عيشة الناس كلها وهما ولذا كان موضوع الأمن والحفاظ عليه يأخذ من تفكيرهم والتخطيط له جهدا كبيرا . بناء المنازل داخل القرية وشوارعها وطرقاتها بحيث تكون متراصه ملتصقة ليحمى بعضها بعضا ، والنوافذ مرتفعة أو لاتكون هناك نوافذ على الشوارع اكتفاء بان بكل دار صحن مكشوف نحو السماء تدخل منه الشمس والهواء واذا وجدت نوافذ خارجية يوضع عليها قضبان من الحديد طولية وعرضية ، والباب الرئيسى هو غالبا المنفذ الوحيد الى الخارج يصنع من خشب قوى واقفال كانت فى أول هذا القرن وماقبله تصنع من الخشب وتسمى الضبة ولايكتفى بها إذ يوضع من الخلف متاريس من خشب أو حديد أو حجارة ضخمة حتى يصبح فتح الباب متعذرا .

أما العزب الصغيره المتناثرة وسط الحقول فكانت تخطط على شكل مربع وتكون واجهة كل المنازل الى داخل المربع وظهور المنازل الى الحقول وعلى طول اربعة اضلاع المربع لايوجد إلا باب واحد يقفل ليلا فتصبح القرية كلها وكأنها وحدة سكنية واحدة .

ويتولى الحراسة فى القرية والعزب خفراء تعينهم الحكومة وتنظم اسلوب عملهم لكن عندما تسوء حالة الأمن يقوم الفلاحون بعمل نوبات حراسة من انفسهم حيث يتناوبون السهر علاوة على وجود الخفراء . أما المنشآت التى تكون خارج القرية مثل وابور أو ماكينة رفع مياه أو ماكينة طحن غلال أو غيرها فإن اصحابها يعينون لها خفراء على حسابهم بسلاح مرخص من الشرطة علاوة على اسلحة أخرى غير مرخصة تكون أقوى من الاسلحة المرخصة . وفى القرى التى يختل فيها الأمن فإن اكثر الفلاحين يحوزون أسلحة دون ترخيص يخفونها ولايظهرونها إلا عند الضرورة أو الحاجة الى استخدامها . وعلاوة على الاسلحة فان كل منزل به مجموعة من العصى الغليظة والهراوات وقد تغطى نهايتها بالجلد أو المسامير من الحديد أو تكسى الاطراف بالحديد أو الصفيح فيكون لها شأن حاسم فى المعارك .

ويحرص الفلاح على اقتناء الكلاب ، لأن الكلب خفير أمين لايرتشى ولايخون ولاينام الليل وهو فى الدار وأهلها محب لماشية صاحبه وهو دائما ينبه قبل وقوع الخطر فيوقظ النيام حتى يأخذوا حذرهم ويستعدون لما سيطرأ ويحدث .

والجرائم المعتادة فى تاريخ القرية المصرية هى القتل والسرقة والحريق العمد .

القتل

هو أكثر جرائم القرية خطورة وأبقاها اثرا لأن أهل القتيل لن يستقر لهم حال حتى يأخذوا ثأرهم ممن قتل أو كان السبب فى القتل .

وأكبر ماابتليت به القرية فى تاريخها الطويل هو الأخذ بالثأر وخاصة فى قرى الصعيد حيث يأخذ الثأر وضعا صعبا علاجه حتى اليوم .

يبدأ الثأر بجريمة مفردة . . واحد من أسرة ما يتعدى على آخر باغتياله لسبب أو لأسباب وقد تكون الاسباب فى أولها تافهة ما كانت تستحق القتل وكان يكفى لتداركها اللوم أو العتاب أو الشكوى لمسئول ، عمدة أو مكتب شرطة أو كبير عائلة ، ولكن يقع هذا التصرف الشخصى السيء دون تبصر أو تفكير وبحماقة دون حساب أو تقدير لما سيحدث بعد ذلك ، وبعد ذلك يستمر الصراع بيت العائلتين وقد يكبر حتى يصبح بين مجموعات من العائلات تتكتل كل منها فى جانب وقد يشتد الصراع ويلتهب حتى يصبح بين قرى وبعضها .

اذا قتل واحد دفنوه دون أن يتهموا أحداً بقتله مع علمهم الواضح بالقاتل وكيف ومتى قتل . . لكنهم ينكرون ويبدون البساطة المتناهية فى عدم اتهام أحد ، ولايقيمون مأتما للقتيل ولايقبلون فيه العزاء وتظل اسرة القتيل داخل منزله فى حزن مبالغ فيه الى اقصى الحدود سواء كان هذا الحزن صادقا فى مشاعره أو متظهريا فالزوجة لاتستحم الى أن يؤخذ لزوجها بالثأر فيقتل القاتل أو واحد من أسرته . وكل نساء الأسرة تلبس الحداد ويحرمون على أنفسهم طيبات الطعام والشراب ولايستمعون الى موسيقى أو غناء ولايلبون دعوة الى وليمة أو فرح . فاذا تم الأخذ بالثأر انطلقت الزغاريد فى المنزل واقاموا المأتم لقتيلهم وقد يستمر المأتم اسبوعاً وقد يبقى اربعين يوماً ويحدث هذا حتى لو وقع الانتقام بعد اعوام طويلة تصل الى العشرين عاماً .

واذا وقع القتيل ولم يكن له أطفال صغار ولم يكن هناك من أفراد الأسرة من يقوم على أخذ الثأر فإن زوجة القتيل تختار أحد أطفالها وتغرس فيه حب الانتقام من اعداء ابيه وتذكره كل يوم بضرورة الانتقام فاذا اشتد عود الطفل وأصبح نحو السادسة عشرة من عمره اعطته البندقية وقالت له اذهب فانت الآن رجل وخذ بثأر أبيك فيحاول أن يأخذ الثأر من قاتل أبيه والأفضل أن يكون الانتقام من شخص له مقامه ومنزلته فى أسرة الاعداء كأن يكون ذا جاه أو منصب سواء فى القرية أو فى أى مكان فى مصر فيقوم الصبى باغتياله ويهرب أو يقدم نفسه للشرطة فخوراً سعيداً .

وقد حاولت الدولة على مدى سنوات طويلة أن تخفف من فتنة الثأر واستخدمت كل الوسائل . . الدينية والسياسية والقبلية ولكن الثأر لم ينته بعد .

وفى قرى الوجه البحرى يختفى الثأر إلا نادرا ولكن جريمة القتل تقع لأسباب أخرى قد تتصل بالعرض والشرف أو الانتقام من ظلم وقع . . وقد تتم عملية القتل بواسطة مجرم يحترف الإجرام ويأخذ اجرا يساوم ويتفق عليه قبل التنفيذ .

السرقة

تختلف جريمة السرقة فى أسلوبها وأسبابها واخطر السرقات مايتم بواسطة عصابات خارجة على القانون وتحترف السرقة ولكل عصابة زعيم يخطط ويدير ويشرف على التنفيذ ومعه اعوانه يخضعون لأوامره ويسمى أهل القرية العصابة باسم « منصر » وخطر العصابة أو المنصر متوقف على شخصية الزعيم أو شيخ المنصر ، يرسل هذا الشيخ رجاله للسطو المسلح على زرائب المواشى لأخذها جملة أو على القدر الذى يستطيعون أخذه أو يرسلهم لسرقة مخازن قطن أو حبوب أو منزل أحد الأغنياء .

وفى السرقة كما هو فى الأنشطة الأخرى يوجد تخصصات . . فهناك سرقة حظائر الماشية والمخازن والمنازل ، وهناك عصابات أخرى تعمل على قطع الطريق ليلا وتفتش المارة وتأخذ منهم كل ماتستطيع اخذه من نقود فان لم تجد شيئا أخذت الدواب التى يركبوها . والعصابات التى تسرق المنازل قد تكسر الابواب أو تنقب الجدار أو سقف المنزل ليسهل التسلل الى داخل المنزل .

والعصابات عادة منظمة مرتبة مسلحة ويوزع الزعيم الأسلوب على الاعضاء حسبما يتراءى له ويأخذ لنفسه النصيب الاوفى .

وخلاف العصابات توجد سرقات فردية كثيرة بأن يكون اللص غير مرتبط بأحد من اللصوص أو العصابات ومثل هؤلاء اللصوص لهم تخصصهم ايضا فمنهم من يتسلل الى المنزل ليلا ليأخذ مايستطيع أخذه من محتويات المنزل سواء كانت نقوداً أو حليا أو أوانى الطهى أو الملابس أو الحبوب أو الأطعمة وغيرها ومن اللصوص من يتفرغ لسرقة الحقوق ليلا عند نضج المحاصيل وصلاحيتها للتسويق أو للأكل .

مقاومة السرقة

يقاوم الفلاحون أعمال السرقة بطرق مختلفة أولهاماسبق ذكره من طريقة بناء المنازل والقرى والعزب وتعزيز الحراسة فى المناسبات عندما تنضج المحاصيل أو يكون هناك علم أو أخبار عن تحرك بعض العصابات .

وبعد حدوث السرقة قد يلجأون الى الشرطة وقد يخفون أمر السرقة عن الشرطة ويدخلون فى مفاوضات مع اللصوص ويدفعون نقداً إتاوة يفرضها اللصوص لقاء إعادة المسروقات . وقد يلجأون الى الدجالين الذين يدعون معرفة السارق بأى طريقة من طرق الدجل التى كان يصدقها الفلاحون مثل المندل والجان .

وأحيانا إذا كان المسروق ماشية يبحثون عن قصاص الأثر وهو رجل عنده فراسة وخبرة يستطيع أن يتتبع أثر سير الماشية من الحظيرة الى المكان الذى انتهت اليه .

وأحيانا يحتكمون الى رجل (البشعة) وهو عادة من البدو عنده طاسة من الحديد يضعها فى النار حتى يحمر لونها ثم يقدمها للمتهم كى يلمسها بلسانه فان احترق فهو مذنب وان لم يحترق فهو برىء ويفسر البعض هذه الظاهرة بان المذنب يكون لسانه جافا بسبب خوفه اما البرىء فيكون لسانه وفمه رطبا بسبب جريان ريقه بصورة طبيعية فاذا لحس الطاسة لا يتأثر لسانه .

الحرائق : الحرائق التى تقع نتيجة لخطأ غير مقصود لاتدخل باب الجريمة وتأخذ الحرائق احيانا مظهرا من مظاهر الاجرام والانتقام فى القرية عندما يقوم احد الناس بحرق محصول وهو قائم فى الحقل عندما تجف السيقان كما يحدث فى القمح والشعير قبل الحصاد مباشرة او يحرق المحصول بعد نقله الى الجرن وقبل الدراس كمايعمد البعض الى حرق المنازل بالقاء مواد ملتهبة عل اسطح المنزل او على حظيرة الماشية .

وتحرق حقول القمح والشعير باشعال النار فى مواقع متعددة من الحقل فى الجهة التى يهب منها الريح . ويقوم بعض المجرمين بغمس قطة او كلب صغير فى بنزين او اى مادة

بترولية ويأتى بها الى وسط الحقل ويشعل فيها النار فتجرى على غير هدى وتشعل النار فى مواقع مختلفة من الحقل وتقضى عليه كله .

وقد يسرع اهل القرية الى موضع الحريق لاطفاء النار بان يقوموا بحصاد شريط عريض من حقل القمح قبل وصول النار اليه فيكون ذلك فاصلا يحول دون وصول النار الى باقى الحقل . وقد يتفق اهل القرية جميعا على الا يذهب احد الى الحقل والحريق مشتعل حتى لايكون ذلك مصيدة لارتكاب جرائم قتل اشخاص يراد قتلهم ولذا يتركون الحقل للنار تقضى عليه وخسارة فى المال افضل من خسائر الانفس .

وبعد انتهاء النصف الاول من القرن العشرين ومند بداية النصف الثانى طورت الدولة وسائل حفظ الامن ومقاومة الجريمة واصبح الناس آمنين على انفسهم واموالهم بصورة ربما لم يسبق لها مثيل فى قرى مصر . . اختفت العصابات المسلحة واختفى المنصر وشيخ المنصر وقلت السرقات وانتهت تقريبا عصابات قطع الطريق وقلت حوادث الحريق العمد فان حدثت فان هناك وسائل متطورة للإطفاء السريع .

لاشك ان الدولة قد نجحت الى حد كبير فى استتاب الامن والحفاظ عليه والصورة الوحيدة الباقية هى قاعدة الاخذ بالثأر فى قرى الصعيد وخاصة محافظات اسيوط وسوهاج وقنا وان كانت محاولات العلاج مستمرة .

تطورت دوريات الشرطة من دوريات مشاة او خيالة الى سيارات سريعة مجهزة بالاتصال اللاسلكى والاسلحة القوية الفعالة وارتفاع مستوى فهم واداء رجل الشرطة وكان لذلك كله الأثر الفعال يدركه ويقدره كل من عاش فى القرية فى الفترتين .

التعليم فى القرية

الكُتّاب هو مدرسة القرية وكان المدرسة الوحيدة لمرحلة طويلة فى تاريخ القرى وهو تعليم تتولاه جهود فردية فى القرية ولا صلة للحكومة به . هو تعليم بدائى اجتهادى لا منهج ولا اسلوب يقوم بانشاء الكُتّاب فقيه على قدر بسيط من الثقافة ربما حصل على قدر من التعليم الازهرى ولم يكمل تعليمه وربما كانت كل ثقافته من الكُتّاب ـ يحفظ القرآن او جزءا منه ويعلم مبادىء الحساب الاربعة والخط والاملاء ولاشىء غير ذلك .

والمكان متواضع دكان او حجرة بجوار مسجد او غرفة فى منزل الفقيه الذى يطلق عليه اسم « سيدنا » .

ويجلس الاطفال ارضا على جصيروفى ركن من الكُتَّاب يوجد زير وعليه غطاء خشبى فوقه كوز من صفيح لمن يريد ان يشرب من التلاميذ اما سيدنا فله قلة خاصة لا يشرب منها احد سواه . وغالبا لم تكن هناك دورة مياه وينتفع بدورة مياه اقرب مسجد .

ويجلس الفقيه على مكان مرتفع مفروش بالحصير او فراء خروف وبجواره قلة ماء لها غطاء من نحاس ومنشه يهش بها الذباب ومجموعة من الاقلام ودواة حبر واصابع طباشير .

ويستعمل التلميذ اللوح للكتابة عليه وهو اما من الاردواز او الصفيح مسطحه فى حجم الكراسة واللوح الاردواز اسود اللون يحيط بى اطار من خشب ويكتب عليه بأصبع مصنوع من الاردواز وايضا تمسح الكتابة بقطعة من القطن او خرقة من القماش اما اللوح الصفيح فيكتب عليه بالحبر ويمسح بقطعة مبللة من القماش .

والاقلام المستعملة فى الكتابة من عيدان البوص وتبرى وتهذب بمطواة حامية ويصنع سن الكتابة رفيعا او متوسطا او سمكيا .

ويجلس الاولاد كلهم فى غرفة واحدة يذاكرون بصوت مرتفع . ويهز الولد نصفه الاعلى اثناء المذاكرة هزا متواصلا الى الامام والخلف ويهز رأسه يمينا ويسارا .

ولكل واحد منهم منهج منفرد يتابعه سيدنا يوميا والدرس الرئيسى هو حفظ القرآن فيسأل سيدنا التليمذ اين وقف به الحفظ فى الدرس السابق فيخبره التلميذ ويبدأ فى تلاوة ماحفظه ، فاذا اعطاه واجبا جديدا وهو تكليفهبحفظ آيات معدودة من القرآن الكريم ثم يسأله عن واجب الحساب ويصححه له ثم يعطيه درسا جديدا ثم يعطيه درسا فى الاملاء واخر فى الخط وقواعده وطريقة كتابة كل حرف فاذا ما انتهى هذا التلميذ من مراجعة دروسه مع سيدنا عاد الى مكانه فى الفرقة ليذاكر بصوت عال مسموع ويتقدم تليمذا اخر ليأخذ دوره .

ويوقع سيدنا العقوبة على المهملين والمتكاسلين والذين تعودوا الغياب دون سبب والعقاب اما بالتوبيخ او بقرص الاذن او الضرب بالعصا اما الذين يزيد اهمالهم فانه يضربهم بطريقة الفلقة وهى عصا طويلة من جريد النخل او الخشب بها حبل ويلف الحبل حول القدمين ويحمل ولدان من التلاميذ عصا الفلقة كل واحد من طرف ويرفعانها الى اعلا فيقع الطفل على ظهره وقفاه وترتفع قدماه المربوطتان الى اعلا فينزل سيدنا بالعصا ضربا على القدمين والولد يصيح بينما يسكت كل الاولاد فى الفصل ويتفرجون

على مايدور وهم مابين خائف لان يحدث له مثل ذلك لإهماله المذاكرة وما بين شامت فى زميله ومابين مطمئن ان لا تطبق عليه هذه العقوبة لانه مجد مجتهد غير مهمل لدروسه .

فاذا اشتكى لأمه أو أبيه من ضرب سيدنا له قالوا له ان عصا سيدنا من الجنة .

ويبقى الطفل فى الكُتَّاب حينا من الزمن البعض يكتفى انه تعلم مبادىء القراءة والحساب وحفظ بعض سور القرآن والبعض الاخر يداوم حتى يحفظ القرآن كله وهؤلاء يعمل لهم احتفال تشهده القرية كلها ويفرح والدا الطفل واهله فرحا صادقا عميقا واكثر الذين يتمون حفظ القرآن ويصطلح على ذلك بانه ختم القرآن فانهم يسافرون الى القاهرة للالتحاق بالازهر الشريف اقدم الجامعات الاسلامية واعلاها قدرا وشأنا .

ويتقاضى سيدنا اجره اما نقدا او عينا من محاصيل القرية السائدة قمحا او ذرة او أرزا او فولا او عدسا او تمرا وهو بين وقت واخر يطالب الصغار بكمية من البرسيم او التبن لماشيته او كمية من حطب القطن او الذرة لاستعمالها وقودا فى منزله للفرن او الكانون .

ويؤدى الاولاد او بعضا منهم خدمات صغيرة لسيدنا فى منزله او حقله الصغير او دكانه .

ويلبس سيدنا جبة وقفطانا ويضع على الرأس عمامة وهو امر ضرورى والعمامة غالبا مكونة من شال ابيض يلف على طربوش احمر او طاقية بيضاء او ملونة . ويلبس فى رجليه مركوبا وهو حذاء احمر اللون خفيف الوزن .

وعندما يسير يتوكأ على عصا او يحمل شمسية تقيه اشعة الشمس الحارة او تحميه من المطر اذا كان الجو ممطرا وقد يحمل منشه يهش بها الذباب او الناموس .

والى جانب العمل الرئيسى فى الكُتَّاب فان سيدنا له اعمال اخرى فى القرية بعضها بأجر والآخر من غير أجر وهو غالبا يضيف حرفة اخرى الى عمله فى الكُتَّاب مثل الزراعة سواء كانت فى ارض يمكلها او يستأجرها او يكون له دكان تجاره . كما يستفتيه اهل القرية فى امور دينهم فيعطى الفتوى والنصح على قدر علمه وبدون اجر وقد يكون هو نفسه مأذون القرية يتولى كتابة عقود الزواج والطلاق وقد يكون اماما للمسجد او مؤذنا . واذا كان على قدر من الذكاء والمعرفة فانه يساهم فى تقسيم التركات بين الورثة عقب وفاة مورثهم ويحسب لكل وارث نصيبه وحصته من الميراث وقد يكتب الأحجبة والتعاويذ للتداوى من الامراض ولفك السحر او للسحر نفسه .

وقد يقوم بقراءة الرواتب فى المنازل صباحا وقبل ان يبدأ اليوم الدراسى والراتب هو قراءة ماتيسر من القرآن فى اى منزل من منازل القرية يختم بقراءة الفاتحة والترحم على من مات من اهل المنزل وقد يمر بالمنزل يوميا او يوما محددا فى الأسبوع .

وسيدنا يتمتع بقدر كبير من الاحترام من كل اهل القرية ومن الاولاد الذين يتعملون على يديه او ممن سبق لهم ان تعلموا ومن الكبار جميعا رجالا ونساء .

اما الأولاد فلباسهم المعتاد هو الجلباب والبعض حفاة والبعض يلبسون النعال وعلى رؤوسهم الطواقى من القطن او الصوف .

والدراسة طوال العام والأجازات قصيرة فى الاعياد ولمدة بضعة ايام وقبل ان يعلن الفقيه عن بدء الاجازة ومدتها يطلب من التلاميذ هدايا تسمى صروفه فيقدم كل تلميذ شيئا مناسبا مبلغا صغيرا من النقود او عددا من البيض او كمية من الكعك او الفاكهة .

ثم يعلن الشيخ عن الأجازة ومدتها فيعلو صياح الأطفال فرحين مهللين وينطلقون من الكُتّاب جريا فى شوارع القرية وحواريها .

ولقد بدأت الكتاتيب بشكل منتظم وانتشرت فى كل القرى مع نشأة الازهر فهى الروافد التى تغذيه لان الازهر لايقبل فيه الا من اتم حفظ القرآن وعرف مبادىء الحساب .

ومنذ بدأ نظام الكُتّاب فى مصر الى ما يقرب من منتصف القرن العشرين كان وحده المرحلة التعليمية الاولى لكل من تعلم من المصريين وخاصة أبناء القرى واكثر مشاهير مصر سواء من علماء الازهر وشيوخه او من قادة الفكر والاقتصاد والسياسة تعلموا فى الكُتّاب وعلى سبيل المثال لا الحصر كل العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر والإفتاء والقضاء الشرعى والتدريس وعمر مكرم ورفاعه الطهطاوى واحمد عرابى وعلى مبارك ومحمد عبده وسعد زغلول وطلعت حرب ومصطفى المنفلوطى وطه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل ولطفى السيد وغيرهم وغيرهم .

ومع انتشار التعليم الحكومى وانشاء المدارس الابتدائية والأعدادية وتطبيق نظام الالزام فى التعليم بالنسبة للقرى والمدن بدأ نظام الكتاب يختفى وإن بقيت اعداد قليلة فى بعض القرى .

البلهارسيا

منذ انتهاء مرحلة الرعى وبعد ان عرف الفلاح الزراعة واستقر به المقام فى القرية واصبحت الزراعة هى الحرفة الرئيسية لازم سكان القرى مرض البول الدموى الذى عرف حديثا باسم البلهارسيا وانتشر فى كل القرى حتى زادت نسبة الإصابة به على ٩٠ ٪ من السكان . وهو مرض خطير يسبب امراضا قد تكون القاضية على الحياة .

يصاب الفرد منذ الطفولة بهذا المرض ويلازمه طول الحياة الا اذا عولج منه ولم يعرف له علاج الا حديثا .

إن البلهارسيا تستنزف الدم وتسلب القوى وتمسح الجمال وتصيب الذهن بالخمول والجسد بالكسل وتضعف شهية الاكل والقدرة على العمل والانتاج ولذا فهو معول هدم يعوق الرخاء الاقتصادى ويقوض الثروة القومية اذ يسبب خسائر سنوية تقدر بمئات الملايين من الجنيهات .

وقد اكتشف ديدان البلهارسيا ووصفها وعرفها استاذ المانى كان يعمل طبيبا بالقصر العينى اسمه بلهارز فاشتهر المرض فيما بعد باسم « البلهارسيا »

للبلهارسيا دورة ثابتة وهى من المريض الى مياه الترع والمصارف والبرك الى قوقع صغير يعيش فى المياه الراكدة ثم الى جلد الانسان وتقتات القواقع على الاخشاب الموجودة بالترع والمصارف والبرك .

تهاجم ديدان البلهارسيا جسم الانسان خفية وهو يخوض فى الماء للاستحمام او لسقى الارض او للوضوء او الشرب او غسيل الملابس او غسيل الخضر والفاكهة فلا يحس بهذا الغزو الا حكة بسيطة ـ هرشة ـ بعد الخروج من الماء .

وتظل الدورة تعيش داخل جسمه وتلازمه حتى اخر العمر الا اذا عولجت وتعيش ازواجا ازواجا ذكورا واناثا فى الوريد البابى الذى يحمل الدم من احشاء البطن الى الكبد . وعندما تخصب الانثى تنفلت من حضن زوجها وتبيض فى المثانة والامعاء وتضع بويضات ذات شوكة صغيرة وتخرج من الجسم مع البول او البراز فاذا صادفت القواقع التى تعيش فى الماء اكملت دورة حياتها .

اما الديدان التى تعبث داخل الجسم فانها تعرقل سير الدم الى الكبد فيتضخم الطحال وتمتلىء الانسجة بالماء ويحدث الاستسقاء ويضمر الكبد او يصاب بالتليف

ويتكون الحصى فى المجارى البولية وتحدث قروح تتكلس واورام تتحول الى سرطان داخل اى موقع فى المثانة او الكبد او الامعاء .

يتم كل هذا دون الام ولذا لايشعر المريض بالخطر الا بعد استحكامه واستحالة علاجه .

إن البلهارسيا هى اخطر الامراض على القرى وأهلها .

اصحاب الحرف

منذ وجدت القرية المصرية وطبيعة الحياة فيها تحتاج الى بعض اصحاب الحرف يستكملون صور الحياة فيها ويكملون النشاط الزراعى ومتطلبات الحياة الاخرى . وقد ظل احتياج القرية الى الحرفيين ثابتا فى شكله ومضمونه قرونا طويلة دون ان يطرأ على هذه الحرف تغيير او تطوير ولم تظهر بوادر التغيير الا منذ سنوات قليلة مضت .

يقوم بعض ابناء القرية باحتراف بعض الاعمال وقد يصبح هذا العمل هو حرفته الوحيدة طول عمره وقد يضيفها الى العمل الزراعى اذا كانت حرفته لاتستغرق كل وقته او كانت موسمية ليس لها صفة الاستمرار على مدار ايام السنة . وأهم هذه الحرف هى .

البناء : وهو الذى يقوم ببناء المنازل وتبنى اما من الطين او الطوب النى . والبناء بالطين يسمى الطوف او البلسة وتبنى الجدران قواعد كل قاعدة إرتفاعها نحو نصف متر ويكون عرض الجدار سميكا وكلما جفت قاعدة يبنى عليها اخرى وهكذا الى ان يصل إرتفاع المطلوب للسقف فيعمل عليه السقف وهو عادة من أفلاق النخيل أو عروق خشب من الاشجار التى تنمو محليا وتغطى بالجريد وفوقه طبقة من الطين وهذا النوع من البناء متين وعازل للحرارة ولم يحاول احد تطويره او الارتقاء به ولذا ظلت البيوت على هذا النمط مايزيد على اربعين قرنا .

والطريقة الاخرى هى البناء بالطوب النى وهى اليوم مثلها تماما كما كانت عند قدماء المصريين منذ ستة الاف سنة لم تتغير قيد انمله . ولفظ طوبة وجمعها طوب من اللغة الفرعونية والقوالب الخشبية التى تستعملها هذه الصناعة حاليا هى نفسها التى كانت تستعملها فى ذلك الماضى البعيد ومثل ذلك يقال فى الطريقة التى يضغط بها الطوب ويجفف وكذلك فى الخامة او المادة الاولية التى يصنع منها الطوب وهى طمى النيل وكان

المصريون منذ القدم يخلطون طمى النيل بالرمل والقش والتبن ثم يعجن بالماء . واستعمل الفراعنة الطوب النى فى بناء المساكن وبعض المعابد والاسوار والقلاع فضلا عن السدود التى كثيرا ما بنوها بالطوب والتى يبلغ سمكها احيانا اكثر من ٢٥ مترا .

النجار : نجار القرية يقوم بعمل الالات الزراعية التى تحتاجها الزراعة وهى الساقية والطمبور والنورج والمحراث والفأس والمدراه ، وآلاته بسيطة هى المنشار والقدوم واحيانا فاره يمسح بها سطح الخشب وينعمه وقد يكون للنجار دار خاصة لاعمال النجارة كأنها ورشة او يقوم بالعمل فى نفس منزله وكان الخشب المستعمل هو التوت او السدر او العبل او السنط او الجميز .

ويتقاضى النجار اجره قمحا او ذرة فى مواسم الحصاد ويقوم باصلاح الالات الزراعية طول العام وكلما طلب منه فهو مسئول عن الصيانة .

وهو الذى يقوم بقص شعر الرجال والاولاد ويمارس اعمالا طبيه بيسطة .

الحداد : والحداد يقوم بصناعة الالات او اجزاء الالات التى تصنع من الحديد مثل سلاح المحراث او الفاس او اقراص النورج الحديدية .

ويحصل على الخامة من الحديد المستعمل والخردة ويعيد صهره وتشكيله فى دكانه ويتقاضى الحداد ثمن واجر ما يصنع نقدا .

القزاز : وهو النساج ويمتلك عادة نولا او اكثر فى منزله ويقوم بنسج الاقمشة القطنية والصوفية ونادرا الحريرية وقد يقوم هو نفسه باعداد خيوط الغزل من القطن او الصوف وقد يشتريها وقد يقدمها له الفلاح حيث يتسلى البعض منهم فى اوقات الفراغ وخاصة كبار السن من الرجال والنساء بغزل الصوف او القطن .

الصباغ :

ويصبغ الملابس التى نسجها النساج او يصنع الملابس الجاهزه التى يقدمها له الرجال او النساء وفى اوائل القرن العشرين وما قبله كانت ملابس الرجال تصنع باللون الازرق وكان هذا اللون يستخرج من نبات النيله الذى يزرع فى مصر والسودان .

الحصرى

ويصنع الحصر من عيدان نبات السمار الجافة بعد شقها طوليا الى نصفين وتصنع الحصير على منسج ارضى موضوع افقيا ـ وتصنع الحصير إما مربعه تكفى لتغطية ارض غرفه من غرف المنزل وتسمى « القياس » وإما مستطيلة تتسع لجلوس عدة اشخاص بجوار بعضهم وتسمى « الشريط » . واحيانا يتفنن الحصرى فى صناعة الحصر فيعمل رسومات هندسية بالوان مختلفة فتخرج الحصيرة على شكل سجادة ملونة .

البرادعى

وهو الذى يصنع برذعة الحمار ويكون حشوها من تبن أو قش الأرز او خوص الجريد وتكون كسوتها من نسيج قطنى أو من الصوف أو الجلد .

أما صانع سرج الحصان فيسمى السروجى

البيطار

وهو الذى يعالج الماشية والدواب من امراضها بالكى بالنار أو اعطائها الأدوية كما يقوم بتركيب الحدوة فى ارجل الخيل والحمير والبغال .

المدرى

وهو الذى يذرى حبوب القمح والشعير والفول والعدس والارز وغيرها من الحبوب فيفصل الحب عن التبن

قصاص شعر الحمير :

ويقص شعر الحمير والخيل . كما يقص صوف الاغنام

القرية والعمل السياسى

منذ وجدت القرية وقامت على الأرض المصرية وأهلها يمارسون العمل السياسى اذ تفرضه عليهم ظروف الحياة .

فأهل القرية سواء كانوا ابناء رجل واحد أو قبيلة واحده أو كانوا من أصول تختلف وتتباين وسواء كانوا من دين واحد أو اختلف الدين ، ومن مرتبة واحدة أو

تعددت المراتب وسواء كانوا من مستوى ثقافى واحد أو تفاوتت درجات المعرفة ، هذا المجتمع مهما اختلف وتنوع داخل نطاق القرية فانه فى مجمله يكون وحده اجتماعية تتكاتف وتتعاون وتنسى ما بينها من خلافات وخصومات وأحقاد عندما يدهم القرية عدو مشترك .

عدو من البشر أو داهية من دواهى الطبيعة عدو من البشر من جيوش غازية تريد الفتح والاستعمار أو جماعة من بدو الصحراء الاعراب ، وما كان اكثرهم على مدى التاريخ كله ، يغيرون على الزرع والضرع وسكان القرى للنهب والسلب السريع وخطف كل مايصل إلى أيديهم سهلا ثم يرتدون الى صحاريهم بعد فوزهم بالغنائم وما سرقت أيديهم .

أو عندما يفيض عليهم النيل وتتقطع الجسور وتغرق البلاد والزروع .
أو اذا هجمت اسراب الجراد قادمة من بعيد وأكلت كل ما هو اخضر

وكذلك عندما تندلع الحرائق على القرية أو جزء منها أو فى الحقول بمجرد ان تحل أزمة من هذه الأزمات أو كارثة من تلك الكوارث تظهر على الفور بالقرية قيادات من ابنائها لهم القدرة على توحيد الكلمة والتخطيط لملاقاة العدو أو المواجهة العدو وينسي الأفراد ما بينهم من خلافات ويصبحون صفّا واحدا وكلمة واحدة أمام المحنة التى نزلت بهم .

منذ بدأ الهكسوس غزو مصر منذ اربعين قرنا الى حروب اسرائيل فى النصف الثانى من القرن العشرين وكل قرية تقوم بواجبها فى الدفاع عن نفسها تلقائيا وبسرعة فائقة دون ان تنتظر عونا من مصدر آخر . والحديث عن هذا تفصيلا يطول ولكن لعل أروع ما سجلة التاريخ هو العمل الخالد الذى قام به أهل الريف أيام الحملة الفرنسية التى قادها نابليون بونابرت بنفسه على مصر والذى نزل ميناء الاسكندرية يوم الاثنين أول يولية ١٧٩٨ م ١٨ محرم ١٢١٣ هـ اصدر منشورا يغرر فيه بشعب مصر ويستخف بعقولهم ويدعى انه مسلم ومما جاء فى هذا المنشور « بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله . لا ولد له ولاشريك له فى ملكه » من طرف الفرنساوى المبنى على اساس الحرية والمساواه السير عسكر الكبير .

امير الجيوش الفرنساوى بونابرت ، يعرف أهالى مصر كلهم إننى ماقدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين وانى اكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم . أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية واعيان البلاد قولوا لأمتكم إن الفرنساويين هم ايضا مسلمون مخلصون واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى روميه (روما) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم

قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . .

وبدأ نابليون حروب قرى البحيرة وسارت جيوشه الى قرى مابين فرعى الدلتا ـ المنوفية والغربية فى ذلك الوقت ـ ثم قرى شرق الدلتا وهى الدقهلية والشرقية والقليوبية . ثم كانت معارك القاهرة الطاحنة واستمرت جيوشه تجتاح قرى الصعيد على جانبى النيل وكذلك الفيوم ابتداء من الجيزة الى أسوان والنوبة .

وهكذا اشتعلت نيران الحروب فى كل القرى من ساحل البحر الابيض ابتداء من الاسكندرية وامتدادا الى رشيد ودمياط ثم جنوباً فى كل الدلتا وعلى جانبيها شرقاً وغرباً ثم على امتداد النيل الى آخر حدود مصر جنوباً .

ونظلم انفسنا ونتجنى على تاريخ القرية المصرية اذا قلنا ان هناك قرية واحدة لم تقم بواجبها فى محاربة الفرنسيين سواء كانت هذه القرية فى خط سير الجيوش أو كانت بعيدة عن سيرها ومعاركها المباشرة .

فى كل قرية ظهرت قيادات أو قيادة جمعت الصفوف وألهبت المشاعر وأشعلت الحماس فكانوا يلاقون العدو المسلح بأحدث الأسلحة وأقواها التى لم تعرفها مصر فى ذلك الحين من مدافع وبنادق وبارود ولكن كل ذلك لم يؤثر على الفلاحين . . اتبعوا جميعا خطة واحده لم يتفقوا عليها من قبل ولاخطط لهم أحد أو أشار عليهم ناصح أو مشير . كانوا يحرقون المحاصيل القائمة فى الحقل ويدمرون الجسور واذا اشتدت المعركة حرقوا قراهم ومنازلهم ومايمتلكون حتى لاتصل الى العدو غنيمة سهلة مستساغة ، وقد سجلت تقارير الحملة الفرنسية التى دونها القادة الفرنسيون ومن كان مع الحملة من الكتّاب والعلماء بطولات القرى واسماء من حمل اللواء فى القرى التى صادفوا فيها مقاومات عنيفة وصوروا المعارك بالوصف وبالرسوم تلك المعارك .

أما القرى التى كانت بعيدة عن مسار الجيوش فإنها كانت السند والملاذ للقرى المجاورة التى دمرتها الحرب ، كانوا يستقبلون جيرانهم وأهلهم بالحب والوفاء والكرم يستضيفونهم ويشاركونهم المعارك .

ولابد أن التاريخ وقف مشدوها لسلوك الفلاحين اثناء حملة نابليون فإن نابليون وصل الاسكندرية ومصر كلها تحت نظام حكم فاسد لا أساس له ولاجذور ، كانت مصر تحت الحكم العثمانى إسما وكان يتداول حكمها أناس من المماليك لا أصل لهم ولا فصل .

فالمملوك جاء الى مصر طفلا صغيراً اشترى بالمال من أحد البلاد التى تحيط بتركيا . . شمال بحر قزوين أو حول البحر الاسود أو من البلقان أو من شمال الشام أو من تركيا نفسها . . ويتداول تجار العبيد شراءهم حتى لايعرف الطفل فى النهاية من أى موطن جاء الى أن استقر الأمر فى مصر ولكنهم فى الغالب كانوا من الشركس أو الاتراك بل منهم من كان من وسط افريقيا ، يشتريهم حكام مصر ويقومون بتربيتهم واعدادهم للحرب وتولى الوظائف حتى لايتولاها أحد من أبناء الفلاحين المصريين وكان أن حكم المماليك مصر ٢٦٧ عاماً فلما احتل العثمانيون مصر بقيت شوكة المماليك قوية ووصل الأمر الى أن الوالى العثمانى المعين من الاستانة أصبح لاحول له ولاقوة يحكم إسما وكل شيء فى أيدى المماليك .

كانت فترة غريبة فى تاريخ مصر . . مماليك يتنازعون على الحكم وقد لايبقى الحاكم منهم على كرسى الحكم إلا يوما وان طالت مدة الحكم فشهورا . . يتقاتلون فيما بينهم على كرسى الحكم ويشددون النكير على الفلاحين لجمع الضرائب فهى مصدر التمويل الوحيد لحكوماتهم . . وقد استخدموا مع الفلاح كل انواع البطش والقوة فى جمع الضرائب . وكانت هناك فجوة واسعة بين الحاكم والمحكوم وكراهية لاتوصف . حاكم ليس من أبناء البلاد ولا جنسهم ولايعرف من لغتهم العربية إلا القليل وفى مقدمة مايعرفه من هذه اللغة الفاظ السباب وقد جعل من كلمة « فلاح » لفظ سباب وشتم وهو يتعالى على الفلاح ويحتقره ولايختلط به ولايناقشه أو يحادثه فالفلاح فى نظر هذا المملوك واعوانه ورجاله كم مهمل .

كل هذه الحقائق كانت كفيلة بأن يجد الفلاح فى الحملة الفرنسية فرصة للتخلص من الحكام المماليك والعثمانيين وخاصة أن اساتذة علم الاجتماع يقررون « أن الوطن الظالم لاينجده من ابنائه احد ، وقد يتمنون له الخذلان ، اذا كان فى الخذلان استبدال عدل بظلم » .

ولكن فلاح مصر وابنها الأصيل لم يسلك هذا السلوك لأن الوطن وطنه ، ونسى هؤلاء الحكام المماليك ونسى اخطاءهم وسوء معاملتهم وطغيانهم وفكر فى مصر وحدها وفى مصير بلده فكر فى مصر ولاشيء سواها وارتفع الى أعلى مستويات الوطنية والفداء وقاد الفلاح معركة كل القرى من البحر الابيض الى أسوان بينما قادها العلماء ورجال الدين والتجار وكل الطوائف فى القاهرة والعواصم وخاصة الاسكندرية ورشيد .

واختفى من المماليك من اختفى وفر هربا من فر وبقى المصريون وحدهم فى الميدان أمام العدو فلا عثمانيون ولامماليك .

ولهذا كله جاءت الحملة الفرنسية بالخذلان والفشل والهزيمة النكراء رغم ماوضع لها من تخطيط عسكرى عالى المستوى ورغم التخطيط العلمى الذى أراده نابليون عندما أحضر معه مجموعة كبيرة من العلماء .

إنتهت الحملة الفرنسية بعد ألف يوم . وقعوا شروط الانسحاب يوم ٢٤ يناير عام ١٨٠٠ كانت صحوة فلاح مصر فى مقاومة نابليون صحوة غيرت مجرى التاريخ ولولاها لحكم الفرنسيون مصر قرنين من الزمان على الاقل .

وفى غير الحروب وملاقاه الغزاة وعصابات السلب والسرقة من بدو الصحراء ، كان هناك نشاط سياسى يظهر فى القرى عندما يفيض النيل على غير انتظار فلم تكن هناك ارصاد للنيل ولا توقعات علمية وكان الناس ينتظرون النيل صيفا أما ان يفيض أو يغيض وان فاض قد يكون بقدر يسمح لجوانبه وجسوره ان تحكمه وتضبطه . وقد يزيد ويزيد حتى يدمر الجسور ويقطعها ويغمر الحقول والقرى وتجرف المياه أمامها كل ما يعترضها ، عندئذ يهب أهل القرى والقرى المجاورة محاولين التحكم فى سير مياه النهر بتقوية الجسور ويظهر من بين ابناء القرى قيادات تتصدى لهذه المهام ولإنقاذ المساكن والحقول من سريان المياه الجارفة .

ويحدث هذا ايضا عندما ينتشر وباء كالطاعون أو حمى الكوليرا فالناس متعاونون متعاطفون ومنهم القيادات الرشيدة التى لا تنتظر شكرا ولا تطلب أجرا . .

وما اكثر ما تجتاح الحرائق القرى وخاصة فى بداية الربيع ابتداء من شهر أمشير وأيام رياح الخماسين فتصبح فترة هبوب الرياح الشديدة من مارس الى مايو ولا ينجد القرية الا أهلها ولا يعوض المنكوبين الا ابناءها .

وبالمثل عندما كانت اسراب الجراد تغير ولا يمكن التغلب على آفة الجراد الا بعمل جماعى حتى يذود الفلاحون عن الحقول كلها ، اذ لا يفيد ان يذود كل واحد عن حقله فقط ولابد من مقاومة جماعية .

وبعد الحملة الفرنسية ومجىء محمد على وحكمه هو وأسرته لم تعرف القرية العمل السياسى إلى ان طلع القرن العشرين ففى بدايته ظهر مصطفى كامل ولكن دعوته لم تصل الى القرية وقد أسس الحزب الوطنى ولم يعرف الحزب الوطنى طريقه الى القرية . ثم جاءت ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وكان من ابناء الفلاحين من قرية إبيانه وتعلم فى الأزهر وكان خطيبا ووطنيا صادقا مخلصا ووصل صوته ودعوته الى كل قرية واقتنع به الفلاحون أجمعين وأيدوه وناصروه وأحبوه وكانت هذه البداية هى أول مرة يدخل العمل

السياسى القرية خلال القرن العشرين يدخلها عن اقتناع وقبول ورضا وانضم الفلاحون الى « الوفد » الذى أسسه سعد زغلول وناصروه على خصومه السياسيين وكان أظهرهم عدلى يكن وكان هو الآخر وطنيا شريفا كريم الأخلاق ولكن من فرط حب الفلاحين لسعد رفعوا شعار « الاستعمار على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى » .

ولما جاءت الانتخابات لمجلس الأمة قال ابناء القرية « لو رشح الوفد حجرا لانتخبناه » وظهرت احزاب أخرى علاوة على الحزب الوطنى والوفد مثل الاحرار الدستوريين والكتلة الوفدية والسعديين والاتحاد وحزب الشعب ومصر الفتاه التى كان اعضاؤها من الشباب والطلبة ولكن بقى حزب الوفد وحده هو المسيطر على فكر القرية السياسى وجاء مصطفى النحاس بعد سعد زغلول وكان أيضا زعيما شريفا مخلصا . كانوا من ابناء الريف سعد من قرية إبيانه ومصطفى النحاس من مدينة صغيرة هى سمنود فكانت لكل منهم صفة الأصالة المصرية التى لا تشوبها شائبه وقد تميز الزعيمان بأنهما لم يكن بين اهدافهما الوصول الى كرسى الحكم أو تحقيق مغانم خاصة وضوح الرؤية ، وبلورة الاتجاهات بأيهما نبدأ وأيهما تسبق الأخرى . . . والالتحام بالقاعدة والاستقطاب وأيهما أجدى واسرع لتحقيق الفكر الاشتراكى . . وخلفية المفاهيم ما هى وما هى الآثار المترتبة عليها . . . والصعود الانحدارى والتعمق السطحى . . وغير ذلك مما يصعب حصره .

وكانت محصلة النشاط السياسى فى القرية نتيجة لجهود الاتحاد الاشتراكى الظاهر والباطن أى المعلن والخفى ، كانت النتيجة ان سبق الناس زرافات ووحدانا الى السجون والتعذيب دون محاكمة ، فلم يكن الأمر يحتمل الانتظار الى ان تنتهى المحاكمات عذب من قال :

لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . . لأنهم إخوان مسلمون
وعذب من قال ربنا الله . . . . مسلمون واقباط
وعذب من أنكر وجود الله . . . . لأنهم أتباع ماركس
وعذب اغنياء القرية . . . . حتى لا تكون سيطرة لرأس المال
وعذب فقراء القرية . . . . حتى لا تكون هناك تحركات للفقراء
وعذب أهل الفكر وأصحاب الرأى . . . حتى لا تكون إثارة للرأى العام
وعذب الجهلاء والبسطاء . . . حتى يكونوا عبرة لمن أراد ان يعتبر

التعذيب طولا وعرضا وفى كل الاتجاهات وبدون اسباب ، وكان هذا هو العمل السياسى الجديد .

وهكذا عرفت القرية العمل السياسى عند صد الغزاة من الهكسوس والأغريق والرومان والصليبيين والفرنسيين والانجليز واليهود .

وعرفته دائما لصد لصوص أعراب الصحراء وعرفته لمقاومة كوارث الطبيعة من فيضان النهر والأوبئة والجراد والحرائق أى عرفته لصد الغارات التى تأتى من الاعداء خارج الحدود ولمقاومة كوارث الطبيعة .

ولكن لم تعرف القرية العمل السياسى لمناهضة الحاكم الظالم والحكم الفاسد وبديهى انه لم يكن كل حكام مصر طغاة أو مستبدين ولكن فترات الحكم الظالمة كانت اكثر تكرارا وحدوثا من فترات الحكم الصالح .

حدث تبادل الحكم الصالح والفاسد على طول التاريخ من فراعنة وهكسوس واغريق ورومان وخلفاء بنى أمية فى دمشق وخلفاء بنى العباس فى بغداد والفاطميين والمماليك والعثمانيون وأسرة محمد على ... الخ .

كان الهدف هو طرد المستعمر وخير مصر ولا شىء غير مصر ، كل منها حارب الانجليز واحفاد محمد على وهما على التوالى فؤاد ثم فاروق وعندما انتصف القرن العشرين ألغيت كل الاحزاب القائمة وفرض على القرية نموذج جديد من العمل السياسى وهو نظام الحزب الواحد وان اختلفت المسميات ، كان اسمه فى البداية هيئة التحرير ثم تغير الاسم الى الاتحاد القومى ثم تغير ثالثا الى الاتحاد الاشتراكى وكان هذا الحزب أو النظام مثالا سيئا للعمل السياسى فقد أفسد القرية وأشاع فيها الفتنة والتجسس مع انه لم يكن ينقص القرية أجهزة تجسس فقد كان هناك ستة عشر جهازا تتجسس فى الخفاء على المحكومين لصالح الحاكمين ، وايضا تجسس على بعض الحاكمين لصالح آخرين .

أما الاتحاد الاشتراكى فقد كان له وجه معلن وآخر يعمل فى الخفاء ، تنظيم ظاهر يطلق الشعارات أما الوجه الآخر فهو تنظيم بالتجسس ، وكان يعمل كل شكل خلايا لا تعرف بعضها بعضا تصب الحلقة فيما بعدها ولا تعرف أين المنبع وأين المصب .

تنظيم سرى للكبار وآخر سمى الطليعى للشباب من تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات لا يعرف المنتظم فيهما اكثر من افراد مجموعته وقد يكونون ثلاثة أو خمسة ولا اكثر من ذلك وتقع اشياء شاذه لا تحصى ولا تعد منها مثلا ان يكون رئيس التنظيم فى موقع غير قيادى ـ عامل تليفون مثلا ـ ومحافظ الإقليم الذى عينه رئيس الجمهورية ممثلا

له فى المحافظة ليس عضوا فى التنظيم ومنها أيضا إبن فى التنظيم الطليعى للأولاد يكتب عن والده القاضى انه يحضر ملفات القضايا لدراستها فى المنزل ويسهر عليها ويريد الولد ان يشيد بعمل أبيه فيفصل الوالد القاضى دون ان يعرف السبب . ووالد يكتب عن نشاط ابنه الطيار يريد ان يفخر به فيحاكم الإبن الطيار ويعدم بتهمة الخيانة العظمى . . ويقال إنها شهادة والده التنظيم السرى يعمل فى الخفاء ويوقع بالأبرياء .

والتنظيم العلنى يدعو الناس الى اجتماعات يعلمهم شيئا جديدا قالوا انه الفكر الاشتراكى الذى سيفيض على القرية بالخيرات أمواجا بعضها وراء بعض حتى تصبح القرى جنات وارفة الظلال يسودها الأمن والطمأنينة .

وجاءوا للقرية بمن يدرس لهم المفاهيم الجديدة فى السياسة وهم المبشرون بالاشتراكية الجديدة والجنة الجديدة ، المتطوعون ظاهرا المأجورون باطنا .

ومنذ بدأوا الى ان انتهى الاتحاد الاشتراكى بشره وشره لم يفهم واحد من ابناء القرية شيئا مما قالوا لأنهم كانوا يقولون كلاما مترجما مستوردا وبعيدا عن واقع القرية وتاريخها وعرفها وعاداتها وتقاليدها .

تكلموا كثيرا وأفضوا فى شرح اشياء مثل . . تحالف قوى الشعب العاملة .

ولكن على مدى هذا التاريخ الطويل الذى زاد على الاربعين قرنا لم يحدث ان مارست القرية وأهلها عملا سياسيا ضد الحكم الطاغى والاداره الفاسدة ولم يظهر أى أثر لذلك واذا قال أحد غير ذلك فهو يتجنى على التاريخ .

ترى هل اكتفى أهل القرية بتطبيق القاعدة الشرعية الاسلامية فى أضعف درجاتها وهى مقاومة المنكر بالقلب فلم يحاولوا أبدا المقاومة باليد أو اللسان .

ولكن ما حدث قبل الاسلام . . نفس الموقف اكتفى أهل القرية بالهمس أو النكتة أو الإشاعة يطلقونها على الحاكم يقول أهل القرية متهكمين على أنفسهم :

ان السنجق (حاكم الإقليم) كان له فيل يعيث فى الحقول فسادا وضجوا منه واجتمعوا اجتماعا صاخبا وقرروا ان يذهبوا الى السنجق لإنذاره ومطالبته بأنه يمنع الفيل من الخروج الى الحقول

وذهبوا اليه وتقدم أشجعهم وقال :
يا سيادة السنجق
فصاح فيهم السنجق .. عايزين إيه
قال أشجعهم .. الفيل يا سيادة السنجق
قال السنجق .. ماله الفيل
قال أشجعهم .. ولا شيء جئنا نطالب بأن تكون له فيلة .. !!

ويتهكم الفلاح على نفسه عندما تكون من امثاله التى يكرر الاستشهاد بها :
اللى يتجوز أمى أقول له ياعمى

وان رحت بلد تعبدجحش.. حش وارمى له (اى يحش البرسيم ويقدمه له)
واللى يحط فى رقبته حبل يلاقى الف من يسحبه

ومالك يا فرعون تفرعنت قال مالقيتش حد يردنى

ويضحكون على استبداد الحاكم بنكت يرددونها ويضحكون عليها عساها تنسيهم بعض آلامهم .

فعندما كانت للحاكم سيوف غير مبصرة تأخذ العاصى والطائع والصالح والطالح تتردد نكتب مثل :

دخل رجل الى منزله مهرولا صائحا فى وجه زوجته أريد ان اختفى ويبحث فى الدواليب وتحت الأرائك وفى كل زاوية فى المنزل .. خبونى .. خبونى .. وتسأله زوجته ماذا حدث .؟ لماذا ..

فيقول إنهم يجمعون الجمال .. !!
وترد زوجته .. سلامة عقلك يا أبو محمد ... هو أنت جمل ..؟

فيقول فين وفين لما اثبت إنى مش جمل كان زمانهم ذبحونى وسلخونى وباعو بالتسعيرة .

ويسأل جار جاره أين كلبك
فيقول لقد عبر الحدود الى ليبيا
وماذا سيفعل هناك
ابدا ذهب يهوهو قليلا ثم يعود
ونكته اخرى من بين النكت :

لقد قبضوا على ابن عمدة القرية
لماذا ..؟
وجدوا معه رزمة ورق ابيض
وفيها إيه ..؟
طبعا دى منشورات سرية بيضاء

ان المواقف السلبية لأهل الريف أزمانا طويلة ودهورا متصله أمام الطغيان يحتاج الى تفسير وتفاسير والى دراسات مستفيضه والى ان تتم مثل هذه الدراسات والبحوث لا يمكن ان نهمل ان من أهم الاسباب رجل الدين فى كل زمان . اذ على طول المدى ومع اختلاف العقائد الدينية وتطورها كانت هناك ظاهرة لم تتغير فى شكلها أو جوهرها وهى ان هناك من لبسوا لبوس الدين خادعين يريدون ان يفرضوا سلطتهم تحت ستار الدين ليكونوا اداة بطش فى يد السلطة الحاكمة حتى تمكن لنفسها البقاء على كرسى الحكم على حساب المحكومين أغنياء أو فقراء أقويا أو ضعفاء .

وحاول هؤلاء - ومع كل الاديان - ان يكونوا ضد العلم وضد الفكر وان يكونوا أداة ضد كل انواع التقدم والتطور لكى تكون دفة الامور فى ايديهم يسيرونها حسب هوائهم ومصالحهم الشخصية واطماعهم الذاتية . واليوم يسود مصر نظام ديمقراطى اشتراكى تتعدد فيه الاحزاب وطبيعى ان يتولى الحكم حزب الأغلبية ، وتقف الاحزاب الأخرى معارضة ، ولا يهم الوطن ان تتعدد الآحزاب وان تختلف طالما ان الهدف هو مصلحة الوطن . ولكن الشىء الذى لا يقبله أحد والمرفوض تماما ودائما هو ان يكون هناك حزم يوجه أو يمول من خارج الحدود .... تلك هى الكارثة .

عـــادات وتقـاليـــد

الزواج والطلاق

الزواج وارتباط الرجل بالمرأة بعقود وأمام شهود وعلانية هذا الارتباط معروف فى تاريخ مصر .

فمنذبدأ تدوين التاريخ الفرعونى توجد وثائق البردى والنقوش على جدران المعابد والمقابر تصف علاقة الزواج وطقوسه والاحتفال به وارتباط الزوج بزوجته ومعيشتها تحت سقف واحد لمشاركة الحياة جنبا الى جنب ولتكوين الأسرة وإنجاب الأولاد وتربيتهم .

كانت الزوجة الشرعية هى المحبوبة وأطلق عليها « ربة الدار » وكان للرجل فى العادة زوجة شرعية واحدة أما تعدد الزوجات فكان شائعا ومن حق الرجل ان يتخذ لنفسه أكثر من زوجة وهناك نقوش لبعض الملوك وحوله ست زوجات ورمسيس الثانى كان له ثلاث زوجات .

وكان من عادتهم زواج الأخت وكذلك بنت الأخت .

وكانت المرأة تختلط بالرجل فلم يكن هناك حجاب .

والزواج يتم فى سن مبكرة فكان الشبان يتزوجون فى سن الخامسة عشرة والفتيات يتزوجن فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة .

وقد تزوج توت عنخ آمون فى سن الثانية عشرة وكانت زوجته فى سن العاشرة تقريبا .

وكان الزواج يتم بعقد مكتوب تتعادل فيه حقوق الزوجين وقد عثر على عقد زواج تم عام ٢٣١ قبل الميلاد .

كما يوجد بالمتحف المصرى بالقاهرة عقد زواج مكتوب على ورقة بردى بين أمحتب وزوجته « تاحاتر » يقول الزوج فيها :

« لقد اتخذتك زوجة . وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه . الأطفال منهم الذين تلدينهم لى يكونون أطفالى . ولن يكون فى استطاعتى ان أسلب منهم أى شيء مطلقا لأعطيه آخر من ابنائى أو أى شخص فى الدنيا . سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت مايكفى لطعامك وشرابك كل عام . ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهريا وسنويا . واذا طردتك أعطيك خمسين قطعة من الفضة . واذا اتخذت لك ضرة أعطيك مائة قطعة من الفضة . وتناولى عقد الزواج من يد إبنى كى يعمل بكل كلمة فيه . أنى موافق على ذلك » .

ومن الطريف ان هذا العقد قد شهد عليه ستة عشر شخصا ، وواضح من نص هذا العقد ان هناك ضمانات كثيرة لحقوق الزوجة فى حالة الطلاق أو فى حالة الزواج بزوجة ثانية .

وكان العرف يسمح للزوج بضرب زوجته على سبيل التأديب ألا انه لم يسمح له بسبها . ولقد حوكم أحد الأزواج لأنه سب زوجته فأصدر القاضى حكما بجلد الزوج مائة جلدة عقابا له على ذلك ، كما قضى بحرمانه من نصيبه فى المال الذى كسبه بالاشتراك معها اذا عاد الى سبها .

وفى بعض مراحل التاريخ الفرعونى كان الرجل يحتفظ بمحظيات للتسلية والرقص والغناء بما يشبه نظام الجوارى فيما بعد .

وكان الزوج يدفع مهرا وفى بعض المراحل كانت الزوجة هى التى تدفع وقد كان الكاهن يقوم بمراسم عقد الزواج وتسجيله امام شهود داخل المعبد بحضور اقرباء الزوجين .

وقد ظل أسلوب الزواج ونظامه ساريا دون تغيير جوهرى أيام اليونانيين والرومانيين .

وعندما جاءت المسيحية مصر حرمت زواج الأخت وبنت الأخت كما حرمت تعدد الزوجات أو وجود محظيات وحرمت ايضا الطلاق « الذى جمعه الله لايفرقه انسان » (متى ١٩ - ٦) .

ويتم عقد القران فى الكنيسة بواسطة أحد رجال الدين وأمام شهود .

ولما دخل الاسلام مصر طبقت الشريعة الإسلامية على نظام الزواج والاسلام لايمنع الطلاق ويجيز تعدد الزوجات إلى أربع زوجات وللزوجة صداق مقدم وآخر مؤخر يدفع عند الطلاق أو الوفاة ولابد من شهود ووضع قواعد للميراث .

وللقرية تقاليدها وعاداتها فى اتمام الزواج والاحتفال به ولايزال الزواج المبكر هو السائد ويتم العقد طبقا للشريعة الاسلامية وقد صدر أخيرا قانون للأحوال الشخصية يحد من تعدد الزوجات ويضع له قيودا وضوابط .

وفى أوائل هذا القرن كان حجاب المرأة سائدا فى الريف والحضر وكان فى الريف أكثر شيوعا ولم يكن الاختلاط بين الشبان والفتيات مسموحا به بل كان ممنوعا ولهذا كانت الأم أو من يقوم مقامها تقوم بدور الخاطبة لابنها أو قريبها فتختار العروس وتتفاوض مع أهلها على خطوات الخطوبة والزواج والمهر وفى حالات كثيرة كان الفتى لايرى عروسه إلا ليلة الدخلة وبعد وصولها إلى منزله .

وعندما يتم الاتفاق التمهيدى بين سيدات الأسرتين يتولى الآباء من الطرفين الاتفاق النهائى وتبدأ الاستعدادات للزواج فيتم كتب الكتاب وهو عقد القران بواسطة المأذون الذى يسجل العقد كتابة فى دفاتره ويعطى نسخة للشاب وأخرى لولى أمر العروس ويذكر فى هذا العقد قيمة الصداق عاجله وآجله ويقبض والد العروس مقدم الصداق ويبدأ فى تحضير الجهاز وهو الأثاث الذى ستأخذه العروس معها إلى بيتها الجديد وكذلك ملابسها وحليها الذهبية . فإذا ما انتهى اعداد الجهاز يبدأ الإستعداد للزفاف .

ويسبق ليلة الزفاف إقامة أفراح عدة ليال فتتجمع الفتيات فى منزل العروس وبالمثل فى منزل الشاب كل مساء يغنين على ايقاع طبلة أودف وقد يحضر شاعر يغنى على الربابة أو الأرغول أو منشد دينى ويسمى صييت أويقيم الحفل راقصة محترفة وتتوالى ليالى الفرح إلى ان يقترب الموعد فاذا كانت الليلة السابقة لليلة الدخلة ارتفع مستوى الاحتفال فهى الليلة التى تسمى ليلة الحناء وفيها يحتفل كل من العروسين فى منزله بوضع خضاب الحناء فى اليدين وعلى القدمين ويشاركهم فى ذلك الأهل والأحباب والأصدقاء .

وتغنى البنات :

الحنة يا الحنة يا قطر الندى .

يا شباك حبيبى جلاب الهوى .

فاذا جاء يوم الزفاف وهو التالى لليلة الحناء يجتمع أهل العروسين وكثير من شباب القرية لنقل العروس من بيت أبيها إلى بيت الزوجية ويزف الأثاث عصرا على الجمال أو على عربات تجرها الدواب .

وتقوم سيدة تسمى الماشطة بتهيئة العروس للزفاف وتزيينها ومساعدتها فى ارتداء الملابس وقبيل الغروب تزف العروس ويتقدم الزفة فرسان ممن يجيدون ركوب الخيل يتسابقون بخيلهم كما ترقص الخيل على انغام الطبل والمزمار .

واذا كانت المسافة بين منزل العروسين قصيرة أو فى نفس القرية فان العروس تزف داخل ناموسية ترفع على اربع عصى فتصبح وكأنها مقصورة صغيرة تكون فى داخلها العروس وعدد قليل من صديقاتها .

أما اذا كانت المسافة بعيدة فإنها تركب جملا عليه هودج ويسمى احيانا تختروان وهو خيمة صغيرة مربعة مقامة فوق صندوقين على جانبى الجمل ، لكل صندوق ظهر مرتفع ـ مسند خشبى ـ ويركب فوق كل صندوق شخص واحد أى ان الهودج لشخصين . وتفتح الستائر من الامام والخلف للتهوية وقد تقفل لمنع البرد أو الرياح .

وقد يسير فى موكب العروس أكثر من هودج اذا كان الأهل من ذوى اليسار نسبيا تكون العروس فى الهودج الأمامى وخلفها صديقاتها .

وتغنى البنات أغانى يحفظنها ولايعرف من هو مؤلفها ولامن قام بتلحينها ومن هذه الاغانى التى تردد فى هذه المناسبة فى كثير من القرى أغنية مطلعها :

يا بيضة بلون الفلة وأحلى من القمر
أو ياليلة بيضة يا نهار سلطانى
أو كتبوا كتابك يانقاوة عينى

وعندما تصل العروس إلى باب منزل الزوجية يتقدم العريس فى همة ونشاط ويحملها ويدخل بها إلى المنزل وتكون والدته ـ حماة العروس ـ واقفة على الباب تعترض دخولها اذ تقف الحماة مسنده ظهرها إلى أحد جانبى الباب وترفع رجلها اليمنى إلى جانب الباب الآخر لتمر العروس من تحت رجلها علامة على أنها ستكون دائما طوع إرادتها وأحيانا تجلس الحماة القرفصاء وتقفز العروس فوقها تبركا بها . وطبيعى انه لن تدوم الطاعة ولا التبرك بين الاثنين ، العروس وحماتها ، فما أقصر عمر الوفاق بينهما ، بين سيدة البيت القديمة وسيدة البيت الجديدة ، بين جيل وجيل ، تنازع بقاء وخلاف على السلطة ولن تطيب الحياة بينهما . . خلافات لأسباب ومن غير أسباب . . . سنة الحياة .

بعد وصول العروس إلى بيتها الجديد تقام موائد العشاء لكل المدعوين ويكون الطعام على قدر طاقة أهل الزوج ولكن من الضرورى ان تشمل قائمة الطعام اللحم وبعض أصناف الخضر وخاصة البطاطس والأرز أو المكرونة ثم الحلو وهو عادة مهلبية أو فاكهة .

وعند الانتهاء من وليمة العشاء يستعد الشباب لزفاف العريس الذى يذهب الى منزل أحد الأقارب أو الأصدقاء بدعوة سابقة ويستحم هناك ويشرف على عملية الاستحمام حلاق القرية . ويلبس الشاب ملابس الفرح ويخرج من هذا البيت فى زفة طويلة يسبقها الطبل والمزمار والمشاعل .

يسير العريس وسط أصدقائه وقد أمسك فى يده صحبة من الورد والزهور الملونة بينما يحمل كل واحد من الأصدقاء شمعة مضيئة فى يده . وخلف العريس بعض النسوة يحملن إناء به نار متقدة يوضع فيها البخور بصفة مستمرة وينثرون الملح الخشن على الموكب وكل ذلك اتقاء للحسد . واذا كانت الأسرة موسرة فقد تنثر الحلوى على موكب الزفاف علاوة على الملح .

وتطلق الأعيرة النارية وهى عادة سيئة كثيرا ماتنتج عنها إصابات واخطار فينقلب الفرح إلى مأتم فى الحال .

وعندما يقترب الموكب من المنزل فان الجميع يسرعون الخطى ويدخل العريس إلى بيته ليبدأ حياة جديدة ومرحلة جديدة من عمره .

ويجتمع أهل القرية بعد ذلك لتمضية سهرة سعيدة يشاهدون السامر أو يستمعون إلى مغنى أو يشاهدون راقصة ويمتد السهر إلى قرب الفجر .

وفى صبيحة ليلة الزفاف يخرج من منزل والد العروس موكب من البنات والصبية يحمل كل واحد على رأسه إناء به شيء أعدته والدة العروس مثل الفطائر والحلوى والطعام ومختلف الألوان والفاكهة وكل إناء يغطى بفوطة . . أو . .

بشكير أو مفرش أبيض ويسيرون وراء بعضهم فى موكب طويل وكلما كان الموكب كبيرا كان ذلك مدعاة للتفاخر . ويسمى هذا الموكب موكب المسلوقه وعند وصوله إلى منزل العروسه يتجمع الأهل والأحباب والجيران ويقدم كل من حضر مبلغا من المال للعروسة تجمع فى منديل أبيض ويسمى النقوط أو النقطة ثم توزع العروس على الحاضرين الشربات والحلوى أو الفاكهة .

الاحتفال بالمولود

أمنية كل زوجين بعد الزواج أن يكون لهما أولاد حتى تكون لهما أسرة فإذا حملت الزوجه اعتبر ذلك حادثا سعيدا وينتظرون يوم الولادة ويحسبون موعده ويعدون الأيام فى انتظاره .

فاذا جاء الموعد أشرف على عملية الولادة الداية وهى سيدة تخصصت فى ذلك وتنتظر الاسرة عملية الولادة فى قلق ولهفة وأكثر ما يشغلهم فى البداية هو سلامة الأم وللمولود فرحة سواء كان ولدا أو بنتا ولكنه فى المجتمع المصرى يفرحون بولادة الذكر أكثر من البنت ولكنهم فى كلا الحالتين سعداء يحمدون الله على ما أنعم .

ولكن في بعض البلاد وخاصة فى الصعيد لا يرتاحون لمجىء البنت ويفضلون البنين على البنات .

والام تسعد بمولودها وتعتبر البنت أقرب إليها من الولد ولكن الزوج يتمنى أن يكون كل أبنائه من الذكور .

ومن الأغانى التى تتردد عن ولادة البنت :

لما قالوا دى بنت
كانت لحظه زى الزفت
العصيده بقت فرت
والبلح بقى عقارب
عمال يلدغ فى الشوارب
لما قالوا دى بنيه
انهد ركن البيت عليه
وجابوا لى البيض بقشره
وبدال السمن ميه

ويحتفل بميلاد الطفل يوم السابع فيوضع فى ليلة السابع قلة من فخار ملون أو أبريق من نحاس فى وسط طشت وتوضع على القلة أو الابريق الزهور والحلى والذهب وسبح وعقود وتقاد الشموع طول الليل .

وفى الصباح يزف الطفل داخل المنزل ويدقون الهون بصوت مرتفع وينثرون الملح ويحرق البخور ويغنون للطفل .

برجالاتك برجالاتك حلقة دهب فى وداناتك

واذا كان المولود بنتا قد يثقبون أذنيها لتكون جاهزة لوضع الحلق فيها مستقبلا وقد تكون هذه العملية فى وقت آخر غير يوم السبوع .

ويوزع على الاطفال المشتركين فى الحفل الحلوى وعقود وأساور من حبات الفول .

الاسماء

الاسماء المصرية للبنين والبنات لا تخضع لقاعدة . والوالدان احرار فى تسمية أبنائهم بما يشاؤون .

والأسماء الغالبة هى عربية الأصل والمعنى وإن كانت لاتزال هناك أسماء من عهود الفراعنة والفرس واليونان والرومان ثم الأسماء القبطية .

فمن الأسماء الفرعونية التى لاتزال مستعملة : رمسيس وأحمس وتوت وتحتمس وباخوم وساويرس وموسى ومن اسماء الإناث إيزيس ومارى .

ومن أسماء الفرس فيروز وكثير من الأسماء المؤنثة مثل شاهنده وشهريار ونورس وصافيناز وشهوار .

ومن الأسماء اليونانية چورچ ويني ومن الأسماء الرومانية قيصر واسكندر .

والأسماء القبطية كثيرة الانتشار وأكثرها أسماء القديسين والشهداء والرسل مثل بولس ومرقص وشنوده وحنا ويوحنا ومتى ولوقا ومريم .

أما الأسماء العربية فهناك قول مأثور أن أفضل الأسماء ماحُمد وعُبّد أى ماكان على إسم محمد أو أحمد أو محمود وما عبد هو الذى يضاف إلى لفظ عبد أحد أسماء الله الحسنى مثل عبد الله ولذا غالبية أسماء المصريين من المسلمين على هذا المنوال ويأتى بعد ذلك أسماء الخلفاء الراشدين والأولياء والصالحين .

وكثير من الأسماء ينسب إلى حرفة الشخص الذى يزوالها مثل النجار والحداد والجزار واللبان والصباغ والغزال والسقا والمراكبى والعسكرى والعمدة والشيخ والفقى والكيال والخطيب والبنا والطبال والخياط والطباخ والحلوانى والفران والجندى والصراف والصواف والبغال والبواب والمعلم والإمام والترزى والعطار والطحان والغنام والراعى . . وغير ذلك .

وقد تنسب الأسماء إلى صفة من الصفات مثل الطويل والأحمر والأسود والأسمر والأبيض والقوى والضعيف والفقير والخشن والناعم .

أو تستخدم أسماء الأشجار والنباتات مثل نخله وسدره وجزر وبصل وتوم وفول وبلح وزيتون وفجل وعجور وعدس وفلفل .

أو يسمى الأبناء أسماء تفاخر مثل الأمير والبرنس والباشا وسلطان وخليفة والحاكم والوزير والمأمور والقائد والريس ومن (أسماء الإناث أميرة وملكة وسلطانة .

ومن أسماء الحيوانات . . . نمر وفيل وضبع والديب والقط والفار والجحش والغزال والجمل والتعلب ودبور ونحلة وسمك والحوت والحيوان .

ومن الطيور . . صقر وغراب وحمامة وعصفور وديك وحداية وتصل المسميات أيضا إلى الأدوات المنزلية مثل الزير والقدح وسكينة وغربال وأبو طشت وفانوس ومصباح ومفتاح .

أو تكون الأسماء نسبة إلى الموطن الأصلى سواء كان قرية أو مدينه أو محافظه مثل الشرقاوى والغرباوى والاسكندرانى والدمياطى والجيزاوى والمنياوى والقناوى والأسوانى والطنطاوى والرشيدى .

وخوفا من الحسد قد تستخدم أسماء شاذة مثل قصير الديل والوحش والغراب وحداية والهايف والجبان والعريان والجعان والغلبان والفقير والعبيط والأقرع والغول والخنفس .

وقد تستعار الأسماء من أسماء الأشهر القمرية مثل محرم وصفر وربيع ورجب وشعبان ورمضان .

أو تستعمل أسماء الأطعمة مثل سكر وعسل وعجوة .
أو يطلق إسم مرض مثل الأجرب .

أو تستعمل أسماء من العيوب الجسديه مثل الأشرم والأحول والأعرج وللمعادن نصيب أيضا فى الأسماء مثل ذهب وفضة وحديد وكذلك للحجارة مثل صخر وجبل .

ومن أسماء الكواكب نجم وقمر وشمس .
وهناك أسماء أخرى من الشعوب التى عاشت فى مصر مثل الأسماء التركية والمغربية والسوادنية والافريقية .

على أن بعض الأسماء ليس لها معنى ولا تدل على شىء .

أما أسماء الإناث فالمسلمات تكون التسمية على أسماء آل البيت والأسماء العربيه القديمه والحديثه كما تستعمل حاليا كثير من الأسماء الأوربية .

الأعياد

الأعياد أفراح جماعية يشترك فيها الجميع ، كل الفلاحين وكل أصحاب الحرف والحاكم والمحكوم ورجال الدين والرجال والنساء والأطفال .

اعياد دينية وأعياد لبعض فصول السنة . . مواسم الحصاد وفيضان النيل بشيرا بتوفير المياه الكافية للزراعة ، وأعياد لذكرى المعارك الحربية المنتصره .

أعياد دينية بدأت احتفالا بتقديس إيزيس طول مدة الفراعنة وعندما جاء الفرس علموا أهل مصر الاحتفال بعيد النيروز وعندما جاء الرومان كانت الأعياد لتقديس الأباطرة وكانت احتفالاتها تجمع كل نقيض صلاة فى المعابد ثم سكر وعربدة فى الساحات والطرقات .

فلما جاءت المسيحية كانت الاحتفالات بعيد الميلاد تبدأ بالصيام وتنتهى بالصلوات فى الكنائس وتبادل التهانى والهدايا ولبس الجديد من الملابس وجاء الإسلام فكان له فى كل عام عيدان ، عيد عقب صيام شهر رمضان والثانى يكون فى اليوم التالى لوقوف الحجاج على جبل عرفات ، الأول يحتفل به الناس عقب إنتهاء الصوم بصناعة الحلوى والفطائر والكعك وأكل الفاكهة والمشروبات الحلوة ويلبس الكبار الملابس الجديدة ويلبس الصغار الملابس الملونة الزاهية ويلعبون باللعب التى تفرحهم وتدخل السرور على أنفسهم ويركبون المراجيح . أما العيد الكبير الذى يحل فى موسم الحج ففيه تنحر الضحايا من الخراف والماشية وتوزع اللحوم على الأهل والجيران والفقراء ويعبر البسطاء عن العيدين فيقولون إن عيد الفطر هو عيد الكعك وعيد الأضحى عيد اللحم .

ثم زادت الأعياد الدينية الإسلامية مع توالى الحكام فظهر فى عهد الفاطميين عيد عاشورا فى اليوم العاشر من شهر محرم وقيل إنه للاحتفال بذكرى استشهاد الحسين وابتدع له نوع من الحلوى يسمى عاشورا يصنع من عشرة أنواع من الحبوب واللبن والسكر مثل القمح وزبيب العنب واللوز والبندق والجوز والفول السودانى وجوز الهند والصنوبر .. وعيد مولد النبى صلوات الله عليه فى الثانى عشر من ربيع الأول وعيد ليله الأسراء وعيد نصف شعبان والاحتفال بارسال المحمل الى الحجاز قبل موسم الحج .. ولكل من احتفال عاشورا والمحمل عراسم وطقوس تجرى بالعاصمة ـ القاهرة ـ فلا يحتفل بها فى القرى الا ان عيد عاشورا كان احتفاله بالقرية قاصرا على الصوم فى هذا اليوم وتناول طعام العاشورا .

اما الاحتفال بيوم النيروز الذى بدأ فى عهد الفرس ثم حدد موعده فيما بعد برأس السنة القبطية فانه استمر الى ان ابطله السلطان برقوق الذى تولى حكم مصر عام ٧٨٤هـ .

كان الاحتفال بهذا اليوم يعم كل القرى والمدن واستبشارا بالعام الزراعى الجديد .

كان الناس يغنون ويمارسون العاب الفروسية والرياضة ثم تحول الاحتفال بالنيروز الى صورة ماجنة فكان يجتمع أراذل الناس على ابواب الأكابر والأعيان ويجعلون لهم أميرا يرأسهم ويقودهم يسمى أمير النيروز فيقرر مبلغا على كل دار يقفون عندها فمن اعطاهم كفوا عنه ومن امتنع اشبعوه شتما وسبا .

ويقفون فى الطرقات يرشون الناس بالماء النجس ويضربونهم بالبيض النىّ أو الفاسد حتى أصبح الناس يخافون هذا اليوم فيبقى اكثرهم داخل منازلهم ويقفلون الأبواب والنوافذ خوفا من السفهاء وتغلق الدكاكين وتتعطل الاشغال .

فلما رأى ذلك السلطان برقوق ألغى هذا الاحتفال وانتهى أمره .

بدأ الاحتفال بالنيروز عيدا وطنيا زراعيا وانتهى بصورة هزلية فأحسن السلطان صنعا بإلغائه .

أما اعياد الربيع فان عيد شم النسيم هو عيد قومى يحتفل به الجميع على اختلاف أديانهم . وهو عيد بداية الربيع وقد ظل عيدا ثابتا على مدى تاريخ مصر . يحتفل فيه كل الناس بالخروج الى الحقول والحدائق والأنهار وشواطىء البحار احتفالا بانتهاء الشتاء وابتهاجا بقدوم الربيع . وفى القرية يحتفلون به بتلوين البيض - بعد سلقه - ألوانا زاهية جميلة والطعام المفضل فى هذا اليوم هو البصل والفسيخ والليمون والخس والحمص الأخضر ويسمى الملانة . ويميل البعض الى الشراب والرقص والغناء استمتاعا بيومهم .

ويسبق الاحتفال بشم النسيم الاحتفال بسبت النور حيث يشعل الناس داخل دورهم او فى الطرقات اكواما صغيرة من قش الشعير ويكون ذلك ليلا ويحدث قش الشعير اصواتا (طقطقة) ويعبر الكومة وهى ملتهبة الرجال والصبية والبنات قائلين . . . يا براغيت الشتوية روحى لخالتى صفية . . وغير ذلك من الأغانى الخفيفة . . ومن عادة الكثير من أهل القرية ان يتكحل يوم سبت النور اعتقادا ان ذلك يعطى العين الصحة والسلامة والوقاية من الرمد طول العام . ويضع الكحل الرجال والنساء والأطفال .

وفى العيد - أى عيد - يتبادل الناس التهنئه قائلين « كل سنة وانت طيب » ويضيف البعض تمنيات طيبة لمن يبادله التحية فيقول للشابة التى لم تتزوج بعد « كل سنة وانت طيبة والسنة الجاية تكونى فى بيتك إن شاء الله » اى تكونى تزوجت وأصبح لها بيتا مستقلا . او يقول الرجل للآخر فى عيد الحج . . كل سنة وانت طيب والسنة الجاية على جبل عرفات .

وفى العيد الكل يفرح او يحاول ان يفرح وينسى الهموم والتعب او يحاول ان ينسى الخصومات والخلافات .

يبدأ الفلاحون يوم العيد بعد الصلاة بزيارة قبور الموتى والترحم عليهم وتذكر أيامهم وبعد العودة من زيارة القبور يزورون الأهل والجيران حيث تقدم انواع الحلوى والفاكهة وكل شراب مستحب مثل القهوة والشاى الآن .

وفى الحقيقة ما احوجنا الى العيد - أى عيد - لننسى متاعب الحياة وقسوتها وجفوتها ولنزيح الملل ومتاعب العمل ونحس بنبض الحب بين الأفراد وبين الجماعات .

نقف مع الزمان لحظة او لحظات نحاول فيها الشعور بالسعادة والفرحة ونسيان المتاعب والآلام - نقف لحظات من العمر نستعذب فيها الحياة ونتذوقها حلوة فنستقبل الأيام القادمة بعزم جديد ونشاط متجدد وآمال نرجوها سعيدة لأنفسنا وللناس جميعا .

التحية والسلام

أسلوب التحية بين كل المصريين فى الريف والحضر لا يختلف
تحيتهم سلام ودعواهم سلام .

السلام عليكم . . . والرد . . . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . لأن من آداب الإسلام رد التحية بمثلها أو بأحسن منها .

ومع السلام عند الرحيل أو السفر . . . وحمدا لله على السلامة عند العودة وألف حمدا لله على السلام للمريض بعد شفائه .

أو التحية بالخير صبحا ومساء . . . صباح الخير . . .مساء الخير او التحية بالسعادة .

صباح الخير . . . نهارك سعيد . . . مساءك سعيد . . . ليلتك سعيدة . . . العواف . . . أى تمنى العافية والصحة .

ازيك . . . وكيف حالك .

وحشتنا . . . مشتاقين .

أهلا وسهلا للترحيب . . يا ألف أهلا وسهلا . . . شرفت . . . نورت . . . آنست .

زارنا النبى .

يا تلتميت مرحبا .

والتحية عند اللقاء تكون بتصافح الأيدى اليمنى . وبالأعناق والقبلات إذا كان الشوق زائدا او بعد طول الغياب .

والتحية من بعيد تكون برفع اليد اليمنى .
والعادة أن من هو أصغر سنا أو مقاما أو أقل علما هو الذى يبدأ بالتحية . . .
والشخص الراكب هو الذى يحيى الجالس أو الماشى .

ولا تلقى التحية على المرأة إلا اذا كانت من الأهل أو المعارف .

ويحيى صاحب الدار أو عضو الأسرة من فى الدار عند دخول البيت .

وهناك اصطلاحات محفوظة تعارف عليها الفلاحون تقال لمناسبات خاصة .

مبارك اذا لبس الجديد ، وكل عام وانت بخير يوم العيد ، يرحمك الله اذا عطس وحمدا لله ، والعاقبة للبنين والأحفاد عند الزواج ، ومبروك ما جالك إذا أنجب . ونوم العافية اذا نعس ، وصح النوم اذا استيقظ ، وهنيئا اذا شرب ، وما شاء الله اذا ركب ، وحج مبرور اذا حج او عودا إن شاء الله ، وأجر وعافية اذا مرض ، والبقية فى حياتكم اذا مات له أحد ، وحرما اذا صلى وماء زمزم اذا توضأ ونعيما اذا استحم او حلق شعره ، وشدة وتزول اذا نزل به مكروه .

الاحترام

الاحترام سلوك كان يفرض نفسه على اهل القرية ولكل شخص مقام ومنزلة وله احترام وتقدير حسب مكانته ، عمدة القرية وكبير العائلة والفقيه والشيخ .

ويتمثل الاحترام فى طاعة الأمر وتنفيذ المشورة وسماع النصيحة وتقبيل اليد والوقوف عند مرور من هو أعلى مكانة والنزول من على الدابة عند المرور على الجالسين اذا كانوا اكبر سنا أو مقاما .

يقبل الواحد من الناس يد الرجل العظيم والمقصود بالعظيم هنا هو الأكبر مقاما أو سنا أو علما ولرجال الدين والمشايخ والأولياء مكانة تفرض احترام الناس لهم .
والأبناء يقبلون يد الأب والأم احتراما وحنانا وكذلك يد العم والخالة والجدة يقبل ظهر اليد فاذا أراد المبالغة فى الاحترام قبل ظهر اليد بطنها ثم يضع ظهر اليد على جبينه .
ولكن الرجل العظيم أو الكبير سنا أو مقاما أو علما لا يترك يده عادة لمن يريد ان يقبلها فهو يحاول سحبها تواضعا وأدبا .

والزوجة تقبل يد زوجها ولا تجلس إلاّ إذا سمح لها .

وامتد الاحترام الى الطعام فاذا وجد شخص لقمة عيش ملقاة على الأرض أخذها وأزال ما عليها من تراب ثم قبلها ويضعها على جانب الطريق حتى لا يدوسها أحد . ويحاذر ان يدوس القمح وفى رجله حذاء كما لا يراق اللبن على الأرض حفاظا على النعمة وصونا واحتراما لها .

ليالى القرية

إذا أقبل الظلام وساد القرية سكون له رهبة ، تقل الحركة ويأوى الناس الى منازلهم ويزداد هذا السكون وتلك الرهبة فى ليالى الشتاء فهى بطبعها باردة طويلة أشد ظلمة من ليالى الصيف لكثرة السحب .

ولا يسهر الناس طويلا . وعندما يحل الظلام يحل معه الخوف اذا كانت القرية غير آمنة ولا مطمئنة اذا كان هناك حالات ثأر بين بعض العائلات أو إذا كانت هناك عصابات سطو وسرقة وقطع طرق ، ومع نزول الظلام ايضا يخشى الناس من الحيوانات المفترسة والشرسة مثل الذئاب والثعالب والكلاب الضالة ويخشون أيضا الهوام التى لا تنشط الاّ ليلا مثل الثعابين والعقارب والعناكب والفئران وابن عرس .

وهناك ايضا من يخشى مع الظلام من الجن والعفاريت وما لا أساس له من أوهام وخرافات .

من أجل هذا يحل السكون على القرية بعد صلاة العشاء بقليل وتخلد الى الراحة ولا يسمع الاّ نباح الكلاب ونقيق الضفادع . . . واذا بقى من يسهر بسبب زيارات الضيافة أو بعض المصالح فإنهم لا يعودون إلى منازلهم وحدهم بل من الضرورى أن يصاحبهم من يؤانسهم ويطمئنهم إلى أن يصلوا منازلهم فى أمان وينام الجميع نوماً طويلا بعد يوم حافل بالعمل . وهناك من تتجافى جنوبهم عن المضاجع همّا أو غماً أو خوفا أو مرضا أو جوعا أو بردا أو قلقا . . . جفون حشاها السهر أرقا لاترى النوم ويطول بها السهاد .

مهموم لديون ثقلت عليه أو المتاعب مع السلطة وأعوانها ورجالها أو لآفة أصابت زرعه أو مرض انتاب ضرعه أو غرق أو شرق تعرضت له أرضه .

والخائف الذى يخشى الثأر أو السطو على منزله أو خائف من عفريت أو مريض يعانى من آلام مرض يوجعه ويشقيه ويرجو الصباح عساه يجد دواء يشفيه .

أو بردان لا يجد ما يلتحف به فى ليل الشتاء البارد وينتظر النهار بشمسه ودفئه .

والكل ، من نام ومن لم ينم ، تضايقه الحشرات اشكالا وألوانا . . بعوض يطن ويلدغ ليمتص الدماء ، وبراغيث وبق وقمل وصراصير وفئران وكلها تسهر الليل نشطه تؤدى رسالتها حتى إذا ظهرت تباشير الصباح هدأت وسكنت ولاذت إلى جحورها وأوكارها ومخابئها ليتولى المهمة نيابة عنها أثناء النهار الذباب بأسرابه الذى يهاجم ويزداد عنداً كلما زاد طرده وهشه

وتتغير صورة ليالى القرية كثيرا عندما يضىء القمر فتدب الحركة فى القرية ليلا ويلعب الأطفال ردحا من الليل فى براءة وبساطة

ويصبح ليل القرية جميلا يحلو فيه السهر مع الأصدقاء والأقارب والجيران أما ليالى شهر رمضان فإن لها شأنا آخر وخاصة إذا صادف شهر رمضان فصول الربيع والصيف .

« الموالد والأسواق والاحتفالات العامة »

الموالد

تكاد لا تخلو قرية من وجود ضريح شيخ انتقل الى جوار ربه من فترة قريبه أو بعيدة وينسب له القرويون كرامات وبركات ، ويحددون له موعدا ثابتا كل عام للاحتفال بذكراه ويسمى هذا الاحتفال « بالمولد » ويكون المولد كبيرا أو متوسطا أو صغيرا حسب منزلة الولى وشهرته ومكانته واكبر الموالد هى السيد البدوى فى طنطا وابراهيم الدسوقى فى دسوق ومولد الحسين والسيدة زينب فى القاهرة وعبد الرحيم القنائى فى قنا

والموالد فى القرى قد تكون يوما أو ثلاثة ولكنها فى الغالب تمكث أسبوعا . وهى مهرجان تختلط فيه الأنشطة المختلفة فرجال الدين وفى مقدمتهم خليفه الولى يقيمون السرادقات الكبيرة ويتجمع المريدون واتباع الشيخ حيث يقيمون حلقات الذكر كل ليلة ويقدم لهم الطعام من اللحم والأرز والفت يقدمه الشيخ بسخاء وكرم لان المريدين كانوا أسبق بالجود والكرم فقد حضروا من قراهمُ ومعهم الذبائح التى نذروها من الخراف أو الماعز أو العجول علاوة على الخبز والأرز والسمن والفاكهة والجبن والبن والشاى والسكر

يقدمونها للشيخ أو الخليفة فى سخاء ورضاء ومحبه ومنهم من يضيف الى هذا مبالغ من المال كل على قدر طاقته

وقد تتخلل سهرات المشايخ دروس دينية وترتيل القرآن والتواشيح الدينية

هذا هو الجانب الأصلى فى الاحتفال بالمولد لأن الفكرة دينية ولكن هناك جوانب اكثر نشاطا وقد يتنافى بعضها مع الدين والأخلاق فقد تقام ملاهى مختلفة الأنواع وهى تقام عادة فى خيام كبيرة بها كراسى خشبية على شكل مدرجات يجلس عليها المتفرجون

يوجد السيرك الذى يعرض الحيوانات المدربة من الخيل والأسود والفيله والكلاب. كما يعرض ألعابا رياضية يقوم بها شبان وفتيات ويسميهم الناس البهلوانات

ويوجد المرقص الذى تقدم فيه رقصات تعرضها نساء محترفات هى غالبا من الغجر

وأماكن أخرى لمعرض أعمال السحر والحواه. وأخرى تقدم تمثيليات هزلية تضحك الناس وتنسيهم همومهم

وهناك عروض أخرى من الشجاع بارز العضلات عندما يربط بالسلاسل الحديديه ويفكها. أو يحمل أثقالا من الحديد

وفى طرقات المولد يوجد من يقوم بعملية الوشم فيرسم بإبر تعمل ببطارية كهربائية مستخدما حبرا أزرق ويختار مكان الرسم حسب رغبة الشخص فقد يكون الوشم على الصدغ أو على ظهر الكف أو على الذراع، وقد تتقدم بعض البنات أو السيدات لوشم الشفة السفلى أو ظهر الكف فإنها عملية من عمليات التجميل

وتزدحم طرقات مكان المولد بمحلات التجارة التى تقام مؤقتا لمدة أيام المولد فقط، والسلعة الأساسية التى تجد رواجا هى الحمص والحلاوة حتى ضرب المثل الذى يقول ... راجع من المولد بلا حمص .. وأنواع أخرى من الحلوى والفاكهة والمأكولات والاطعمه التى يقوم بطهيها وتقديمها لمن يطلبها طباخون حضروا لهذا الغرض

وقد تقام عصرا حلقات للتحطيب وهى لعبة العصا أو النبوت ويقدمها الهواة استعراضا لفنهم أو مهارتهم

كما يقام عصرا أيضا سباق للخيل يقدمه الخيالة من القرى المجاورة

ويزور الناس مقام الولى تبركا ويضعون نقودا فى صندوق النذور الذى يمتلىء بالنقود كل يوم ويقوم الخليفه أو شيخ المقام بتفريغه وإعادته إلى مكانه. وتوزع هذه النقود على

ورثة الولى وخدم المقام والمسجد وقد يستأثر بها الخليفة لنفسه إذا كان قوى النفوذ ولا يستطيع أن ينافسه أحد

وتكثر المشاجرات فى الموالد وينشط النشالون واللصوص ويتوه الأطفال من ذويهم وتضيع الحمير من أصحابها ولهذا تعمل الشرطة احتياطاتها لمواجهة كل هذه الحالات

الأسواق

الأسواق لها أهمية إقتصادية واجتماعية فى حياة الفلاح وتقام أسواق صغيرة فى القرية تسمى سويقه ولكن السوق المهم هو الذى يقام فى المدينة ـ البندر ـ وقد يطلق عليه السوق الكبير تمييزا له عن أسواق القرى

والغرض الأساسى للسوق هو التجارة ولكن نظرا لأنه يقام فى عاصمة المركز فإن الفلاح ينتهز فرصة ذهابه إلى المدينة ويقضى كل مصالحه الأخرى

يذهب أغلب الفلاحين إلى السوق حاملين معهم ما يفيض عن حاجتهم من إنتاجهم سواء كانت منتجات زراعية أو حيوانية أو أشياء من صناعة القرية

يحملون معهم القمح أو الذرة أو الحبوب أو الفاكهة وقد يحمل البرسيم أو التبن وتحمل الفلاحة معها الأوز أو البط أو الفراخ والبيض والزبد والسمن والجبن وهناك من يحمل بعضا من صناعته وإنتاجه مثل الحصر أو المقاطف المصنوعة من خوص النخيل أو الحبال المصنوعه من الليف

كما يأخذ الفلاح الماشية التى يريد بيعها أو التخلص منها إستعدادا لشراء ماهو أفضل

ويذهب الفلاحون الى السوق مشاة أو يركبون دوابهم ويتركون الحمير فى مكان يسمى الوكاله نظير أجر بسيط قدره قرش أو نصف قرش نظير إيواء الحمار لمدة نهار يوم السوق

يبيع الفلاح الفائض من إنتاجه ويشترى ما تحتاجه الأسرة من السوق من ملابس وأدوات ومواد غذائية لا توجد فى القرية مثل السكر ، وما يشتهيه الأطفال وما تطلبه الزوجات والبنات

وقد يذهب إلى الطبيب إذا كان مريضا ولم تنجح فى مداواته الأحجبة والأدوية البلدية

ويعتبر يوم السوق يوم أجازة فيمتنع اكثر الفلاحين عن العمل فى حقولهم الا للضرورة . ويذهبون للسوق حتى لو لم تكن لهم حاجة للبيع أو الشراء أو قضاء المصالح وقد يقع الفلاح فريسة لنصاب أو نشال أو لص

وأحيانا يؤخذ منه حماره إذ يهجم عليه شخص موظف فى جمعية الرفق بالحيوان ومعه أحد رجال الشرطة ويرفعون البردعة من على ظهر الحمار فإذا وجد جرحا أو تقيحاً فى سلسلة الظهر أخذوا الحمار عنوة فان قاوم الفلاح أوسعوه صفعا وضربا ووكزلا ويأخذون الحمار إلى عاصمة الإقليم حيث ما يسمى « الشفخانه » لعلاج الحمار من جرحه ويمكث هناك الشهر والشهرين والثلاثة وعندما يتم شفاؤه يرسلون فى طلب صاحبه لاستلامه فيذهب ليجد أن قائمة حساب علاج الحمار اكثر من ثمنه وقد تبلغ الضعف والضعفين فإذا لم يكن لديه نقود لدفع هذا الحساب وقع على تعهد ليحصل منه بمعرفة صراف القرية

وهكذا كان الحمار فى ذلك العهد يجد جمعيه تترفق به ولم يجد الفلاح مثل هذه الجمعية ... ولن يجدها .... ! !

ويجد البعض فى ذهابه الى البندر يوم السوق فرصة للاستمتاع البرىء أو غير البرىء منهم من يذهب الى مطعم - المطبخ - ليأكل طعاما أشهى مما يتناوله فى منزله ومنهم من يجلس على القهوة ويطلب ما تشتهيه نفسه من مشروبات خفيفة

على ان البعض قد ينتهز الفرصه ليشرب البيرة أو الخمر أو البوظة ويظل يشرب حتى يغيب عن وعيه ويقول عنه أصحابه إنه « مبسوط شويه »

الاحتفالات العامة

تحتفل القرية كلها احتفالات عامة ويشارك الجميع فى الاحتفال واكثرها إن لم تكن كلها دينية إبتدع أكثرها أيام حكم الفاطميين مثل الاحتفال بيوم مولد النبى ويوم عاشوراء وليلة السابع والعشرين من شهر رجب وهى ليلة الإسراء أو المعراج وكذلك ليلة النصف من شعبان .

وهذه الاحتفالات وإن كانت بدعة إلا أنها تعتبر بدعه مقبولة ولا غبار عليها إذا بقى الاحتفال فى حدود مارسمه الدين وما تفرضه مبادىء الأخلاق والسلوك المستقيم فإن خرجت عن ذلك تصبح بدعة غير مقبولة ولا مشروعة .

وكانت القريه تحتفل بعيد النيروز ولكنه أبطل لما كان يحدث فيه من تهريج وإسفاف وخروج على قواعد الآداب

أما يوم شم النسيم فهو عيد منذ القدم وهو عيد الربيع

ويحتفل أهل القرية بسفر الحجاج من أهلهم إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلوات الله عليه

ويزداد الاحتفال أهمية عند عودتهم بسلامة الله لأن الحج لم يكن مأمونا ومخاوف الطريق ومتابعه كثيرة علاوة على التعرض للامراض الوبائية مثل الكوليرا والجدرى . والتعرض لضربات الشمس والنزلات المعوية

الطرق الصوفية

لم تكن الصوفية أو الطرق الصوفية معروفة فى صدر الإسلام ولكنها ظهرت بعد القرون الأولى حتى عمت جميع أرجاء العالم الإسلامى

وفى مصر طرق صوفية كثيرة ولكن الطرق الرئيسية محدودة العدد وهى

الشاذلية :

وتنسب إلى مؤسسها السيد أبو الحسن الشاذلى وهو مغربى الأصل عاش فى مصر ودفن بالصحراء الشرقية بالقرب من ساحل البحر الأحمر مقابل محافظة أسوان وليس لأتباع الطريقة الشاذلية لباس مميز

الرفاعية :

وتنسب للسيد أحمد الرفاعى الكبير المدفون بالقاهرة فى المسجد المعروف باسمه فى ميدان القلعة

وأتباع هذه الطريقة أعلامهم وعمائمهم سوداء

القادرية :

أسسها السيد عبد القادر الجيلانى المدفون فى بغداد وبيارق الأتباع والعمائم بيضاء

الأحمدية :

أسسها السيد أحمد البدوى المدفون فى طنطا وبيارقهم وعمائمهم حمراء

البرهامية :

نسبة للسيد إبرهيم الدسوقى المدفون فى دسوق بيارقهم وعمائمهم خضراء
وهناك طرق أخرى كثيرة مشتقة من الطرق السابقة أو تنتمى إليها مثل البيومية والدمرداشية والنقشبندية والبكرية والخليلية

ولكل طريقة ورد يتلى فى مواعيد محددة مثل الصباح والمساء والورد عادة يتكون من الاستغفار وتلاوة بعض أسماء الله الحسنى ٩٩ مرة لكل إسم ثم الصلاة على النبى ثم بعض أدعية مأثورة ويختم بتلاوة بعض آيات قرآنية وفى النهاية سورة الفاتحة

وتنتشر الطرق فى القرى والمدن ولكل طريقة شيخ كبير هو رئيس الطريقة وله خلفاء فى المدن والقرى

وشيخ الطريقة والخلفاء لهم وحدهم حق إعطاء « العهد » للمريد الجديد وهو ميثاق يرتبط به المريد أو التابع بتقوى الله والمحافظة على شعائر الاسلام وتلاوة الأوراد والاستقامة ومساعدة الضعفاء والفقراء والتعفف عن الصغائر وغير ذلك مما فرضه الاسلام على كل مسلم

ويقيم الأتباع والمريدون اجتماعات دينية تكون عادة بعد صلاة العشاء يومى الإثنين والخميس وقد يزيد البعض إجتماعا ثالثا عقب صلاة الجمعة

والاجتماعات تكون فى المسجد وأحيانا فى منزل أحد المريدين

ويبدأ الاجتماع بدرس دينى ثم يتلوه حلقة ذكر حيث يقفون على هيئة دائرة مغلقة ويذكرون الله بلفظ الجلالة .. الله .. الله أو .. حى .. حى وأيديهم متشابكة ويهزون النصف الأعلى من الجسم يمينا ويسارا أو الى الأمام والخلف

ويسمى ذلك « حضرة » ويقف رئيس الحضرة داخل حلقة الذكر ينظمها ويقودها وينشد المنشدون أشعارا من تأليف كبار الصوفية مثل شعر رابعة العدوية وذا النون المصرى وابن الفارض وابن عربى والبوصيرى وأيضا ينشدون لشعراء محدثين

والقصائد التى تنشد تعبر عن الحب الإلهى أو تكون مدحا فى النبى صلوات الله عليه ومن أمثله قصائد الإنشاد قول رابعة العدوية :

احبك حبين .. حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا
ومن اشعار ذو النون المصرى
مناى المنى كل المنى انت لى منى
وانت الغنى كل الغنى عند اقصارى
وانت مدى سؤلى وغاية رغبتى
وموضع شكواى ومكنون إضمارى

وقد يصاب بعض الذاكرين بنوبات صرع نتيجة الانفعال والذكر والإجهاد ثم يجلس الذاكرون ويتلى القرآن وتوزع أكواب مشروب ساخن .

الرياضة والتسلية

عرفت القرية الرياضة منذ القدم سواء للرجال أو الأطفال ومن أنواع الرياضة التى عرفها المصرى منذ فجر التاريخ المصارعة وهى التى تسمى الآن (الملابطه أو اللبط) وهى قريبة من

المصارعة الحرة ووصل الاهتمام بها أنها كانت تجرى فى احتفالات عامة أمام الملوك وعلى سبيل المثال ما هو مدون على معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو بطيبة من الأسرة ، التاسعة عشرة حيث تصور الرسوم المختلفة فريق المصارعين وهم يتصارعون فى هيئة استعراض أمام الملك رمسيس الثالث ومعه ضيوفه

وكذلك لعبة المبارزة بالعصا (التحطيب) ويشاهد فى النقوش والكتابات الهيروغليفية بالأقصر طريقة اللعب بالعصا

وكانت الفتيات مغرمات بلعب الكرة ولايزال الأطفال فى القرية حتى اليوم يرددون نفس الألفاظ القديمة (سنو ـ كحكو ـ شكا) فالكلمة سنو معناها إثنان وكحكو معناها ينحنى وشكا يضرب

كما كان البنات مغرمات بلعبة النطة وذلك بأن تنحنى الفتاة وتقفز الأخرى على ظهرها فى مرح ونشاط

ومن الألعاب التى كانت سائدة قديما السباحة والتسابق جريا

ولاتزال فى القرية اليوم ضروب من الرياضة مثل التحطيب وركوب الخيل وان كان على وشك الاختفاء والسباحة والجرى والمكحوش وهو أشبه بلعبة الهوكى والكرة وهى أهم لعبة اليوم وأصبحت لعبة شعبية الاهتمام ويحبها الجميع

ومن وسائل التسلية للكبار لعبة السيجة والطاولة والدمينو ولعب الورق وعادة تكون هذه التسالى ليلا على مقهى أو فى المنزل . ولعب التسلية يكون دون رهان لأن الدين يحرم الميسر ومن فعل ذلك فإن مجتمع القرية يستنكره

وفى القرى الآن نوادى للشباب ولكنها لم تؤد رسالتها حتى الآن

وقد تطور الموقف وتغير بعد وصول الراديو والتليفزيون للقرية

وللأطفال لعبهم وتسليتهم يلعبون الاستغماية والنطة والعشرة والعشرين والتعلب فات والغراب النوحى وعسكر وحرامية وشفت القمر والقطشة والجرى والاستحمام فى الترعة

وإذا خسف القمر تجمع الأطفال يطبلون ويقرعون الصفائح الفارغة ويطوفون فى شوارع القريه وهم يغنون

ياأولاد الحور سيبوا القمر ينور

وإذا اختلف الأطفال تخاصموا بتشابك الخنصر مع الخنصر فإذا تصالحوا تصافحوا بإصبعى السبابة والوسطى ثم يقبل كل واحد أصبعيه بعد المصافحة

الخرافات والأوهام

ساد مجتمع القرية كثير من الخرافات والأوهام ولقد اختفى كثير منها فى السنوات القليلة الماضية نتيجة التقدم الحضارى النسبى ، وان كان البعض لا يزال متأثرا بها .

وفيما يلى ذكر لبعض هذه الخرافات :

الجن والعفاريت

ظل الناس فى القرية والحضر أزمانا طويلة يعتقدون ان الجن والشياطين والعفاريت تعايشهم وان لم تظهر لهم لانها فى اعتقادهم اجسام نارية غير منظورة واخذت الاعتقادات صورا شتى

عفاريت مؤذية تسكن الاماكن المهجورة تتشكل على هيئة انسان او حيوان مثل القط أو الكلب أو الحمار

ومنها المارد الطويل الذى قد يصل طوله اكثر من الاشجار العالية
ومنها ما يطلق عليه ابو رجل مسلوخة

وأناث من الجن تسمى أم بزاز حديد أو أم الشعور تقابل الرجل فى مكان مهجور وتحتضنه بقوة حتى تقضى عليه

ومن الاعتقادات ان بعض الرجال من البشر يتزوجون من جنيات

وبعض من يحترفون الدجل كانوا يوهمون البسطاء انهم على علاقة بالجن يسخرونهم فى قضاء المصالح ومعرفة المسروق ومرتكبى الجرائم ومعرفة المستقبل ويطلق على هؤلاء اسم « مخاوى » أى له أخ من الجن

واذا ظهر أحد الشهب فى الليالى المظلمة قالوا إنها تقذف العفاريت وقالوا « سهم الله فى عدو الدين »

ومن المعتقدات ايضا ان الجن والعفاريت والشياطين تسجن فى شهر رمضان

الغول

الغول حيوان خرافى كان يشغل افكار الناس من قديم الزمان وجاء ذكره فى اشعار العرب قبل الاسلام وقد اختفى بمجرد ظهور الاسلام من حياة العرب اليومية ولكنه لايزال موجودا فى تراثنا الشعبى

وكان يحكى ان الغول حيوان لا يظهر بالنهار ولا يستطيع ان يرى الشمس أو نورها وتعيش فى سراديب تحت الأرض تأوى اليها نهارا وتخرج لمعاشها ليلا واحدى رجليها شبيهة برجل الآدمى والأخرى شبيهة برجل العنزه أو رجل الحمار ذات حافر مجوف وكان الشائع ان الغول أنثى وليست ذكرا

تأكل الحيوان والانسان اذا صادفته واذا وجدت طفلا سعدت بامتصاص دمه . واذا صادفها رجل وحياها بالسلام قالت له : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك . واذا لم يحيها إنقضت عليه وأكلته لحما وعظما .

النداهة :

وهى انثى من الجن تطرق باب الرجل ليلا فاذا فتح لها اخذته ومضت به الى المجهول فلا يعود .

بغلة عاشوراء

كان المعتقد أن بغلة عاشوراء هى جنى يتشكل على هيئة بغلة عليها خرج مملوء ذهبا وجثة قتيل تقطر دما وفى رقبة البغلة حبل به أجراس كثيرة صغيرة

يقرع الجنى الذى على صورة البغلة باب الشخص السعيد ليلا وعادة فى ليلة عاشوراء أى فى ليلة العاشر من شهر محرم الهجرى فيسأل صاحب الدار من بالباب . . . ؟ فيقول له الجنى افتح أنا فلان ويسمى له اسم شخص صديق يعرفه ويحبه . فيفتح ويأخذ الخرج ويفرغ الذهب ويملأ الخرج تبنا . أو نخاله أو أى شىء يصلح لأكل البغلة ويضع الخرج وجثة القتيل مرة ثانية بعناية وهدوء على ظهر البغلة ويقول . . اذهب يا مبارك . . بارك الله فيك .

الأحجبة والتعاويذ

الحجاب ورقة يكتبها فقيه بالقرية أو معلم الكتاب ويكتب على ورق ابيض عادى وقد تكون بالمداد الاسود أو الأحمر أو بماء ملون كما الزعفران أو ماء لا لون له وله رائحة مثل ماء الورد

قد تكتب بعض آيات القرآن أو بعض أسماء الله الحسنى وأسماء بعض الملائكة أو الرسل أو الجن وعادة تكتب بحروف منفصلة ، ويضاف لها اعداد وتوضع على اشكال هندسية مربعة أو مستطيلة أو دائرية أو مثلثة

وتطبق الورقة على هيئة مثلث وتعطى للمريض أو صاحب الحاجة ليحملها معه ولمزيد تجنب الحسد أو التقليل من آثاره أو التغلب عليها يحاولون ذلك بطرق بداثية أو متوارثة أو متعارف عليها جيلا بعد جيل

ففى القرى مثلا تؤخذ قطعة من أثر الحاسد من ملابسه أو شعره تحرق مع قطعة من الشبة قبيل الغروب ويبخر بها الطفل أو الشخص المحسود الذى أصابته العين

تؤخذ قطعة من الشبة فى حجم الليمونه وتوضع على الجمر أو فوق صفيح ساخن فتسيح الشبة وتأخذ اشكالا مختلفة واثناء وضعها على النار تتلى أدعية ويتوهم الناس ان قطعة الشبة تأخذ شكل الحاسد وصورته فينظرون اليها مؤكدين أنها كشكل فلان الذى يعتقدون انه الحاسد .

وتوضع قطعة الشبة وسط طعام مثل لقمة عيش طرية وترمى لكلب أسود

ويؤلف أهل القرية حكايات كثيرة وهمية عن الحسد والحاسدين من بين أهل القرية الذين اشتهروا بذلك ، فأى حادثة أو كارثه تقع فى القرية أو مرض شخص . . كل ذلك مرجعه الحسد

وقد يبتلى انسان بأن يشتهر بين ابناء القرية بأنه حسود وعينه لا تخيب فيتجنن الناس ويتشاءمون منه ولا يحبون زيارته أو الجلوس معه

واذا مرض طفل فان والدته تحضر ورقة وتخرقها بإبرة مرات متتالية وهى تقول :

رقيتك من عين أمك وعين أبوك
رقيتك من عين اللى شافوك
عين المره فيها شرشره
عين الراجل فيها مناجل

ثم ترمى بالورقة فى النار مع قليل من البخور .

ولاتقاء الحسد قد توضع خرزة زرقاء على الرأس أو تعلق فى الصدر أو حلية على هيئة كف وتسمى خمسة وخميسه أو تخرق اذن الطفل الذكر أو يعلق حذاء فى رقبة الماشية

العلاج والوقاية من الامراض

لما كانت صحة الانسان اهم شيء فى حياته لهذا كانت الخرافات المتصلة بالمرض وعلاجه قديمة متوارثة متعددة الاشكال والأنواع منها التداوى بالأحجبة والتمائم أو وضع خرزة حمراء على العين المصابة بالرمد أو ارتداء جلابية حمراء للطفل المصاب بمرض الحصبة أو يقوم أهل الطفل باستجداء نقود معدنية أو فضية وتصهر ويعمل منها طوق يوضع حول الرقبة . واحيانا يجمعون أوراقا خضراء عصر يوم الخميس من سبع شجرات وتنقع الأوراق فى الماء طول الليل حتى ضحى يوم الجمعة وقبل صلاة الجمعة تقوم إحدى قريبات المريض برش الماء والأوراق داخل المنزل وعلى عتبة الدار وفى الحوارى والشوارع القريبة ثم فى النهاية على باب مسجد القرية واثناء الرش تتلى أدعية وكلمات لشفاء المريض

واحيانا يؤخذ الطفل المريض ويوضع على عتبة المسجد اثناء صلاة الجمعة وتقيد أرجله ويوضع فى حجرة بيض مسلوق أو فطائر صغيرة أو حلوى وعندما تنتهى الصلاة يقوم أول شخص من المسجد بفك القيد ويأخذ ما فى حجر الطفل

وطاسة الخضة كان لها شان وأهمية وهى طاسة صغيرة من النحاس أو الفضة مكتوب عليها آيات من القرآن توضع داخل كيس وتحفظ فى فى دولاب أو مكان مظلم حتى لاتتعرض للضوء .

وتشترى عادة من مكة ويحضرها أهل القرية دون أجر أو ثناء إلا رجاء المثوبة من الله

والطفل أو الكبير الذى اصيب بمرض نتيجة خوف اصابه من شيء أو وقع على الأرض أو سقط من على ظهر دابة يشرب الماء من هذه الطاسة ليلا أو فى مكان مظلم فينصرف عنه السوء والخوف

وهو علاج نفسانى ولا شك

ومن صور العلاج الوشم على الصدغ أو المفصل لإزالة أمراض الصداع والآلام الروماتيزمية . أو الكى بالنار لإزالة الآلام أو لطرد الجن والتوسل بالأضرحة واطلاق اسماء مستهجنة أو شاذة على المولود كى تطرد الحسد ويطول عمره كأن يسمى الطفل . . . شحات أو غراب أوحداية أو تعلب أو حنش أو جحش وغير ذلك

ومع ان أهل القرى يعتقدون فى هذه الخرافات الا انهم اطلقوا عليها اسم « علم الركة » نسبة الى علم الرقية والاصطلاح الأول تورية للاستخفاف بالسحر والشعوذة

ومن صور الخرافات ايضا مشهد كان يتكرر فى القرية بين سنة وأخرى اذ تعمل زفة تسمى زفة ابو الريش وتعمل للطفل الذى لا يعيش بعده أحد من إخوته إذ يعتقد أهله ان روحه شريرة وان علاج هذه الحالة يكون بعمل زفة كبيرة حتى يعلم أهل القرية جميعا ان هذا الطفل له روح شريرة بقصد اشهار أمره أى فضيحته ويعدون لهذه الزفة عدتها فيضعون على رأسه تاجا من ريش الطيور ويركب حمارا بالمقلوب فيكون ظهر الطفل ناحية رأس الحمار ويمسك بيده ريشة كأنها القلم وباليد الأخرى قرص جاف من روث الماشية ويتظاهر بأنه يكتب على القرص بهذه الريشة وأطفال القرية من حوله ينادون . . . ياأبو الريش إن شاء الله تعيش . . .

ويسأله الأطفال . . . انت ناطح أو رافس ، أى هل تنطح كما ينطح الثور أو ترفس كما يرفس الحمار

ويلزمونه بجواب ينطق به مكرها غير مختار فإن قال إنه ناطح وشموه بوشم أخضر فى منبت شعره فوق جبهته ، وان قال أنا رافس وشموه بوشم أخضر فوق عقبه الأيسر وإن قال أنا رافس ناطح وشموه فى الموضعين معا .

التوسل بالأولياء

من طبيعة الشعب المصرى تمجيد الأولياء والصالحين وقد أدى هذا التمجيد والمغالاة فيه الى ظهور صور من الخرافات والمعتقدات الخاطئة التى لايقرها دين ولا يقبلها عقل

يحب عامة الناس الأولياء ويؤثرونهم على أنفسهم ويعتقد الكثيرون ان الولى يستطيع ان يحل مشاكل الناس وييسر لهم امورهم يعتقدون ذلك فى الولى الحى والميت على السواء وربما كان التمجيد والتقديس للميت اكثر وأعظم

وينسبون لهؤلاء الأولياء كرامات وأعمالا خارقة للعادة لم يشاهدها أحد

ولكن يتناقلها الأفراد عن بعضهم بشغف ولذة وكل من ينقل قصة سمعها يضيف اليها من عنده الجديد والكثير .

وقد يكون الولى أو الرجل الصالح فى حياته قدوة طيبة ونموذجا فى أخلاقه وسلوكه ولكنه إذا مات فانه لا يستطيع ان يقدم خيرا او يدفع شرا ويؤكد ذلك القرآن فى مواضع

كثيرة ، أنه لا يستطيع ان يشفى مريضا أو ييسر رزقا او يجد عملا او يقرب حبيبا او يبعد عدوا .

وعند وفاة الولى او الرجل الصالح يقام له قبر خاص فوقه قبة ويوضع على القبر تركيبة من الخشب أو الرخام تغطى بالحرير وتنقش فوقه آيات من القرآن الكريم ويحيط بهذه التركيبة سور من الخشب او النحاس او البرونز او الفضة يسمى المقصورة .

ولا تخلو قرية من ولى له مقام وفى كثير من الحالات يقام مسجد بجوار المقام يسمى باسم الولى .

ويزور الناس الولى وخاصة النساء .

ومن المفارقات ان المسلمين فى الاسكندرية والبحيرة كانوا يتبركون بقبر الاسكندر المقدونى فى العصور الوسطى .

ان البركة والكرامة تكون فى القدوة الحسنة والسلوك المستقيم والخلق الكريم وممارسة العمل الشريف والترفع عن الصغائر .

النذور

بجوار كل ضريح صندوق كبير عليه قفل وعندما يزور الزائر قبر الولى يدور حول المقصورة مرة او سبع مرات ثم يصلى ويدعو الله وبعدها يضع فى الصندوق مبلغا من المال وقد يقدم شمعا للضريح .

والمسيحيون ايضا يتبركون بالقديسين والصالحين ويقدمون النذور نقودا أو شمعا أو بخورا .

وحصيلة النذور كبيرة وقد بلغت جملة النذور فى المساجد التى تخضع لإشراف الحكومة عام ١٩٧٩ ما قيمته ٢,٥ مليون جنيه مصرى .

دفعها من لا يملك الى من لا يستطيع ان يملك ليأخذها ويستمتع بها من يملك .

دفعها الفقير المحتاج وقد اقتطعها من قوته ودفعها الى ولى مات ولن يأخذ شيئا ثم يأخذها موظفو المسجد وخلفاء الشيخ وكلهم اكثر يسرا واحسن حالا من دافع النذر .

وقد يكون النذر عجلا ينذر لولى من الأولياء يشتريه الفلاح ويتركه يرعى فى حقله وحقول جيرانه ولا يستطيع احد ان يرده فالكل يتبرك بالشيخ الذى ينذر له هذا العجل ويذبح فى ايام مولد الولى ويوزع لحمه على الاهل والجيران والاصدقاء .

المندل .

يوهم بعض من يحترفون الدجل انهم يسخرون الجن لقضاء بعض الحاجات ومعرفة مصير الأشياء المسروقة فيأتى الدجال بفنجان كبير يضع فيه ماء أو زيتا مضافا اليه بعض السوائل ذات الرائحة الذكية ويطلق البخور ويحضر صبى أو فتاة دون سن البلوغ ويتلو كلمات غير مفهومة ويطلب من الصبى أو الفتاة ان تصف ما ترى فى الفنجان وهو يوحى اليها فيقول لها بصوت مرتفع امام الحاضرين انها لابد ترى أمامها خادم الجن الذى جاء يكنس ويرش ويفرش استعدادا لقدوم ملك الجن فيقول الفتى نعم ارى ذلك ثم يظل يستدرجه فى الكلام ليقول ابن ملك الجن حضر ويوجه الأسئلة إلى الصبى ليسمع الحاضرون اجابات كلها وهمية لا أساس لها .

قياس الأثر .

والأثر هو اى شيء من ملابس الشخص مثل المنديل أو الشال أو الطرحة يمسك به الدجال ويتمتم بألفاظ وكلمات غير مفهومة وبصوت خافت وهو يقيس هذا الأثر طولا بالشبر مرات فإن استطال فهو بشير الخير والشفاء من المرض وطول العمر وقضاء الحاجة وإن قصر فهو نذير الشر وانقضاء العمر .

التفاؤل والتشاؤم

يتفاءل الناس بالمولود الجديد والهلال الجديد والأحلام الطيبة والنمل وعسل النحل وبشائر المحصول الجديد ويتشاءمون من نعيق البوم والغراب ومن عقد القران او الزواج يوم السبت ويقولون سبت السبوت يا تطلق يا تموت .

الدراويش

رجال يحترفون الدين وقد يكون من بينهم بعض النساء يحصلون على أرزاقهم وقوتهم مما يقدمه لهم الناس من منح وهدايا نقدية أو عينية .

ومنهم من يلبس ملابس تتكون من قطع قماش مختلفة الألوان زاهية ويضع حول رقبته مسبحة طويلة حباتها كبيرة .

وقد يكون الدرويش مصابا بالتخلف العقلى أو مريضا يسيل لعابه .

الندوة

وهى الآفة او المرض الذى يصيب الزرع فإذا اصابت آفة أشجار الفاكهة أو الخضر أو المحاصيل كانوا يعتقدون أنها ندوة تنزل من السماء .

ويعرف فلاح اليوم أسماء هذه الآفات وأنها أمراض أو حشرات ويعرف جيدا طرق مقاومتها كما عرفت القرى وسائل علاج الآفات وطريقة استخدام المبيدات وآلاتها بداية بالآلة الصغيرة التى تحمل باليد أو على الظهر أو التى تدار بالوقود أو الطائرة .

لقد اختفت اكثر الخرافات والمعتقدات الواهية بعد انتشار التعليم وارتفاع مستوى الثقافة ووصول أجهزة الاعلام من صحف وراديو وتليفزيون الى القرية تقدمت وسائل المواصلات واصبح الفلاح يحج الى بيت الله متنقلا بالباخرة أو الطائرة وأصبح من ابناء القرية من يهاجرون الى خارج الوطن طلبا للرزق .

إختفى من أذهان الناس الجن وأفعاله ولم يعد أحد يصدق الدجالين وأصبح التداوى بالطب وليس بالشعوذة ومقاومة الآفات بالمبيدات وليست بالأحجبة .

وأن كانت لا تزال هناك بعض بقايا وآثار يصدقها البسطاء ولكنها فى طريقها الى الزوال .

الزار

بدعة إنتشرت فى الريف والحضر وهو خرافة لا أساس لها من دين أو عرف أو تقليد وبدأت منذ القرون الوسطى وازدهرت فى النصف الأول من هذا القرن ومع انتشار العلم وارتفاع مستوى الثقافة اخذ ظل هذه الخرافة يتقلص وكادت تختفى وان كانت لا تزال باقية حتى الآن .

تقام حفلات الزار فى المنازل وتدير الحفل وتنظمه سيدة تسمى الشيخة أو الكودية تقوم الشيخة او الكودية باعداد غرفة خاصة فى المنزل تخلى مما بها من أثاث وتمسح ارضها بالماء والصابون وتفرش بحصير أو سجاد بحيث تغطى كل ارض الغرفة وتوضع بجوار احد الجدران مرتبة تجلس عليها المريضة التى ستقام من أجلها حفلة الزار وتجلس الكودية امام المريضة وحولها ضاربات على الدفوف وبعض الآلات الموسيقية وتكون المريضة قد وضعت الحناء فى يديها ورجليها فى الليلة السابقة .

ثم تفتح الكودية صندوق البخور وتضع قليلا منه على النار .

ويبدأ ضرب الزار . . . والطبل والدف والطار . . . والطشت النحاس .

ولكل من الأسياد (الجن) ضربات مخصوصة على الطبل أى أن لكل عفريت لحنا مميزا وتقوم الكودية بضبط النغم والايقاع وتبدأ بالأسياد الكبار وتتدرج الى الصغار وتقوم النساء برقص متشنج سريع الحركات وهن يغنين أو يرددن ما تقوله الكودية .

شيخ محضر يا شيخ محضر
واللى عليه عفريت يحضر

وفى وسط هذا الجو المثير الذى يهيج الأعصاب . . أصوات صاخبة عالية من الطبل والدف والطار . . ومن الغناء ودخان البخور الذى يملأ جو الغرفة والرقص المتشنج تتصرف كثير من الحاضرات تصرفات مجنونة حتى أن بعضهن يصاب بغيبوبة ، والبعض يتكلم كلاما غير مفهوم فتوهمهن الكودية ان الأسياد حضروا .

ولكل سيد من الأسياد إسم خاص لا يعرفه الاّ الكودية وله دقة طبل خاصة وملابس خاصة ايضا ومدة قرع الطبول عشر دقائق أو ربع ساعة .

وفى اليوم التالى يذبح الحيوان المقدم للضحية ويكون قد سبق اعداده بتغطيته بثوب أبيض ووضعت فى رقبته العقود والسبح وعلى رأسه منديل أبيض ويزف فى فناء الدار . ومثل هذا الحيوان يتم اختياره طبقا لمواصفات وشروط تمليها الكودية كأن يكون خروفا أبيض الجسم أو أحمر الرأس أو ديكا أبيض ليس فيه أى علامة أى ليس به ريش ملون .

وتذبح الضحية ويجمع الدم ويرش فوق يدى المريضة وقدميها ورأسها وتضع كل امرأة من الحاضرات قطرات من دم الذبيح على جبينها ثم يطبل الطبال وتقوم المريضة للرقص ويتكلم العفريت « الريح » أو « الدستور »وتبدى كلامها بلسان العفريت حسب أوهامهن .

دستور يا أسيادى دستور
ثم يقول قائمة طلباته .

وإجابة مطالب الدستور أو العفريت واجبة التنفيذ والا فإن العواقب وخيمة على المريضة والأهل والدار . . . !!

وتبقى المريضة فى منزلها بعد حفل الزار سبعة ايام أو عشرة لا تغادرها حسب ما تنصح الكودية .

وقد تدعى المريضة أنها شفيت من مرضها بعد أن أجيبت طلباتها وطلبات العفريت وذلك فى الحالات التى كانت فيها المريضة غير صادقة فى ادعائها وكان هناك تمثيل وتظاهر وتمويه على أسرتها وعلى أولياء أمورها .

أما إذا كان المرض عضويا وحقيقيا فلا شفاء ولا تحسن بل تزداد الحالة سوءا .
الزار من خرافات المجتمع وهو فى طريقه الى الزوال الآن .

المكيفات والمسكرات والمخدرات

الكيف هو الاستمتاع بالشيء لفترة زمنيه محدودة واذا تكرر استعماله يصبح عادة يصعب الاقلاع عنها . والمكيفات فى مصر الدخان والشاى والقهوه .

والمسكرات هى الخمور بأنواعها وهى التى تحتوى على نسبة معينة من مادة الكحول . وأهم الخمور المنتشرة فى مصر هى النبيذ والكونياك والروم والويسكى والشمبانيا والبيرة وهى كلها مسميات تجارية لأنواع مختلفة الصنع والتركيز . ويصنع فى مصر العرقى من البلح والبوظه من الخبز وفى الواحات يصنع نوع من جمار النخيل يسمى اللجبى وهو قليل ولا يوجد إلا فى الواحات .

والمخدرات وأهمها الحشيش والافيون والمورفين والكوكايين والهيروين ويجمع البعض المكيفات والمسكرات والمخدرات تحت اسم واحد هو « المكيفات »

ومن الأسف ان كل هذه الاشياء قد عرفت طريقها الى القريه المصريه ويتناولها البعض قليلا أو كثيرا وقد يصل الأمر الى درجه الإدمان على ان هناك ايضا من بين أهل القريه من لايستعمل شيئا منها على الإطلاق .

المكيفات

القهوه :

هى أقدم المكيفات فى مصر فقد عرفت عام ٩٠٠ هـ فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى قبل دخول التبغ بنحو مائه عام تقريبا .

وكان أول دخول البن بواسطة طلبة العلم الوافدين من اليمن والحجاز للدراسة فى الأزهر .

وقد تعرضت القهوه للتحريم على فترات متعاقبه تبعا لرأى الحاكم حتى ان الجدل قد احتدم بين أنصار القهوة فى رحاب الجامع الأزهر سنه ٩٣٩ هـ .

وعرض الأمر على الشيخ العلامه شهاب الدين بن عبد الحق السنباطى الشافعى واستفتاه بعضهم فى أمر القهوه . . . حلال هى أم حرام . . ؟ وجاءت الفتوى أنها حرام لأنها مسكرة ورجس من عمل الشيطان فقامت المظاهرات العارمة فى القاهرة وحطموا القهاوى وحدث هرج شديد وإخلال بالأمن والنظام .

وقام بين الناس من بالشعر يهجوها أو بالزجل يلعنها وساعد على الاعتقاد بتحريمها ان كلمة قهوة فى اللغة تعنى « الخمر » لأن لفظ القهوة لفظ عربى يعنى فى الأصل الخمرة .

ورفع الأمر بعد ذلك الى قاضى مصر آنذاك ليصدر حكمه فى القهوة ويضع حدا للفتنة واستمع القاضى الى آراء علماء الأزهر ثم عمد الى التجربة العملية فجمع نفرا أسقاهم مشروب القهوه الذى أعده بنفسه فى منزله ، ثم جلس يتحدث معهم طول النهار ليختبرهم ويرى أثر القهوة فيهم ولما لم يجد فيها تغيرا أقر القهوة على حالها وحلل شربها وأنهى بذلك صراع القهوة وفتنتها .

وقد اخذ شرب القهوة ينتشر فى كل مصر وكانت مشروب الكيف الوحيد الى ان دخل الشاى وبدأ يزاحمها وأصبح اكثر استخداما منها منذ الثلث الأول من هذا القرن .

ويستورد البن من اليمن وغرب افريقيا والبرازيل لأن مناخ مصر لايناسب شجرة البن وأفضل البن هو اليمنى ويحتوى على ماده الكافين المنبهه وبعض الزيوت الطياره ومواد دهنيه وبروتين وكربوايدرات .

يحمص البن ويطحن وتحضر منه القهوه سادة من غير سكر أو مع اضافة سكر خفيف ـ على الريحة ـ أو سكر متوسط ـ مضبوطة ـ أو سكر كثير ـ زيادة ـ وعند تحميص البن يكون على درجات ليكون اللون فاتحا أو متوسطا أو غامقا حسب ذوق من سيشربها . وغالبا تشرب القهوه من البن الصافى ويحب البعض اضافة الحبهان أو جوزة الطيب ـ قبل تحريمها ـ أو الورد أو المستكه لكى تعطى رائحة عطريه . وتشرب فى فناجين خاصه صغيرة الحجم بالنسبة لفناجين الشاى والكاكاو .

والقهوه تساعد على الهضم وليست ضارة بالصحة وتشرب عادة بعد الأكل ومن العادات المصرية ان يدخن معتاد التدخين سيجارة اثناء تناوله القهوة .

الشاى :

لايعرف بالضبط متى دخل مصر ويغلب الظن انه دخل مع الاستعمار الانجليزى حيث كانت تستخدمه طبقات الأجانب والأغنياء ولم يعرف طريقه الى الريف الا فى

اوائل هذا القرن وبدأ ينتشر تدريجيا حتى أصبح اليوم له المقام الأول فى كل منزل فى القريه يتناوله الصغير والكبير وهو خير مايقدم للضيف .

وشجرة الشاى مثل شجرة البن لاتجود زراعتها فى مصر ونستورد كل احتياجاتنا من الشاى من الخارج وقد إشتهر شاى سيلان فى البداية ولكن الآن يرد الينا من كل بلاد آسيا التى تنتجه مثل الصين والهند واندونيسيا .

والجزء المستعمل هو اوراق نبات الشاى حيث توضع فى ماء مغلى ويضاف إليه السكر ويحتوى على الكافين مثل القهوة ، ولكن به نسبة من حامض التانيك القابض الذى يسبب الإمساك ويحتوى أيضا على كميات ضئيلة جدا من البروتين والأملاح مثل البوتاسيوم والمغنسيوم والصوديوم ولايحتوى الشاى على مواد كربوايدراتية أو مواد دهنية . وإضافة اللبن إلى الشاى ترسب حمض التانيك فتقلل تأثيره القابض .

ويسرف الفلاحون إسرافا شديدا فى تناول الشاى واكثر من هذا أنهم يحضرونه بطريقة تؤدى الى زيادة حمض التانيك اذ يغلى الشاى كثيرا وتضاف كمية اكثر من اللازم إلى الماء المغلى ولايرفع من على النار إلا بعد ان يصير لونه غامقا . والشاى بهذه الطريقة يسبب أضرارا صحية إذ يقلل الشهية للطعام والعصبية الزائدة والأرق وزيادة ضربات القلب وعسر الهضم والإمساك .

ويمثل الشاى جزءا رئيسيا فى ميزانية الأسرة فى الريف لأنه يستخدم بكميات كبيرة وتضاف إليه كميات من السكر لتحليته ويتزايد معدل الاستهلاك عاما بعد عام وقد أصبح عبئا على ميزانية الأسرة وايضا على ميزانية الدولة التى تضطر الى دعمه هو والسكر لتظل اسعارهما منخفضة .

والشاى والبن موجودان فى كل بيت تقريبا وعندما يحضر الضيف يخير بين تناول القهوة أو الشاى .

ولكن الشاى هو الغالب وهو الأكثر استعمالا .

الدخان

بدأ استعماله فى مصر فى أول القرن السابع عشر (١٦٠١ - ١٦٠٢م = ١٠١٠ - ١٠١٢ هـ)

وموطن الدخان الأصلى هو أمريكا ولذا لم يعرفه العالم القديم إلا بعد اكتشاف الأمريكتين حينما دخل أسبانيا أولا ثم أدخله الى فرنسا شخص فرنسى إسمه نيكوت الذى اشتق من اسمه لفظ نيكوتين .

وقد بدأ ينتشر بسرعه غريبة فى القارات القديمة وبين جميع الطبقات ، الغنى منهم والفقير وكالعادة قوبل استعماله بمعارضة من بعض الحكام وبعض رجال الدين فى كثير من البلدان على اختلاف الأديان والأجناس ، من ذلك انه عام ١٦١٩ استعمل ملك انجلترا الشدة فى مكافحة التبغ . وفى عام ١٦٢٨ حرم البابا أرخين الثالث دخول الكنائس على كل من يستعمل التبغ . وفى موسكو عقب حريق فى عام ١٦٥٠ بسبب التدخين عاقب الدوق ميشيل فيدور المدخنين بالضرب والأذى وكانت أحكامه شديدة رادعة وصلت إلى الإعدام . وأعلن السلطان مراد الرابع فى تركيا تحريم التبغ ومعاقبة المدخنين . أما شاه ايران عباس الأول فقد بالغ فى الانتقام من المدخنين فكان يقتلهم بوضعهم فوق خازوق وظن انه يستطيع بمثل هذا العقاب الشاذ ان يمنع الناس من زراعة التبغ وتعاطيه فى بلاد فارس وفرضت اليابان عقوبة شديدة على المدخنين وبعض بلاد آسيا كانت تقطع اذن المدخن وقد حرمه محمد على باشا اليدكشى الذى ولى مصر ١١٥٦ - ١١٥٨ هـ وكان يوقع عقوبة على كل مدخن ولكن هذا لم يمنع انتشار الدخان فى كل انحاء العالم . ولم يعد الدخان محرما الآن ولاممنوعا فى أى بلد وان كانت تقوم ضده الآن حملات صحية تنصح المدخنين بالإقلاع عنه حفاظا على صحتهم .

يقول مؤيدو التدخين إنه يهدىء الأعصاب ويساعد على التفكير وأنه ليس مخدرا مثل المخدرات ولامسكرا مثل الخمور .

ويقول الأطباء انه مضر بالصحة ويسبب امراض الرئة والصدر وأنه السبب الرئيسى فى الإصابة بسرطان الرئه .

ومع كل هذا يزداد انتشارا يوما بعد يوم ويستعمل الدخان لفائف من ورق التبغ وتسمى سيجار أو سيجارة ملفوفه فى ورق شفاف أو فى غليون من خشب أو حجر أو بواسطة شيشه أو جوزه كما يستعمل مدغه أو نشوقا .

المسكرات

الخمور معروفة فى مصر من قديم وكان المصريون أول من صنعوا الخمر وشربوه وأدمنوا استعماله وعرفوا شروره ومضاره الصحية والاجتماعية .

وقد لاحظ الفلاح فى العهد الفرعونى انه اذا ترك عصير العنب مده فإن طعمه يتغير وتصبح له رائحة نفاذة فاذا شربه فانه يشعر بانشراح وسرور فى البداية ومع استمرار

الشرب تحدث لجلجة فى اللسان ويفقد السيطرة على تفكيره وتضعف اعضاء الجسم عن الحركة .

كان الفلاح يعصر العنب ليقدمه تحية الى ضيوفه شرابا حلو الطعم لذيذا منعشا ولاحظ ان الكميات التى تبقى أياما تصبح مسكره ومن هنا تعلم صناعة الخمر فى منزله من العنب أولا ثم صنعها من البلح ومن عصير الرمان، ومن المخيط وهو شجر كانت تنتشر زراعة ولم يبق منه الآن الا القليل وله ثمرة عندما يشق القمة النامية والتى تسمى الجمار فيسيل منها سائل أبيض يتحول الى مسكر قوى ويسمى الآن اللجبى . وكان الفلاح المصرى هو أول من حضر خمرا بهذه الطريقة الفريده ثم حضر البيره من الشعير باستنباته فتتأثر نشوياته بالخميره الموجوده به فتتحول الى مادة سكرية حمضية . ثم صنع البوظة من الخبز الجاف .

وفى عهد اليونان والرومان تقدمت صناعة الخمور فى مصر وتطورت نظرا للتوسع الذى حدث فى زراعة الكروم وتقدم صناعة الخمر فتوفرت الخمور فى كل البلاد حتى أصبح تعاطيها عاما يكاد يتعاطاها كل انسان . وتعلم المصريون منهم تخزين الخمور سنوات طويلة فيجود ويتغير طعمها ويقوى مفعولها .

وفى عهد اليونان والرومان لم تكن الخمر محرمة فلم تكن هناك قيود على تعاطيها .

ولكن فى عهود الفراعنة التى سبقت اليونان والرومان كان الكهان والعقلاء والحفظة على الأخلاق ينصحون الناس عامه والسيدات بصفه خاصة بعدم الإفراط فى تعاطى الخمر خوفا من التفوه بمالا يليق من ألفاظ نابية أو الإتيان بحركات غير مقبوله أدبيا . وعرف عن بعض ملوك الفراعنة أنهم كانوا يرفضون شرب الخمر .

ومن الرسوم التى وجدت على جدران المعابد الفرعونيه رسم لسيدة فى حفلة أفرطت فى الشراب فى عصر الدولة الحديثة حيث كان شائعا ان النساء يسرفن فى الشراب فى الحفلات التى يسودها الهرج والمرج فى حرية وهن يقرعن كؤوسهن مع الرجال . والرسم يوضح السيدة وهى جالسة فى حالة يرثى لها وهى تقول « ناولنى » . . . ناولنى ثمانية عشر قدحا من النبيذ انى اريد انّ اشرب حتى الثمالة ان داخلى مثل القش .

وتذهب الخمر بعقول النساء والرجال وتبدأ الاحداث التى تدعو إلى الأسى تحل بالسيدات فإحدى الجالسات يرى شعرها المستعار (بروكة) على جانب من رأسها وثوبها ينحسر عن أحد كتفيها وتتقايأ لتقترف كل ما فى جوفها على الأرض وتستدعى احدى الخادمات على عجل وتندفع نحوها بإناء ولكنها للأسف تصل بعد فوات الوقت .

هكذا كانت الخمر قديما ولا تزال تفعل بشاربيها ومدمنها مثل تلك الصوره التى صورها قدماء المصريين منذ أكثر من ثلاثين قرنا .

ولذا حرمتها الأديان السماوية وقد كان البعض يظن أن المسيحية تجيز شرب الخمر وقد رد على هذا الزعم القس لبيب ميخائيل فى كتابه « كأس الخمر حلال أم حرام » وأثبت بدلائل كثيرة أن الديانة المسيحية تحرم الخمر .

أما الإسلام فقد حرمها ووضع عقوبة لشاربها واعتبرت الخمر أم الكبائر لأن شاربها يفقد السيطرة على ارادته ويمكن ان يرتكب أى جريمة وهو تحت تأثير السكر .

وتسبب الخمر لشاربها أمراضا متعددة منها تليف الكبد والتهاب الأمعاء وينتج عنه قيء وإسهال وضمور عصب البصر وبالتالى ضعف النظر والاضطرابات العصبية والنفسية وفقد الشهية والضعف والهزال واتساع الأوعية الدمويه الجلدية خصوصا الموجوده بالوجه مما يسبب احمرار الجلد . كما ينتج عنها نقص الفيتامينات بالجسم .

المخدرات

المخدرات هى الأفيون والحشيش والمورفين والهيروين والكوكايين ويسمى الناس مدمن الأفيون الأفيونجى ومتعاطى الحشيش حشاش ومدمن الكوكايين شمام لأنه يستعمل بطريق الشم .

وقد عرف الإنسان المصرى المخدرات منذ القدم تدل على ذلك النقوش التى وجدت على مقابر ومعابد الفراعنة والتى تبين استعمال الأفيون فى عمل وصفات دوائيه لعلاج الامراض وكان الناس فى صعيد مصر يستخدمون الخشخاش وهو ثمرة نبات الافيون فى جلب النوم الى الاطفال .

وأما الحشيش فقد دخل مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى وظلت مصر لاتعرف من المخدرات إلا الأفيون والحشيش الى بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وفى أعقاب هذه الحرب انتشر استعمال الكوكايين والهيروين والمورفين .

وكان من أسباب انتشار المخدرات فى مصر عاملان أولها اعتقاد الكثيرين خطأ ان الإسلام لايحرمها والثانى عدم وجود قوانين صارمة لمكافحة المخدرات فقد صدر أول قانون فى مارس ١٨٨٤ وكان يعتبر الاتجار فى المخدرات مخالفة غرامتها من خمسه قروش

الى جنيه والحبس من يوم الى سبعة أيام . وفى مارس ١٩٢٥ صدر مرسوم بقانون ينظم الاتجار فى المخدرات وطرق استعمالها واعتبرها جنحا يعاقب على حيازتها بالحبس من شهر الى ثلاث سنوات وبغرامة من عشرة الى ثلاثمائه جنيه وفى مايو ١٩٢٦ منعت الحكومة زراعة الأفيون إذ كان يزرع فى محافظات كثيره وخاصه فى الصعيد فى مساحات بلغت حوالى خمسه آلاف فدان .

ثم صدر قانون فى إبريل ١٩٢٨ لمكافحة المخدرات اكثر صرامه من القوانين السابقة اذ جعل العقوبة من سته شهور الى ثلاث سنوات وبالغرامه من مائة جنيه الى ستمائة للمتعاطين وسنة إلى خمس وبالغرامة ألف جنيه للتجار والمستوردين وعدل هذا القانون مرة أخرى فى آخر عام ١٩٢٨ .

وصدر قانون للمخدرات عام ١٩٥٢ رقم ٣٥١ وقد وصلت فيه العقوبه الى السجن المؤبد ثم صدر أخر قانون الذى رفع حد العقوبة الى الإعدام .

وحتى يتسنى السيطرة على مكافحة المخدرات انشأت الدوله مكتبا لمكافحة المخدرات فى عام ١٩٢٩ وتطور هذا المكتب حتى أصبح الآن إدارة عامة لمكافحة المخدرات يرأسها ضابط شرطه كبير ولها فروع فى كل مراكز الجمهورية واستخدمت وسائل وأساليب علميه جديدة لمكافحة المهربين الذين يستوردون المخدرات عبر الحدود والزراع الذين يزرعون أشجار الأفيون والحشيش فى حقولهم بين محاصيل أخرى لسهولة إخفائها أو فى أماكن نائيه يصعب الوصول اليها .

ومن العوامل التى عوقت أعمال مكافحة الآفات وجود الامتيازات الأجنبية ولم تكن السلطات المصريه قادرة على ضبط أجنبى يهرب أو يحتفظ فى منزله بمواد مخدره أو يتعاطاها الا بعد استئذان قنصلية الدوله التى يتبعها وبذلك كانت تفوت فرص التفتيش أو القبض اذ كان ذلك الاجنبى يجد الفرص الكافيه لنقل المواد المخدره الى مكان آخر أو التخلص منها بأى طريقه من الطرق .

وقد الغيت الامتيازات قبل منتصف هذا القرن ومع تعدد القوانين التى صدرت وشدة العقوبه ونشاط أجهزه الأمن التى تكافح المخدرات فان تهريب المخدرات من الخارج الى داخل البلاد وزراعة نباتات الأفيون والحشيش وتجارة كل أنواع المخدرات فى الداخل وتعاطيها لاتزال مستمرة وتنتشر فى الريف والمدن .

فيما يلى ذكر لأهم المخدرات فى مصر .

الأفيون :

هو أقدم المخدرات فى مصر اذ زرع فيها وعرفت آثاره الطبيه والمخدره منذ ايام الفراعنة واستمرت زراعته تكثر حينا وتقل احيانا الى ان جاء محمد على وأراد الاستفاده من زراعة وانتاج الافيون لتصديره ليكون أحد مصادر الايراد للدولة واستقدم لهذا الغرض بعض الأرمن الخبراء فى زراعته من أزمير تركيا . واتسعت زراعته وكان الأفيون الخام يصدر الى تركيا التى كانت تعيد تصديره الى دول كثيرة منها أمريكا لاستخدامه فى الأغراض العلمية .

وكان الأفيون من السلع الأساسية التى رغب الامريكيون فى شرائها مباشرة من مصر دون وساطة تركيا لأن مصر كما هو معلوم كانت تابعة لتركيا فى ذلك العهد ففى ديسمبر ١٨٣٤ قدم المستر هودجسون عضو السفاره الامريكية بتركيا تقريرا الى وزارة الخارجية الأمريكية جاء فيه : « فى مصر سلع كثيرة متنوعة ترد إلى الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة غير مباشرة مما يشجع على إقامة علاقات تجارية مباشرة مع الاسكندرية رأسا فالأفيون جدير بأن يلفت نظر أصحاب المشروعات العظيمة من تجارنا الى هذه السوق اذ ينتظر ان يبلغ محصول العام القادم اربعين ألف أقه أى مايوازى مائه ألف رطل وقد بدأوا يدخلونها فعلا للمضاربة فى هذا العقار الثمين . وهو ينقسم من حيث الجوده الى ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة أثمانها على التوالى ١١٦ ، ١٠١ ، ٩١٠ قرشا للأقة . والدولار يساوى ١٩ قرشا . وقد أجرى تحليل للأفيون المصرى فى كل من لندن وبوسطن وثبت أن مقدار المورفين المستخرج منه يزيد حوالى ١٢ ٪ عن المورفين المستخرج من الأفيون التركى »

وقد حققت زراعة الأفيون فى عهد محمد على ارباحا طائلة ولم تكن هناك أى مشكلة فقد كانت إساءة استعمال الأفيون قاصرة على الأتراك نادره عند المصريين وظل الحال على ذلك الى ان تأكد للسلطات المسئوله ان الأفيون الخام الناتج من الزراعة المحلية لايصدر الى الخارج بل يباع سرا داخل البلاد كى يتعاطاه الناس للتخدير الأمر الذى أدى إلى ضرر بليغ بالصحة العامة فصدر المرسوم رقم ٢١ لسنه ١٩٢٦ بمنع زراعة نبات الأفيون منعا باتا ومعاقبة المخالف بالحبس مده لاتزيد على أسبوع وغرامة لاتزيد على جنيه .

وتستخرج مادة الأفيون بعمل جروح سطحية على ثمرة الخشخاش بواسطة سكين أو موس فتسيل من الجرح مادة لبنية سرعان ماتجف ثم يتغير لونها الى اللون البنى الغامق فتجمع وتصبح جاهزة للتجارة أو الاستعمال .

وتحتوى هذه المادة على المورفين وهو العنصر الأساسى الفعال فى الأفيون ويؤخذ الأفيون عن طريق الفم اذ يأخذ المدمن أو المتعاطى قطعة صغيرة فى حجم حبة العدس ويضعها بين أضراسه ويستحلبها ببطء وقد يساعد على استحلابها بشرب فنجان أو اثنين من القهوة السادة وتلك هى الطريقة السائدة فى مصر . أما فى الصين فقد كان يستعمل تدخينا باستخدام غليون طويل ولكن شعب الصين حقق معجزة تاريخة حينما تخلص من الأفيون زراعة وإدمانا منذ نحو ربع قرن ومتعاطى الأفيون يتعاطاه وحده دون أن يجتمع فى مجلس مع أصدقاء كما يحدث عند تعاطى الخمر أو الحشيش .

يشعر متعاطى الأفيون فى البداية بنشوة واحساسات لذيذه ويحدث تنبيه وقتى للمخ والفكر والملكات العقليه وبعد قليل يشعر بالخمول ثم ينام نوما عميقا ويستيقظ من نومه محطما خائر القوى فاقد الشهية ضعيفا غير قادر على العمل ميالا للقسوة عصبى المزاج .

واذا اعتاد الشخص الأفيون فإنه يصبح أسيرا لقيوده قليل الطعام مما يؤثر على صحته البدنية وقواه العقلية فيعتاد التكاسل ويكره العمل ويصير عضوا فاشلا فى المجتمع ولايرجى منه إنتاج أو خير ويصبح وكأنه ميت بين الأحياء .

على أن خطر صفات الأفيون أن استخدامه يسبب التعود عليه وبالتالى الإدمان الذى يصعب كثيرا الشفاء منه .

الحشيش

الحشيش هو اشهر المخدرات فى مصر واكثرها انتشارا وهو نبات القنب الهندى والأجزاء المستعملة من النبات هى الأوراق والأزهار والبذور بعد تجفيفها وطحنها وقد عرفته مصر فى القرن الثالث عشر الميلادى ـ السابع الهجرى ـ وقد وصفه ابن البيطار الطبيب العربى بانه كان يزرع فى بساتين مصر وانه كان يعرف باسم الحشيش وانه عقار مخدر طول الإدمان عليه ويورث الجنون .

وقد انتشر استعماله بين الناس رغم معارضة رجال الدين له وقد حدث فى عام ٩٢٢ هـ (١٥٤٤ م) ان تأخر فيضان النيل وتعرضت البلاد لقحط شديد ففزع الناس وتواصوا فيما بينهم وأقسموا ان يتركوا الحشيش والخمر ثلاثة ايام حتى يستجيب الله لدعائهم ويرفع عنهم البلاء ، وقد فعلوا ، فاذا بمنسوب النهر يرتفع فى نهاية اليوم الثالث .

اذا اخذ الحشيش بكميات قليلة فانه يحدث خمولا فى مراكز المخ العصبية وتكون نتيجة ذلك قلة الوعى وعدم أصالة الفهم ، كما يحدث خمولا فى الغدد والمراكز العصبية المتعلقة بالحواس الخمس ومناطق الحس بالمخ وخصوصا فيها يتعلق بالزمن والمسافات والحساسية فلا يستطيع تقدير الوقت والمسافة مما يجعل متعاطى الحشيش مبالغا ومخطئا فى تقديراته للوقت الذى استعمله والمسافة التى قطعها .

اما اذا استعمل الحشيش بكميات كبيرة وهو ما يحدث بالنسبة للمدمنين فإنهم يشعرون بأحلام لذيذة وتخيلات لطيفة تنسيهم همومهم مع هلوسة فى الكلام والحركة . واذا كانت الجرعات كبيرة فان العضلات تفقد قوتها على النشاط والحركة فاذا نام الحشاش فانه يحلم أحلاما مزعجة وينتابه كابوس ثقيل ويستيقظ وقد تهيأ له ان مارآه وما مر به من هواجس وتخيلات وأحلام أنها حقيقة ويعبر الناس عن هذا الوضع بوصفه انه « مسطول » .

والحشيش يمكن ان يؤخذ بالفم فتوضع كمية صغيرة منه مع العسل أو السكر ويبتلعها الحشاش مساء . وقد يوضع الحشيش مسحوقا ناعما مع السيجارة حيث يخلط بالدخان الفرط ويلف فى ورقة السيجارة ويدخن وتسمى هذه السيجارة « مغمسة » .

على ان اكثر الطرق انتشارا هى وضعه على الدخان المعسل ويدخن بواسطة الجوزة وتتم هذه الطريقة عادة باجتماع الاصدقاء الذين يتعاطون الحشيش ليلا فى مكان منعزل وقد يكون هذا المكان فى القرية فى زريبة الماشية أو فى مكان مهجور بعيدا عن العيون والرقباء وتطول السهرة وهم فى مرح يضحكون لسبب أو لغير سبب .

وقد تغنى الحشاشون بالجوزة فقال قائلهم :
جوزة من الهند ومركب عليها غاب
ومدندشة بالذهب ومجمعه الأحباب

ونظرا لأن اجتماع الحشاشين يغلب عليه الضحك فان اكثر النكت المصرية تنسب الى الحشاشين .

الكوكايين

بعد الحرب العالمية الأولى وكأثر من آثارها دخلت المخدرات البيضاء ـ الكوكايين والهيروين ـ الى مصر وكان الأغنياء هم أول من تعاطوها ولكن عدوى الإدمان عليها لم

تلبث ان انتقلت إلى الفقراء ووصلت إلى كل القرى وأصبحت تشكل كارثة لم يخلصنا منها إلا قيام الحرب العالمية الثانية وتوقف السفن التى كانت تقوم بنقل هذه المواد من مناطق انتاجها فارتفعت اسعارها ارتفاعا فاحشا جعلت المدمنين ينصرفون عنها إلى المخدرات السوداء ـ الحشيش والأفيون ـ

والكوكايين يستخرج من نبات الكوكا وهو مسحوق أبيض وهو يستعمل عادة بطريقة الشم وقليلا بالحقن تحت الجلد .

وهو مخدر قوى المفعول وسرعان ما يتعوده متعاطيه ويصبح مدمنا لايستطيع التخلص من إدمانه . والمدمن يفقد شهيته للطعام وتضعف صحته ويمتنع عن العمل .

وكان يباع فى عبوات صغيرة داخل ورقة شفافة ملونة ويضع الشمام كمية صغيرة بين أصبعيه الإبهام والسبابة أو يضعها على ظفر أصبع الإبهام ثم يضعها فى إحدى فتحتى الأنف ويكرر العملية لفتحة الأنف الأخرى وسرعان ما ينتقل فكره إلى عالم من الأوهام والخيالات السعيدة .

وعندما انتشر هذا المخدر فى الريف كان الشمام يرى وهو جالس القرفصاء بجوار جدار منهوك القوى وقد تدلت جفونه وبدت عيونه نصف مفتوحة .

يرد التحية بصوت منخفض أو لا يردها

وكان اكثر انتشاره فى العقد الثالث من هذا القرن وكان كارثة كبيرة حلت بالمجتمع المصرى وكان هناك من يغنى واصفا الكارثة بقوله .

شم الكوكايين ، خلانى مسكين
وعينى فى رأسى رايحين جايين

الهيروين

هو أحد مشتقات المورفين والعنصر الفعال فى الأفيون وكان يستعمل حقنا تحت الجلد وقد اختفى استعماله فى مصر .

المنزول

كما يحلو لشارب الخمر ان يمزج بعض أنواعها ويعمل منها شرابا واحدا يسمى كوكتيل فان بعض من يروجون المخدرات فى مصر يصنعون خلطة مخدره أهم مكوناتها الحشيش وقليل من الأفيون وجوزة الطيب تخلط مع بعضها وتعجن بمادة سكرية كالعسل ويضاف لها مادة عطرية مثل الحبهان أو القرنفل أو القرفة أو المستكة وتحضر على هيئة كرات صغيرة فى حجم البندقة وتسمى منزول يتعاطاها المدمن ليلا بعد تناول العشاء .

ويطلق على المنزول ايضا اسم مدفع

ويضحك الحشاش على نفسه ويقول إن أوروبا تصنع المدافع ونحن نأكلها .

إدمان المخدرات

إذا استعملت المخدرات بصفة مستمرة لفترة زمنية قصيرة فإن الجسم يتعود عليها ويصعب على الشخص الإقلاع عنها وبذلك يصبح مدمنا والإدمان هو السبب فى انتشار المخدرات وصعوبة مكافحتها لأن المدمن . يستمر فى طلبها ويلح فى البحث عنها ويدفع الثمن مهما كان مرتفعا ويفضل شراءها على ضروريات مطالب الأسرة ويخالف شرائع السماء وقوانين الأرض .

لهذا فإن إدمان المخدرات بؤس وهوان وضياع فآلام نفسية مابعدها آلام .

علاج الإدمان

علاج الإدمان يتوقف أولا وأخيرا على المدمن نفسه وصدق رغبته فى التوبة والإقلاع عن تعاطى المخدرات .

والتربية فى المنزل والتمسك بمبادىء الأديان السماوية وقواعد الأخلاق والقدوة الحسنة فى المجتمع هى الأساس لعدم تناول المخدرات والمسكرات والبعد عنها .

وهذه العوامل تأتى أولا قبل العلاج الطبى وقبل الخوف من العقوبات التى تفرضها القوانين .

المآتم

العادات الجنائزية فى مصر اليوم مثل تلطيخ الرؤوس والوجوه بالوحل والهباب ولطم الخدود وشق الجيوب وندب الميت والاهتمام بالقبور وتوزيع القربان فى المقابر ونحر الذبائح والاحتفال بتشييع الجنازة وتقديم الباقات واكاليل الزهور واطلاق شعر الرأس واللحية علامة على الحزن والحداد وزيارة القبور فى الأعياد والمناسبات كلها عادات مصرية فرعونية ومع ان الاديان السماوية نهت عن ذلك وحرمته إلا أن كل المصريين من مسيحيين ومسلمين لا يزالوا متمسكين بتلك التقاليد والعادات ولم يتخلص منها المجتمع المصرى حتى الآن .

والمصرى بطبيعته مبالغ فى الاهتمام بالقبور وزيارتها اذ تذهب الأسرة والأصدقاء إلى زيارة المقبرة فى يوم الجمعة للمسلمين وأيام الاعياد والمواسم ومعهم الصدقات من طعام وفاكهة يوزعونها على الفقراء وكذلك يوزعون النقود ويتلو الفقهاء آيات قرآنية ويترحمون على الفقيد .

واذا فارق شخص الحياة فإن أهله من النساء يصوتن ويبكين ويلطمن الخدود ويصبغن الوجوه بالنيلة كما كانت تفعل المرأة المصرية منذ خمسة آلاف سنة . وقد ورثنا عادة البكاء على الميت عن الإلهة ايزيس عندما بكت زوجها الإله أوزيريس بكاء مرا .

وقديما كان القبر يهيأ بما يحتاج إليه الميت من الطعام والشراب ويرسم على الجدران طلاسم تحبها الآلهة مثل النسور والأفاعى والأسماك والجعارين التى كانت فى ظنهم رمزا لبعث الروح .

وكانت تودع فى القبر قراطيس ملفوفة يكتب فيها الكهنة أدعية وصلوات معينه وتعاويذ تشفع للميت عند الإلة ومن أمثلة هذه الأدعية ما ترجمته : « سلام عليك أيها الإله العظيم العادل الصادق لقد جئت إليك يارب لأشاهد جمالك وأقرر صادقا أنى لم اظلم الناس . . لم أظلم الفقراء . . لم أقتل إنسانا . . لم أخن أحدا . . لم أرتكب عملا شهوانيا . . لم أغش فى الميزان . . لم أنتزع اللبن من أفواه الرضع . . لم أهمل عملى . . جئت إليك يارب طاهرا . . طاهرا . . طاهرا »

وكانت العقيدة ايام الفراعنة ان « أوزير » يحاسب الموتى فيضع فى كفه الميزان قلب المتوفى وفى الكفة الأخرى ريشه فمن رجحت كفته ينتقل الى الفردوس أما من لم ترجح

كفنته فيظل الى الأبد فى قبره جوعان ظمآن لا طعام له الآ التماسيح ولا يخرج من قبره ليرى الشمس .

وقد انحدرت الينا عن الفراعنه عادة ذكرى الأربعين للميت . إذ أنهم كانوا يحنطون جثث موتاهم ويبقونها اربعين يوما بعد معالجتها بمختلف انواع العقاقير ولفّها بالأقمشة الكتانية ثم يشيعونها بعد ذلك الى مثواها الأخير باحتفال مهيب .

وبمجرد أن يموت الميت يغسل ويكفن ثم تشيع جنازته ويمشى فى الجنازة أكثر أهل القرية ويسير الفقهاء فى المقدمة يرتلون قصيدة البرده للإمام البوصيرى والتى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم

مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ويصنع الفقهاء أنفسهم فريقين أحدهما يرتل القصيدة بيتا بيتا والثانى يرد عليه ببيت يكرره دائما هو :

مولاى صلى وسلم دائما ابدا

على حبيبك خير الخلق كلهم

فاذا دفن الميت وقفل القبر يتلو أحد الفقهاء بعض الادعية ويختمها بتلاوة آيات من القرآن .

ويعود أهل الميت الى منزلهم وينصرف المشيعون ويقام فى المساء حفل للمأتم فى سرادق أو دوار او منزل وقد يستمر المأتم ثلاثة ايام وكان فيما قبل يستمر أسبوعا ولكنه الآن اصبح فى الغالب ليلة واحدة .

ويحدث إسراف لا مبرر له فى تشييع الجنازة وإقامة المأتم وما يستتبع ذلك من نحر الذبائح وتقديم الطعام وشراب القهوة السادة والسجاير واجور الفقهاء وغير ذلك وكان الأولى ان يوفر ذلك لورثة المتوفى وقد يكونون من الأطفال و المحتاجين لتلك الأموال التى صرفت فى غير موضعها .

ولقد نهت الاديان عن الحزن ولكن الحزن طبيعة الانسان يبكى على من مات وراح بينما لا النوح ينفعه ولا البكاء يرجعه فليس بعد الموت قربة فان من يموت يختفى فى طرفه عين حتى عن القلب والعين ولا دواء للحزن الا النسيان .

صور من الحياة
الأدبية بالقرية

الأمثــــــال

الأمثال حكم جاءت نتيجة ممارسة الحياة والخبرة بها قرونا طويلة وهى تعبير عما فى النفس البشرية من خيروشر . وهى عبارات تسير على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية يستشهدون بها فى كلامهم مؤكدين بها المعنى الذى يريدونه .

والمثل يصور جوانب الحياة بخيرها وشرها والجوانب السلبية والايجابية .

. . . . الطموح ومواجهة الصعاب والصبر على الشدائد كما يصور اليأس والقنوط والاستسلام ويشيد بالقيم الاخلاقية والمبادىء كما يهزأ بها . . أمثلة تحرص على القيم والجود والكرم والفداء والتضحية والبذل والعطاء واخرى تحض على الأنانية وعدم المبالاة والحرص على النجاة والسلامة ولو على حساب الآخرين وهى تعطى التوجيه لجميع مجالات الحياة . . وهى بذلك تصوير حقيقى للواقع . . واقع الحياة بألوانها المختلفة وواقع النفس البشرية بما لها وما عليها .

والمثل وسيلة من وسائل المحرومين والمظلومين للدفاع عن انفسهم وهو من قواعد العرف - القانون غير المدون - الذى اصطلحت عليه الأجيال جيلا بعد جيل .

والمثل بصفة عامة موضع احترام الناس لانه تراث انتقل اليهم عن الآباء والأجداد نابع من صميم الحياة فلم يفد عليهم من الخارج ولم يفرضه أحد ولهذا شملت الأمثلة كل انواع السلوك والانشطة البشرية . . . والاقتصادية والاسرة والتعاون والعلاقة بالحاكم وتصوير الحالة الاجتماعية والشرف والكرامه والعمل .

ويلاحظ على المثل التركيز والايجاز والنغم الموسيقى . . كلامه موزون او مسجوع ولذا اصبحت الأمثلة سهلة الحفظ وسريعة التداول كثيرة الانتشار . .

ومن الامثلة التى تقال فى النواحى الاقتصادية :

القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .

الاعتبار للمال مش للرجال .

اللى ما عندوش قرش ما يساوى قرش .
أكل العيش يحب الخفية .
خف القدم ترزق .
المفلس غلب السلطان .
من استكثر غموسه أكل عيشه حاف .
على قد لحافك مد رجليك .
اللى يحضر معزته تولد اثنين واللى ما يحضرهاش تولد واحدْ ويموت .
ومن الأمثلة التى تدعو للتعاون :
القفه اللى لها ودنين يشلوها اثنين .
إيد مع إيد تساعد .
وفى مجال الحض على العمل .
اليد البطالة نجسة .
رأس الكسل بيت الشيطان .
البانى طالع والهادم نازل .
ومن الأمثلة التى تدعو للفضيلة والقيم الاخلاقية وحسن السلوك :
إمشى عدل يحتار عدوك فيك .
من آمنك ما تخونه ولو كنت خاين .
النبى وصى على سابع جار .
لسانك حصانك إن صنته صانك وان خنته خانك .
السعادة ملافظ .
ياحاشر نفسك بين البصلة وقشرتها ما ينوبك الاّ صننتها .
الباب الى ييجى لك منه الريح سده واستريح .
بيت النتاش ما يعلاش .
الظلم ان دام دمر والعدل ان دام عمر .
ان كتر عليك الهم فرقه على الأيام .
لاقينى ولا تغدينى .
مال الكنزى للنزهى .
اللى ايده فى الميه مش زى اللى ايده فى النار .
اللى يحط حبل فى رقبته يلاقى الف يسحبوه .
وفى مجال الآنانية والسلبية وعدم المبالاة نستمع الى أمثلة منها
إن جاء الطوفان حط ابنك تحت رجليك

إن جعت كل لحم أخوك
عض قلبى ولا تعض رغيفى
أردب ماهو لك ما تحضر كيله ، تتعفر دقنك وما ينوبك الا شيله
اللى مش عاجبه يشرب من البحر
أصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب
إجرى جرى الوحوش غير رزقك ما تحوش
قيراط بخت ولا فدان شطارة
تبقى فى إيدك وتقسم لغيرك
ومن الأمثلة ما يدعو للاستسلام للسطلة ويرى السلام فى النفاق :
إن لقيت بلد تعبد جحش حش وارمى له
اللى يتجوز أمى اقول له ياعمى
ان كان لك عند الديب حاجه قول له يا أبو سرحان
اعمل ودن من طين وودن من عجين

والأمثلة كثيرة لا يمكن حصرها وهى منتشرة فى كل مكان يرددها الناس فى احاديثهم على انه من أجمل الأمثلة واصدقها تلك المتصلة بالزراعة فهى تعتبر بحق اسلوبا فريدا فى الارشاد الزراعى وفى وضع الخطة الزراعية والأمثلة الزراعية قديمة منها المتداول منذ أيام الفراعنة وان اختلفت اللغة فان المعنى واحد . ولما كانت الزراعة ومواعيدها مرتبطة بالأشهر الشمسية وكانت الأشهر القبطية مرتبطة بالسنة الزراعية وهى شمسية ثابتة المواعيد فقد ظهرت أمثال تعطى النصح للفلاح وترشده وتعلم عما يجب فعله فى كل شهر من شهور الزراعة

وشهر توت هو أول هذه الاشهر ويوافق ١١ سبتمبر الى ١٠ اكتوبر ويقول المثل « توت رى ولا فوت » أى ان الفلاح الذى لا يستطيع رى ارضه فى هذا الشهر لزراعة المحاصيل الشتوية مثل البرسيم والقمح والشعير والفول فإنه يتأخر فى تجهيز الأرض وتنقص الغلة

« وتوت يقول للحر موت » أى انتهى فصل الصيف

ويأتى بعده شهر بابه وهو من ١١ اكتوبر الى ٩ نوفمبر ويقول المثل « بابه خش واقفل الدرابه » أى الطاقة ـ النافذة الصغيره ـ وذلك اتقاء للبرد ويقول المثل ايضا « ان صح زرع بابه يغلب النهابة »

وهاتور من ١٠ نوفمبر الى ٩ ديسمبر ويقول المثل « هاتور أبو الدهب المتتور » أى انه انسب موعد لزراعة القمح ولاتزال هذه الحقيقة قائمة الى يومنا هذا حتى بعد ان تقدمت البحوث العلمية وتكنولوجيا الزراعة

« ان فاتك زرع هاتور اصبر لما السنه تدور » وهذا تحذير للفلاح حتى لا يتأخر فى الزراعة

وكيهك من ١٠ ديسمبر الى ٨ يناير وفيه يقصر النهار ولذا يقول المثل « كياك صباحك مساك ، شيل ايدك من غداك وحطها فى عشاك » كما يقال « البهايم اللى متشبعشى فى كياك إدع عليها بالهلاك » لأن هذه الفترة أحسن وقت لنمو البرسيم وتوفر العلف الأخضر

وطوبة من ٩ يناير الى ٧ فبراير ويقول المثل « طوبه تزيد فيه الشمس طوبه » اشارة الى طول النهار قليلا

ويقع عيد الغطاس فى شهر طوبه ويكثر محصول القلقاس والمثل : « الغطاس عيد القلقاس واللى ما ياكل قلقاس يوم الغطاس يصبح جته من غير راس »

وطوبه تخلى العجوزة كركوبه »
وطوبه تخلى الصبيه جلده والعجوزه قرده
وذلك لشدة البرد

الاسم لطوبة والفعل لأمشير » وذلك لأن الناس تعتقد ان طوبة اشد برودة واكثر امطارا ولكن شهر أمشير اكثر منها

وأمشير من ٨ فبراير ـ ٩ مارس
« أمشير أبو الزوابع الكتير ياخذ العجوزة ويطير »
وبرمهات روح الغيط وهات
فقد بدأت تباشير المحاصيل مثل الفول والشعير وفريك القمح والعدس والحمص
وبرموده من ٩ أبريل الى ٨ مايو

« برموده دق بالعموده » أى دق سنابل القمح والشعير بالعصا الغليظه
وبشنس من ٩ مايو الى ٧ يونيه
« بشنس يكنس الغيط كنس » أى ان الحقول قد أصبحت خالية من المحاصيل بعد حصادها

وبؤونه من ٨ يونيه الى ٧ يوليه
« فى بؤونه تتخزن المؤونه »
تخزن الحبوب لتكفى الشهور القادمة
وأبيب من ٨ يوليه الى ٦ أغسطس

وتقول الامثال :
ابيب فيه العنب يطيب
وأبيب ماء النيل يدب فيه دبيب

ومسرى من ٧ أغسطس الى ٥ سبمتبر وهى آخر شهور السنة وفيها يكون فيضان النيل فى أعلا درجاته
مسرى تجرى فيه كل ترعه عسره
وان فاتك مسرى ما تلقاش ولا كسره

وهكذا فرضت الأمثال نفسها على حياة الفلاح المصرى وثقافته وأصبحت تراثا له قيمته ومؤثراته وفرضت الأمثال المرتبطة بالزراعة نفسها فهى تكاد تكون موسوعة علمية متجددة مع الأيام بل إنها لم تخالف أو تناقض تقدم العلوم الزراعية والتكنولوجيا فهى صادقة وأصيله ولعل مرجع صدقها هو الخبرة الممتازة وحصيلة الملاحظات المستمرة المتوارثة من جمهور الزراع على طول السنين .

تعبيرات خاصة واصطلاحات

يستخدم الناس فى كلامهم ألفاظا أو عبارات خاصة لوصف حالة أو تأكيد فعل أو إيضاح أو تشويق للسامع وقد تستعمل اصطلاحات وهى كلها معروفة معلومة يقولها الخاص والعام فى الريف والحضر وكما يقول الواحد منا المثل ليعطى كلامه قوة فى المنطق وعذوبة فى البلاغة فإن إضافة لفظ أو عبارة أو اصطلاحا يضيف للأسلوب حلاوة وطلاوة وتشويقا ومن ذلك على سبيل المثال :

خليها على الله .. صلى بنا على النبى .. وشه زى القمر .. زى البدر .. السر فى بير ... ريقى نشف .. جبنا سيرة القط جه ينط .. زى القط بسبع ترواح .. عامل خده مداس .. مناخيره فى السما .. ما تيجى الا بخلع الضرس .. محسوبك .. فضلة خيرك .. سلام قولا من رب رحيم ... يطلع فيه القطط الفاطسة .. أبيض من

اللبن الحليب .. وشه عكر .. فطس ... خنشور .. نابه أزرق .. أصفراوى ..
خلاه يركع .. صوته اتنبح .. نفسه انقطع .. يقطع فى الفروة ... طلع منها زى ..
الشعره من العجين .. عينك ما تشوف الا النور .. عصافير البطن عماله تصوصو ..
عينه تطق شرار ... بيضه مقشرة .. جيب السبع ما يخلاش .. راح فى ستين
داهية .. حط ديله فى اسنانه وقال يا فكيك ... رزق الهبل على المجانين .. أنضف
من الصينى بعد غسيله ... يغرق فى شبر ميه ... اللى مش عاجبه يشرب من
البحر ...

وهناك تعبيرات ثابتة لا تتغير تقال فى المناسبات والمجاملات :
صباح الخير .. تحية الصباح ومساء الخير .. تحية المساء
والحمد لله على السلامة .. عند العودة من السفر
والعاقبة عندكم ... فى المسرات

يتربى فى عزك ... للمولود
نعيما ... عقب الحمام أو بعد قص الشعر أو حلاقة الذقن
صحة وعافية .. لمن يتكرع
بالهناء والشفاء ... بعد الاكل أو الشراب
يرحمكم الله ... لمن عطس بشرط ان يقول الحمد لله
شدة وتزول .. عند التعرض لمرض أو مشكلة صعبة
البقية فى حياتك أو عظم الله اجرك .. عند وفاة قريب
كل سنة وانت طيب ... فى العيد
أهلا وسهلا .. ومرحبا .. للترحيب بالقادم
شرفتم ... للضيف إذا حضر
صباحية مباركة ... للعروسين صباح ليلة الزفاف

النوادر

هى حكايات أو قصص قصيرة جدا تقال للتسلية ومثلها مثل الحكم والأمثال والموال
وكل صور الأدب الشعبى تهدف للإصلاح الاجتماعى أو التهكم على المستبدين أو
للتسلية والتفريج عن الهموم والمتاعب .

واشهر النوادر ما نسب الى الشخصية الخيالية « جحا » فكلما كانت هناك نادرة أو نكتة بارعة تنسب الى جحا

من هو جحا . . ؟ لا أحد يعلم ولكن نسبه النوادر والنكات اليه تزيد من أهميتها وتساعد على انتشارها وتجذب انتباه السامع

ومن تلك النوادر ان السلطان كان لديه حمار يريد ان يعلمه القراءة والكتابة وطلب ممن حوله ان يحققوا رغبته ولكنهم اعتذروا إذ كيف يمكن أن يقرأ الحمار ويكتب فتقدم جحا الى السلطان وقال له أنا كفيل بذلك ففرح السلطان ووعده بجائزة كبيرة : فلما خرج جحا من عند السلطان اجتمع حوله الناس وقالوا له : هل انت مجنون كيف تقدم على هذه المغامرة . . ؟ قال لقد اتفقت مع السلطان على تنفيذ المهمة فى ثلاث سنوات وبعدها إما ان يموت الحمار أو السلطان أو أموت أنا

ونادرة أخرى . . قيل ان جحا عمل جنازة لكلب له مات فاستدعاه قاضى المدينة ليحاسبه على ذلك وسأله كيف يعمل جنازة لكلب ميت فرد جحا عليه قائلا ان للكلب ثروة وقد أوصانى قبل موته أن أنفق نصف ثروته على الجنازة والباقى أعطيه لقاضى المدينة . . فسأله القاضى بصوت مرتفع . . . هو المرحوم قال إيه . . ؟

وذات مرة ذهب جحا الى السوق ليبيع حميرا وكان عددها عشرة وركب واحدا وساق الباقى أمامه وفى وسط الطريق اراد ان يطمئن عليها فاخذ يعدها فوجدها تسعة لانه لم يعد الحمار الذى يركبه . . فنزل من على الحمار وعد الحمير فوجدها عشرة وكرر

العملية . . مره بعدها وهو راكب فيجدها تسعه . . ثم يعدها بعد ان ينزل فيجدها عشرة . . فقرر اخيرا ان يشمى وراء الحمير حتى يبقى عددها عشرة .

وذات مره ذهب الى السوق ليشترى بقرة ورآه بعض أهل القرية وسألوه الى اين انت ذاهب ياجحا . . قال ذاهب الى السوق لأشترى بقرة . . فقالوا له قل إن شاء الله . . فقال إن شاء الله ليه . . البقر فى السوق والفلوس فى جيبى فلما وصل الى السوق نشله لص نشال فعاد جحا الى قريته حزينا فسأله أهل القرية أين البقرة فرد عليهم . . إن شاء الله الفلوس ضاعت منى . . !!

ولشهرة جحا ارتبطت به بعض الأمثال . . مثل جحا أولى بلحم ثورة . . وقالوا ياجحا عد غنمك . . قال ياحسرة واحدة واقفة وواجدة نايمة .

الفوازير

والفوازير من وسائل التسلية فى اوقات الفراغ وسهرات الأسرة ومنها :
طويل طويل ولا لوش خيال ... (الطريق)
فى الخص وعينه بتبص ... (البندقية)
اردب فول منتور من هنا الى اسطنبول ... (النجوم فى السماء)
قد الفيل ملفوف فى منديل ... (سرير النوم عندما يتلف فى الناموسية)
ابويا بنى لى بيت ما يساع إلا أنا ... الجلابة
عدى البحر ولا اتبلش ... العجل فى بطن امه

الأغانى

الاغانى كانت ولا تزال من أكبر عوامل الترفيه والتسلية فهى تريح الأعصاب المكدودة وتبعث فى النفس نشوة وطمأنينة وتضفى الوانا من السعادة على كل من يستمع إليها أو يرددها .

وما أكثر ما امتلأت أجواء الحقول وأرجاء القرى بالأغانى فى المناسبات ومن غير مناسبة فليس للأغنية حدود وليس لها قيود .

غنى الفلاح فى حقله منذ القدم .. غنى لنفسه ليخفف من أعباء العمل .. غنى لمحاصيله وماشيته وطيوره وزرعه وزهره وللنهر والترعة والساقية .. ولاشك أن أعذب الغناء واحلاه على مدى التاريخ كله هو للحب .

غنى الفلاح القديم للصيد وللأغنام عندما يرعاها وفى سهرات القرية فى الأفراح والأعياد ولم ينطقع عن الغناء أبدا .

وفى القرن الأخير شاع فى القرية أنواع من الغناء أشهرها واهمها الموال واغانى المداحين والاغانى الدينية ثم كانت الطفرة الكبيرة حينما ظهرت وسائل الاستماع الحديثة فى النصف الثانى من القرن العشرين وفى مقدمتها المذياع (الراديو) ونشطت وسائل

الإعلام وتعددت محطات الإذاعة وتنافست وكذلك التليفزيون فأصبح الاستماع إلى الأغانى ميسورا سهلا ليلا ونهارا .

وقد كان النغم الحزين الباكى هو الصفة السائدة لكل أنواع الغناء ولكن فى وقتنا الحاضر كادت تختفى ظلال الحزن وان كانت كل نفس بشرية فيها للحزن جانب . ومع أن جو القرية يمتلىء بأغانى الراديو والتليفزيون فإن الموال لاتزال له مكانته فى النفوس .

الموال

الموال قديم منذ الفراعنة وكان يبدأ عادة بالمقطع ياليل ياعين وليلى كلمة قبطية قديمة معناها باللغة العربية تهللى وافرحى ياعينى

والموال طراز من الشعر العامى .. منظوم .. فيه سجع كما ان فيه جناسا وتورية ومحسنات لفظية .

والمواويل متعددة الأغراض .. إجتماعية وغرامية ودينية وجغرافية ووطنية

ونجد فى كل قرية من يؤلف الموال ولكن هناك مواويل يحفظها الناس فى كل مصر ومضى عليها قرنان من الزمان ولاتزال منتشرة تترد فى المناسبات ألا وهى مواويل إبن عروس الذى ولد فى قنا عام ١٧٨٠ وكان لصا مجرما ثم تاب واستقام وتصوف وله مواويل كثيرة تحض على الفضيلة والاستقامة وحب الوطن ومنها .

النذل ميت وهو حى

ما حد حاسب خسابه

تلقاه كالترمس النى
حضوره يشبه غيابه

وله أيضا :
من يبغضك لم يحبك ولو طعمته الحلاوة
السن للسن يضحك والقلب كله عداوة

وأيضا
الصبر .. لابأس بالصبر ولا فى غير مواس

قلب كفوفك على الجمر واصبر على قاس
لابد من يوم معلوم ترتد فيه المظالم
أبيض على كل مظلوم إسود على كل ظالم

ونختم القول قاصدين مدح النبى سيد تهامة
من شرف الكون بالدين والمعجزة والكرامة

ومن مواويله التى تتردد فى القرى على مدى قرنين من الزمان :

قال من داداك داديه
واجعل عيالك عبيده
ومن عاداك عاديه
روحك ماهياش فى إيده

وأيضا :

يازارع الود هو الود شجره قل
ولاّ سواقى الوداد جفت وماؤها قل
ايام بنشرب عسل وايام بنشرب خل
وايام ننام على الفراش وايام ننام على التل
وايام بنلبس حرير وايام بنلبس تل

وأيام بتحكم على إبن الاصول ينذل
ومن المواويل الاجتماعية :
راجل وله بيت وليه ينظر لبيت تانى
ده يستحق الأدب من غير كلام تانى

ومنها : ياواخد القرد على ماله بكره يروح المال ويبقى القرد على حاله
ومن مواويل الغرام :

فايت على كوبرى بنها منديل الحب طرف عينى
ابكى على الحب ولا ابكى على عينى

ومن أمثلة الموال الدينى :
مدد ياشيخ العرب ياعم ياسيد
ياللى فى رحابك جمعت العبد والسيد

ياقطب يااللى الهدايه خلتك سيد
ادعى لنا ربك يزيل عنا الالم والكرب
يااللى دعاك مستجاب ياعم ياسيد

وكان هناك من بين علماء الازهر الشيخ محمد النجار وقد أطلق عليه لقب أمير الزجالين وكل مواويله دينية مثل

ياتارك الشرع فين تقواك وإيمانك

وفين عهودك وميثاقك وإيمانك

ويتجه كثير من مؤلفى الموال إلى الجناس اللفظى والتورية مثل :
ناوى على عندى
ومعزتك عندى
من العين دى والعين دى

أو :
تبرم على مين واحنا الكل برامين
وان خبط الباب بنعرف اللى بره .. مين
وقصة أدهم الشرقاوى من الأساطير الشعبية ويقول الموال :

الإسم أدهم والنقب شرقاوى
الإسم أدهم وأهلى فى البحيرة ناس
عايشين بالجد وغير الجد لم يقولوه

ويوجد بين مغنى الموال من يؤلفونه ومنهم من يرتجل فى الحال ويقول ما يناسب الموقف والمقام

ومغنى الموال يردد دائما بين المقاطع .. ياليل ياعين

واليوم ونحن فى اواخر القرن العشرين ومع ان الموال لايزال له مكانة فى الريف فإن انتشار وسيطرة الإذاعة والتليفزيون وسهولة اقتناء وحمل أجهزتها قد حبب إلى أهل القرية رجالا ونساء وأطفالا الأغانى الجديدة التى ارتقت معنى ولحنا وغناء وكتب كبار شعراء العربية للغناء .. قصائد ومواويل وأزجالا بالشعر العربى الفصيح وباللغة العامية

يتغنى المغنون بشعر شوقى وحافظ إبراهيم وأحمد رامى وبيرم التونسى وغيرهم . . وغيرهم من شعراء مصر والوطن العربى

وارتفع مستوى اللحن والأداء على يد نوابغ الملحنين الذين قدموا روائع الألحان للقصيدة والنشيد والطقطوقة والموال والأغانى الشعبية الخفيفة وأغانى المجموعات والزجل والأغانى الفكاهية والتواشيح والموشحات .

وتعتبر هذه المرحلة من تاريخ مصر ذات ثراء عريض بالمواهب الصوتية الخالدة مثل صوت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش وأسمهان وليلى مراد ونجاة الصغيرة وفايزة أحمد وشادية وغيرهم ممن لايحصيهم عد

ومن حسن الحظ ان تقدم العلوم والتكنولوجيا يسرت تسجيل كل هذا التراث العظيم

الحدوتة

الحدوتة والحكاية والقصة كلها من أهم وسائل تسلية أهل القرية ليلا حيث يجتمعون بعد يوم شغلهم جريا وراء الرزق وبعد الانتهاء من تناول العشاء وفى ليالى الشتاء يكون الاجتماع فى قاعة الفرن الدافئة وفوق القبة وفى ليالى الصيف يجتمعون فى صحن الدار فإذا كانت ليلة مقمرة جلسوا امام الدار للإستمتاع بسماع من يروى لهم الحدوتة او الحكاية او القصة .

نشأت الحدوتة فى البداية وبعدها ظهرت الحكاية ثم قامت القصة على الحكاية فالقصة هى حكايات تتوالى أحداثها مثل ألف ليلة وليلة .

ولم يعرف من هو مؤلف الحدوتة ولم يعرف إسم واحد من أهل الريف ألف الحكاية حتى قصة ألف ليلة وليلة وهى أشهر وأكبر القصص لم يعرف مؤلفها وان كان البعض يقولون إنه مصرى وإن كان الملك شهريار والجارية شهرزاد يشير مدلول الأسماء إلى أنهما من بلاد فارس .

وهناك حواديت ونوادر قصيرة تنسب الى جحا وهو شخصية خيالية لا وجود لها ولكن نسب اليه الكثير حتى من النكت والطرائف .

ويجيد سرد الحدوتة اناس معينون وخاصة من بين عجائز السيدات اذ ليس كل من يروى الحدوتة او القصة يجيد سردها فهناك من يحسن الإلقاء ويتمتع بذاكرة قوية ونبرات صوت تحبب الاستماع .

وهناك المحترفون الذين يفدون على القرية لمناسبة او غير مناسبة فيلقى قصة من قصص البطولة مثل ابو زيد الهلالى والزناتى خليفة وعنتر بن شداد وادهم الشرقاوى وياسين صبايق بهيه ويكون الالقاء بمصاحبة آلة موسيقية مثل الربابة او الناى او الارغول ويكون ذلك فى مكان متسع مثل مقهى او دوار او جرن حيث يتجمع ابناء القرية للاستماع

وبطل القصة انسان له صفات خارقة للعادة او عفريت من الجن او وحش كاسر او جنية خبيثة لئيمة او حاكم ظالم .

ولكن فى كثير من الحواديت ان لم يكن فيها كلها يمكن التخلص منهم بالحيلة والذكاء وحسن التصرف كما فعلت شهرزاد مع شهريار الملك .

وان العقل يستطيع التغلب على القوة وحسن التصرف ينجى من المهالك والكلمة الحلوة قد تسبب النجاة وتغير المحنة الى منحة .

والانتصار غالبا للضعيف والمظلوم .

والحدوتة خيال يشد انتباه الرجل والمرأة والطفل الصغير الكل يتذوق هذا الخيال ويعجب به ويجد لذة ونشوة فى الاستماع اليه . .

والذى يروى الحدوته يقول فى البداية وعند الختام جملا تقليدية فقبل ان يبدا يقول :
كان ياما كان ياسعد ياإكرام ما يطيب الحديث إلا بذكر الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وفى الختام يقول :

توته توته ، فرغت الحدوته ، حلوه ولا ملتوته ؟

فاذا قال السامعون حلوه انتهت الحدوته وانتقلوا الى مواضيع اخرى او سكتوا .
وان قال احد السامعين حدوته ملتوته . . فى الزيت ملتوته قالوا له جميعا عليك حدوته .

وقد بدات الحواديت وسهرات الراوى الذى يروى قصص البطولات الشعبية والعربية فى الاختفاء بعد انتشار الاذاعة والتليفزيون اذ انتقلت حواديت القرية من حكايات الف ليلة وليلة والشاطر حسن وقطر الندى وابو زيد الهلالى وحواديت الجن والغول وام بزاز حديد وابو رجل ملسوخة انتقلت كلها الى مسلسلات الاذاعة للكبار وقصص الاطفال ومسلسلات الرعب الامريكية التى ينقلها التليفزيون او مسلسلات من تاليف واخراج مؤلفى وموظفى التليفزيون والتى تصور القرية فى حاضرها وماضيها القريب تصويرا غير صادق .

ولقد اصبح مع كل فلاح جهاز راديو وفى كثير من المنازل اجهزة تليفزيون وكثرت المقاهى التى بها اجهزة تليفزيون والتى تسهر طويلا ولهذا فان الحدوته فى طريقها الى النسيان .

الشائعات

تتردد الاشاعة فى القرية كما هو الحال فى المدن وفى كل بلاد الدنيا كأنها جزء من الحياة او ضرورة كالطعام والشراب وهى ليست خيرا ولكنها فى اكثر الاحوال ليست شرا على كل حال .

تنطلق الشائعة ولا يعرف من يطلقها اكثرها ضد الحكام واحيانا ضد المجتمع والناس وضد الحقيقة .

تبدأ همسا وسرعان ما تنتشر على امتداد كل القرى والنجوع وتعيش حينا ثم تختفى وقد تترك اثرا وقد لا تترك وراءها شيئا الا انها تشغل الناس بقدر وبدرجات متفاوتة .

وكان من يرويها يؤكد صحتها وصدقها فاذا ارتاب السامع فان الراوى يقول له انه لا دخان من غير نار .

وهى عادة حسنة الصياغة مشوقه .

والشائعة بطبيعتها مختلقة فهى اكذوبة ويصدقها الجميع فى البداية ثم تكذب هى نفسها وتتلاشى وتمضى الى حيث لا رجعة وقد يكون لها ضحايا بعد ان يستعذب الناس فى البداية الاستماع اليها وترديدها همسا ثم تختفى وتطوى فى زوايا النسيان .

وتكثر الشائعات عند وجود أحداث هامة أو حدوث تصرفات غامضة من حاكم او مسئول او شخص له مكانته .

والشائعة فى انتقالها تكبر وتزداد حجما بما يضاف اليها وكلنا نعرف ذلك ونتندر به ونضرب مثلا باشاعة الشيخ منصور عندما امسك عصفورا فان الشائعة تطورت الى ان الشيخ منصور امسك عصفور لابس طرطور وراكب حنطور .

وبين وقت وآخر تسرى اشاعة ان هناك وحشا ضاريا يسكن المقابر وكل من يروى الاشاعة يزيد من عنده وصفا مشوقا لهذا الوحش المفترس .

ويزداد انتشار الشائعات عندما يكون الحكم طاغيا مستبدا وكذلك خلال الأزمات والحروب وتقل وتصبح نادرة فى ظلال الحرية وعندما تستقر الامور وتهدأ الأحوال ولكن الإشاعة ستظل تظهر فى القرية وفى كل مجتمع بين حين وحين إلى ما شاء الله .

النكت

يضحك الفلاح ويود لو يضحك دائما واكثر ما يضحكه همومه يضحك على نفسه وعلى الآن وعلى ما يعذبه ويشقيه يضحك من تسلط واستبداد حكامه ومن جباة الضرائب .

واذا اسودت الدنيا فى عينيه وثقلت الهموم تفاعل ذلك فى أغوار نفسه ثم طفحت على السطح حلوة لاذعة يضحك عليها وتضحك عليه يضحك عليها لبراعتها فى التعبير وقدرتها على تصوير المفارقات وتضحك عليه لقلة حيلته وضعف ارادته وهوانه على الناس .

وكلما كره شيئا أوضاق ذرعا بأمر من أمور دنياه ومعاشه عبر عن ذلك بالنكت فهى السبيل الوحيد الى التعبير والتنفيس عن الضيق والكره والآلام المكبوتة والمتاعب المتصلة .

ولهذا اعتبر الحاكم المستبد الظالم ان النكتة سلاح موجه ضده لأنه السلاح الوحيد الذى يستطيع الشعب المغلوب على امره ان يستخدمه ضد المستبدين .

فالشعب الذى لا يقدر على مواجهة الطغاة يعبر عن المعاناة والقهر والمتاعب فى كلمات بسيطة موجزة تثير التهكم والسخرية وتجلب الابتسامة على الشفاه .

واذا كانت الكلمات قوية والتعبير عن المفارقات بليغا إنطلق الناس يضحكون من أعماقهم على النكته بألفاظها ومعانيها وأبعادها بينما تثير القلق فى نفس الحاكم الظالم وأعوانه وقد كان هناك من الحكام من شكل جهازا لجمع النكت ودراستها وتحليلها .

واقوى النكت واحلاها واكثرها عذوبة هو ما يمس حاكما مستبدا اونظاما فاسدا او اى مركز من مراكز القوى التنفيذية او الدينية أو أزمة من الأزمات التى يمر بها الناس مثل مجاعة أو غلاء او حرب .

والنكته المصرية هى من اقوى الاسلحة التى استعملها المصرى ضد الفراعنة والمستعمرين وحكام المماليك والاتراك ورجال السلطة وأعمال السخرة ومحصلى الضرائب وعن المجاعات والحرمان والفقر .

وما اكثر النكت التى قيلت عن الحاكم التركى والتى تبين عجرفته وغباوته فى وقت واحد ولعل هذا الحاكم لم يضحك عليها لانه لم يكن يعرف اللغة العربية .

يبتكر المصرى النكتة ويرويها ويحفظها كل من سمعها ويضحك عليها الجميع وقد وصل الامر الى ان هناك من النكت ما هو متداول منذ قرون طويلة اى اصبحت نكتا تاريخية ومع ذلك فإنها كلما ذكرت نكته منها يضحك عليها الناس كما لو كانت تقال لأول مرة .

بمجرد ابتكار نكتة وروايتها فانها تنتقل بين كل القرى جنوبا وشمالا ويكررون ذكرها مبتسمين ساخرين .

وفى كل قرية يوجد من يبتكر النكتة ومن يحسن قولها والنكته لا تعبر عن الظاهرة او الموضع بوصف حقيقى ولكنها دائما تعتمد على المبالغة والمفارقة والتشويق .

ولا نظن أن أحدا من أدباء العالم أو الكتاب يستطيع أن يصور الحرمان مثلما صورته النكتة المصرية ومثال ذلك الحوار التالى .بين اثنين من الفلاحين :

ـ الله . . . الحلاوه حلوه

ـ انت دقتها ياوله . . ! !

ـ ابدا . . بس شفت ابن عمى بيلحس الورقة .

إنه تلذذ بطعم الحلاوة واستمتع بها ولم يأكلها ولم يرها وكل ما فى الامر انه شاهد ابن عمه يلحس ورقة كان بها حلاوة .

ووقف اثنان من الفلاحين يشاهدان موكب السلطان ودار بينهما الحديث التالى :

ـ ياسلام السلطان وجهه أحمر راح يخر منه الدم .

ـ لازم بياكل عجوه على طول .

اى ان العجوة فى تقديرهم هى منتهى الامل وغاية الرجاء وأهم طعام .

وفى فترة غلاء ارتفع فيها سعر اللحمة جاء عيد الأضحى ويسميه الفلاحون عيد اللحمة سأل طفل والده ما معنى اللحمة فأخذ والده إلى السلخانة وأشار الى الذبائح قائلا هى دى ياابنى اللحمه اللى بيعملوا لها عيد .

وعن ثقة الفلاح فى حكامه تقال اكثر النكت منها :

أرسل فلاح خطابا الى الله يطلب منه مائه جنيه لاسباب ذكرها وكتب على مظروف الخطاب « إلى ربنا » واحتار موزع البريد كيف يرسل الخطاب الى ربنا فأرسله الى السلطان فلما قرأ السلطان الخطاب أمر بأن يرسل له خطاب وبه جنيه واحد . واستلم الفلاح الخطاب واستلم الجنيه فارسل خطابا ثانيا إلى ربنا يشكره ويقول له المرة الجاية ترسل الفلوس لى مباشرة لأنك لما ارسلتها عن طريق السلطان اخذ تسعه وتسعين جنيها ولم يرسل لى إلا جنيها واحدا .

وعن جمود الموظف المصرى وتمسكه باللوائح والروتين تقول النكتة إنهم جعلوا لجهنم عدة ابواب وكتب على احدها « الباب المصرى » وللوارد على جهنم حريه اختيار الدخول من أى باب . وكثر الزحام على الباب المصرى مع ان التعذيب للداخل من هذا الباب تعذيب اشد من باقى الأبواب إذ المقرر أن المذنب يشوى صباحا ويجمد ظهرا ويسلق مساء ولكن الباب المصرى يقف أمامه طوابير طويله فى انتظار الدخول . فلما سأل احد المذنبين عن سبب الزحام على هذا الباب قالوا له صحيح أن العقوبات شديدة ولكن الموظف المختص لا ينفذ التعذيب إلا إذا كان مع المذنب شهادة وفاة عليها ختم النسر . . !!

ولم يسلم رجل الدين من النكته مع أنه شخصية يحبها الناس

وذهبت فلاحة الى فقيه القريه ـ سيدنا ـ وسألته مارأى سيدنا فى حائط تبول عليه الكلب . . قال لها مثل هذا الحائط يهدم ويبنى سبع مرات . . قالت له ونكن الحائط الذى بيننا وبين منزلك . . قال سيدنا . . لا . . قليل من الماء يطهره

ولأهمية النكتة فى الحياة المصرية فان الصحف تحرص يوميا على تقديم نكتة لقرائها وأصبحت موضحة للرسم وتحرص وسائل الاعلام الأخرى على ترديد النكتة كما أن هناك مجلات أسبوعية مختصة للنكتة .

الفشر والفشارون

الفشر تعبير عامي يطلق على المبالغة فى الكلام مبالغة تصل الى مستوى الكذب . وهو كذب غير ضار لأنه قاصر عادة على المبالغة فى صفات أو إمكانيات الفرد دون أن يكون لذلك أثر على الآخرين .

يحكى الفشار عن نفسه أخبارا يقول إنها حدثت فى الماضى أيام شبابه مثلا أو إنتاجه الذى حققه ذات مرة

ويستمع الناس له وهم يعلمون انه مبالغ وغير صادق وهو غالبا ، يعتقد ان كل مستمع له يصدقه

والناس يضحكون عليه فى سرهم ويستخفون به وبحديثه

ومن أمثلة الفشر ان يحكى الشخص عن نفسه انه كان فى شبابه بطلا قويا أو انه كان يمسك قطعة النقود المعدنية بين اصابعه ويفركها فيمسح ماعليها من كتابه أو يكسرها بأصبعين . أو انه زرع محصولا ما فأعطى انتاجا ضخما أو زرع بطيخا فكان الجمل لايستطيع ان يحمل اكثر من بطيخه أو اثنتين لكبر حجم البطيخ أو يبالغ فى ثمن اشتراه أو باعه .

والمواوى الذى ورد عنه حديث فى موقع آخر من هذا الكتاب يصور الفشر والفشارين بصيغة أكثر مبالغة وتهويلا فيبعث على الضحك والتسليه .

وفى برامج الإذاعة شىء من هذا القبيل وتعد برامج خفيفه للتسليه والضحك من بينها الشخص الفشار كثير المبالغه وقد اطلق على الرجل الفشار اسم أبو لمعه وهو الشخص الذى يتباهى ويكذب ويبالغ فى كل شىء ويظن ان الناس تصدقه

وفى كل قرية صور من هؤلاء الناس قد يكون رجلا أو سيدة يعرف عنهم أهل البلد أنهم يبالغون وان من طبعهم الفشر

الوافدون على القرية

الوافدون للعمل

يفد على القرية على غير انتظام أو اتفاق أنواع كثيرة من ذوى الأنشطة المختلفة قد يحضرون من المدن القريبه أو من قرى مجاوره لأنها نوعيات لاتحتاجها القريه كل يوم بل منها مالا تحتاجه اطلاقا ، منهم البائع المتجول ، والحرفى البسيط ومنهم الشطار الذين يريدون تحقيق مكاسب مشروعه أو غير مشروعة كالغجر والدجالين الذين يدعون معرفة الغيب أو شفاء المريض أو عمل الأحجبة لجلب المحبة والوفاق . ومنهم الحواه ومنهم محترفو الموسيقى والغناء والرقص وضروب التسليه والمرح والباعه الجائلون انواع واشكال منهم :

تاجر القماش الذس يحضر وعلى كتفه أو رأسه مجموعه من اتواب الأقمشة القطنية والحريريه والصوفيه وقد تكون لديه دابه - حمار أو بغل - يضع عليها بضاعته ويجلس فى مكان ظليل عند مدخل أحد الشوارع المهمه حيث يكثر مرور الناس ويفرش بضاعته وكانت تباع بالذراع وهو مقياس قديم حل محله « المتر »

أما تاجر العدس والفول فقد جاء ببضاعته من الصعيد حيث تجود زراعه هذين المحصولين ويحمل بضاعته حمار أو حماران وينادى ان لديه فول المنيا أو عدس اسنا

والأوعيه الفخاريه ذات الجوده والشهره تأتى من قنا مثل القله والجره - البلاص - والزير والقادوس

ويأتى الصائغ على دابته ومعه مساعد قد يكون رجلا أو شابا للمساعده فى الحراسه ويفرش على الارض ويكون الذهب فى صندوق من الصفيح ومعه ميزان دقيق فى صندوق آخر ، ويبيع للسيدات الحلى والمصاغ الجديد ويشترى منهن الحلى القديمه

وهناك تاجر البذور ويأتى فى مواسم الزراعة وهو عادة يبيع تقاوى الخضر وليس له شأن بتقاوى المحاصيل ، ويسمى البذرجى.

والعطار يضع بضاعته فى اكياس صغيره من القطن ويبيع الكمون والكراويه واليانسون والكسبره والفلفل الأسود والفلفل الشطه والقرفه والحبهان وجوز الطيب ـ قبل ان يمنع تداوله ـ والنعناع والنباتات الطبيه الوارده من اسوان مثل الحلفابر والدمسيسة والحرجل والحنظل

ويأتى احيانا تجار من الشام ـ فلسطين أو سوريا ـ يحملون على دوابهم زيت الزيتون والزيتون المخلل والصابون النابلسى فيتهافت عليهم أهل القرية لأن زيت الزيتون نقى ولأن الصابون جيد النوع والصنع .

أما بائع الأدوية فانه اقرب الى التهريج منه الى الجد ، يحضر معه أعوان من الصبيه أو الرجال ويقف على مرتفع من الأرض ويخطب بألفاظ فخمة ضخمة ان لديه الدواء الذى يخلع الضرس دون ألم ويقوم بعمل تجربه على أحد أعوانه الذين حضروا معه ليشهد الناس ان العمليه سهله وتتم دون ألم . واذا كان يبيع حبوبا ملينه فانه يصيح مترنما . .

« كان شخص ياكل الفول كثيرا . . . . فاشتكى التخمه والأمر العسيرا . . . . فواماه روس بحبه . . . . فتعافى وغدا يشكر ربه » وروس هو الطبيب صانع الحبوب المسهله والتى كانت تسمى حبوب الدكتور روس

وباعة الحلوى كثيرون ولهم وسائلهم فى جذب الأطفال وليس من الضرورى ان يأخذوا ثمن الحلوى نقدا بل يأخذون كوز ذره أو كميه صغيره من القمح أو بيضه أو قطعة حديد قديمة منهم من يسمى بائع « حلاوة زمان » وهى حلوى من السكر بيضاء لها قوام العجينه المتماسكه تلف حول عصا خشبية طويلة وفى آخر العصا شخشيخه وهو يهز العصا حتى تحدث الشخشيخه صوتا ويصيح حلاوة زمان ياولد . . .

وبائع المثلجات ـ الدندرمه ـ له نفير ماان يسمعه الاطفال حتى يتهافتون عليه

وبائع البالوظه يأتى وعلى رأسه طبليه من خشب وعليها اطباق من البالوظه الملونه وهى مصنوعه من النشا والسكر وقد يضع عليها بعض حبات من الزبيب

ويحضر بائع العرقسوس وعلى صدره جرته الكبيره وفى يده اطباق من نحاس يحدث بها نغما موسيقيا ويقول : شفا وخمير ياعرقسوس

وبائع التمرهندى مثل بائع العرقسوس ولكنه ينادى : تمر ولله الأمر

أما بائعة أدوات التجميل وهى عادة من الغجر تبيع للبنات الأمشاط والفلايات والكحل والصابون ذى الرائحه ويسمونه الصابون الممسك أو أبوريحه ، وتبيع ايضا الروائح العطريه والبودره وتنادى على بضاعتها بصوت منغم :

الطرح يابنات . . امشاط وفلايات

ويأتى الى القريه الاسكافى وغالبا يحدد يوما معينا فى الاسبوع ويختار مكانا ثابتا وهو يصلح الأحذيه والبلغ القديمة

أما مبيض النحاس فيحضر ومعه مجموعة من الصبية ويجلس فى ميدان أو بجوار المسجد أو على مقربة من دوار العمدة . وينادى الصبية فى القرية . . نبيض النحاس نبيض ويجمعون النحاس ويدعكونه بالحمره أو رماد الفرن أو الرمل ثم يكسونه بطبقه من القصدير .

الوافدون للتسلية والمرح

للقرية أفراحها وهى أيضا فى حاجة إلى التسلية والمرح وتمضيه أوقات الفراغ فى لهو ومرح وأكثر الذين تخصصوا فى ذلك يأتون من خارج القرية وأهمهم :

الطبالون :

توجد فرق للطبالين والفرقة عادة تتكون من ثلاثة أو أربعة يعزفون على المزمار ومعهم مثل هذا العدد من الطبالين ولهم رئيس والعزف على المزمار شجى مطرب وعندما تعمل الفرقة كلها أى المزمار مع الطبل فإنها تحدث إيقاعا يطرب الناس وكان المزمار وسيظل من أجمل الآلات الموسيقية التى تسمع فى الريف والذين ولدوا فى الريف وعاشوا فيه سنوات عمرهم الأولى ثم شاءت لهم الاقدار أن ينالوا حظا من الثقافة والارتحال إلى بلاد بعيده فإنهم يظلون طيلة عمرهم يستمتعون بسماع المزمار والطبل البلدى أكثر من السمفونيات الأجنبية .

وتحضر فرقة الطبالين إلى القرية بدعوة إلى حفل وغالبا هو حفل زواج ويحضرون من الظهر يزفون جهاز العروس وهو ينقل من منزلها إلى منزل العريس وما بين العصر والمغرب تقام حلبة لرقص الخيل على نغم المزمار حيث ترقص طربا رقصا رائعا جميلا ربما إنفردت به القرية المصرية على سائر القرى العربية بل سائر قرى العالم .

وعندما يأتى المساء تقوم الفرقة بزفة العريس من منزل أحد الأقارب أو الأصدقاء إلى منزله حيث تكون العروس قد سبقته إلى هناك . وتسير الزفة على ضوء المشاعل وهى عصى طويله تحمل فى نهايتها لفافة من أقمشة قطنية بالية عليها مواد بترولية ويشعل فيها النار وكلما قاربت أن تخبوا يصب عليها البترول فتزداد إشتعالا .

فاذا انتهت الزفة قامت فرقة الطبالين بعمل السامر حيث يجلس الناس أرضا على حصر أو غيرها فى حلقة واسعة ويتركون داخل الحلقة فارغا وتقوم الفرقة باداء تمثيلية مكونة من ثلاثة فصول وتكون التمثيلية ذات معنى ومغزى وهى عادة فكاهية يتخللها

كثير من النكات والضحك والتهريج ويقوم بدور المهرج أحد الطبالين وتكون له القدره على إطلاق النكت السريعة وباسلوب حسن الالقاء ويلبس المهرج ملابس مكونه من رقع كبيرة متعددة الألوان ويضع على وجهه دقيقا أو بودره بيضاء وعلى رأسه طربوش قديم أو طرطور من قماش أو ورق وعلى كتفه فرقلة وهى عصا خشبية قصيرة مثبت فى آخرها حبل طوله نحو متر ونصف متر سميكا ثم يصبح رفيعا فى النهاية . فاذا ضربها فى الهواء احدثت صوت فرقعه عاليه الصوت ويسمى الفلاحون هذا المهرج الخلبوص .

والتمثيلية التى تمثل تكون عاده من تاليف وإخراج وتمثيل الفرقة وقد تكون لها أصل من قصص ألف ليلة وليلة بعد التعديل والتحوير أو تكون مقتبسة من بعض قصص الأدب الشعبى الريفى وقد يشترك فى اداء التمثيلية سيد ههى عاده من الراقصات اللاتى يحترفن الرقص فى الريف « الغوازى » .

وبعد انتهاء الفصل يدور الخلبوص - المهرج - يجمع النقوط من المتفرجين فيخلع طربوشه أو طرطوره ويضعه على كفه مقلوبا حيث يضع المتفرجون قروشا كل حسب قدرته الماليه أو حسب رغبته فى مجامله العروسين وأهلهم وقد تصل النقوط إلى مبالغ كبيرة .

ويستمر الفصل التمثيلى نحو ساعة أى أن السامر يستمر نحو ثلاث ساعات حيث ينتهى آخر الليل وقرب الفجر .

المداحون :

وهى أيضا مجموعة ولكنها قليلة العدد نحو ثلاثة يحمل كل واحد رقا أو طارا وقد يكون مع أحدهم آلة موسيقية أخرى كالربابه أو الناى .

يدورون على منازل القرية جميعها وهم يغنون باغان يبدأونها بمدح النبى ﷺ ومدح آل بيته وينتهى المدح إلى صاحب الدار التى يقفون أمامها طالبين العطاء والجود فيقدم لهم أهل الدار أى شىء قل أو كثر قد يكون رغيف خبز جاف أو قليلا من الذرة أو القمح أو النقود ، والقصائد التى يتغنون بها قد تكون لشعراء وقد تكون من تأليفهم .

وقد يدعى هؤلاء المداحون إلى إقامة حفل صغير خاص عند أحد القرويين .

الغوازى :

وهن السيدات اللاتى يحترفن الرقص ويرجع أصل أكثرهم إلى طائفة الغجر ولكن منهن من لا تنتسب إلى تلك الطائفة وتكون من أصل ريفى ولكنها إتخذت هذه الحرفة هى وأسرتها وهناك قرى إشتهرت بأنها تخرج طوائف الراقصات .

والغازيه تدعى إلى حفل أو فرح ويحضر معها رجلها ويكون معه أرغول أو مزمار وهى تحمل عادة صاجات نحاسية لإيقاع الرقص . وللراقصة ملابس خاصة ليست خليعه على كل حال ولكنها مميزه . وقد تغنى وهى ترقص اذا كان صوتها مقبولا أو حسنا ، وقد تقوم بعمل إستعراض تمشى على أرجل خشبية مرتفعة أو تمشى على حبل مرتفع مشدود وعندما تقل دعوه الغوازى إلى الحفلات والأفراح فإنهن يطفن بالقرى ويقفن أمام كل دار للرقص والغناء وطلب الجود من أجل الجود .

عازف الناى :

ويطوف بمفرده ومعه آلة الناى الموسيقية ومنهم من يبرع فى الأداء حتى يطرب ويشجى ويجد الاستحسان من سامعيه فيطلبون منه الاعاده والتكرار ويعطونه ما تجود به أنفسهم .

عازف الأرغول :

والأرغول آلة موسيقية تصنع من عيدان نبات البوص ويكون طويلا يصل إلى أكثر من متر وعاده يتركب من بضع قطع تتصل ببعضها فيطول أو يقصر حسب مايتراءى لصاحبه . ويعزف الرجل نفخا فى الارغول بكل قوته فتنتفض عروق رقبته وشدقيه ومع مرور الأيام تصبح رقبته وقد اتخذت شكلا مميزا يعرف به عازف الأرغول .

والأرغول هو الآلة الموسيقية التى تصاحب عاده منشد الموال ولذا تكرر السهرات التى يسمع فيها الآلة الموسيقية نظرا لميل الناس إلى سماع الموال .

عازف الربابه :

وله مكانته وأهميته ويسمى أيضا الراوى وهو يقيم الحفلة بالعزف على الربابة مع رواية قصه بطولية عن أبو زيد الهلالى أو عنتره بن شداد أو بعض أبطال الأدب الشعبى الريفى مثل أدهم الشرقاوى وأحلى القصص عند الفلاحين هى قصة أبو زيد الهلالى

حيث يرويها بأسلوب مشوق ولا يتوقف الا عند حادث مثير يشد الانتباه ويلهب الحواس يكون الليل قد مضى أكثره وأوشك الفجر على الطلوع ومع هذا يطلب المستمعون فى حماس أن يستمر الراوى فى سرد القصه فيعدهم أنه يكملها فى الليلة القادمة .

وبين الحين والحين وأثناء تلاوة القصة يعزف على الربابة عزفا شجيا مطربا ويقدم له المستمعون النقوط علاوة على ما سيدفعه له الداعى إلى الحفل ، مع القيام بواجب الضيافه والاكرام .

المطربون والمطربات :

فى المناسبات السعيدة كالزواج أو العودة من الحج أو قدوم مولود ذكر أو لذكرى مولد الرسول يكون الاحتفال بها أحيانا بالاستماع إلى مغنى أو مغنيه ويحضر المطرب عادة ومعه فرقته الموسيقية ويبدأ الغناء فى أول الليل ويستمر إلى قرب نهايته . ويحيى بعض هذه الليالى المشايخ من مقرئى القرآن ولكن فى مثل هذه المناسبات يتلون التواشيح الدينية وقصائد فى مدح الرسول ولا تصاحبهم آلات موسيقية . وقد يؤدى ذلك شيخ واحد وقد تلازمه مجموعة من زملائه تسمى البطانه فيقولون إن الذى سيحيى الليلة أو ذكرى المولد هو الشيخ فلان وبطانته ويلطق عليه إسم الصييت أى صاحب الصوت الجميل .

الأديب الأدباتى :

يطوف بالقرى أحيانا شخص يلبس طربوشا له زر طويل وتحت إبطه طبله ويدور على أبواب المنازل مغنيا واذا اشتد به الطرب يهز رأسه دائريا حيث يلف زر الطربوش فوق رأسه ، ويغنى أغانى ساذجه ويضحك الاطفال بحركاته ويختم اغنياته بأغنيه هزليه مطلعها :

أنا الأديب الأدباتى ...... ألم العيش تحت بطاطى

صندوق الدنيا :

يعرض للاطفال صورا من خلال عدسه زجاجية مكبره صورا مختلفة لابطال القصص الشعبية مثل أبو زيد والسفيرة عزيزة .

القرداتى :

وهو رجل يصطحب قردا أو قردين وأحيانا يضيف إلى ذلك جحشا صغيرا وجديا ويقوم بالطبل على رق أو طار ويحمل القرد على الرقص ويطلب منه تقليد الفلاحه وهى تعجن أو كيف يمشى الرجل العجوز ، كما يحمل الجدى يقف على وتد يدقه فى الأرض فيصعد إليه الجدى واضعا أرجله الاربعة على الوتد رجلا بعد أخرى . ويقوم القرد والجدى بركوب الحمار ومداعبته . والصبيه يتجمعون فى حلقة كبيرة حول الرجل ومجموعة من القرود والجحش والجدى وهم سعداء يضحكون من اعماقهم ويصفقون . وبعد انتهاء العرض يدور القرداتى على المتفرجين ويمد لهم الطار ويضع كل واحد ما يستطيع دفعه سواء كان قرشا أو أكثر أو أقل .

الحاوى :

ولفظ حاوى يطلق فى الأصل على الرجل الذى يتعامل مع الثعابين ولكن اصبحت وصفا مطلقا للشخص الذى يدعى القيام باعمال السحر وخفة اليد والمهارة .

وحاوى الثعابين يحضر ومعه مخلاة بها مجموعة من الثعابين يكون قد انتزع انيابها السامة ويطلقها هو أو أحد أعوانه فى أحد المنازل أو الاماكن العامه أو المخازن ثم ينادى عليها بصوت خاص يحدثه فتأتى اليه . ويوهم الناس أن هذه الثعابين تسكن وتعيش المكان الذى أخرجها منه ويصدقه البسطاء ويتقاضى أجرا لأنه جمع الثعابين من المنزل أو الموضع الذى جمعها منه .

وأصبحت كلمة الحاوى تطلق على من يقوم باعمال غريبة . ويحضر إلى القرية بين الحين والحين رجل ومعه مساعد له وأطفال ويقوم بعمل حركات تدهش أهل القرية كأن يذبح أحد الأطفال الذين يرافقونه بسكين وتسيل منه الدماء ويقوم الطفل سليما معافى أو يخرج كتاكيت صغيره من جيبه أو من كمه أو يحول الماء الابيض إلى ماء ملون أو يبتلع شعلة نار أو يضع إبره فى خده ويخرجها من فمه وغير ذلك من الألعاب التى تعتمد على المهارة وخداع النظر .

المواوى :

رجل يحضر إلى القرية راكبا حصانا أو حمارا عاليا وعلى كتفه شال كبير وفى يده عصا طويله ويقصد العمده وأغنياء القرية ويمدحهم بألفاظ وصفات مبالغ فيها إلى درجة غير معقوله .. وينزل من على دابته أو يظل راكبا عليها ويهرول ذهابا وإيابا ويرفع صوته

قدر المستطاع ويمدح من يريد أن يمدحه فيقول مثلا :

يااللى تنوة البن يطلعوها من دوارك بالقصابيه
يااللى المكرونه تيجى للمضيفه فى وابور بضاعه
يااللى الموز اللى جاى من بساتينك صوابعه بالسلم
يااللى محفظه فلوسك يشيلوها عشر رجاله

ويظل هكذا إلى أن يأخذ العطاء مضاعفا مثل مديحه المضاعف .

الغجر (النوّر)

أصلهم غير معروف على وجه التحديد . يقولون عن أنفسهم إنهم عرب ولكن الغجر موجودون فى أوروبا ولهم أيضا تقاليدهم وعاداتهم وأساليبهم الغريبة فى الحياة وانعزالهم الكلى عن المجتمع .

وهم لا يرتضون كلمة « الغجر » ويعتبرونها كلمة سباب .
ولا يرتضون كلمة « نور » لأن معناها اللصوص .

وعددهم فى مصر قليل ، بل قليل جدا ولكن لهم شهره لكثرة تحركهم ، يجوبون كل القرى ويحضرون أكثر الموالد والأسواق . واذا نزلوا قرية فان حالة تشبه « إعلان الطوارىء » تشيع فى القرية كلها وتسيطر على أهلها فالكل يحذرهم لما عرف عنهم من مهارتهم فى السرقة وخاصة الأشياء التى يعبر عنها : ما خف وزنه وغلا ثمنه . . ولكن فى نفس الوقت هناك إجماع من أهل القرية على رؤيتهم ومشاهدة فنونهم وألاعيبهم . . فهناك من ترقص وتغنى . . وهناك من تدعى معرفه الغيب ومعها معطف به مجموعة من القواقع البحرية ، الودع ، وتنادى نبين زين نبين . . نرمى الودع . . نضرب الرمل . . نشوف البخت . . نبين زين نبين . وعندما تجلس على باب منزل استدعاها أهله لترى لهم مكنون الغيب تخرج الودع من المقطف أو الكيس وتفرش منديلا تقول لمن يريد من النسوه أن تعرف بختها . . إرمى بياضك يا شابه فتعطيها قروشا قليله وتقدم لها الغجريه الودع وتسألها أن توشوش الودع وتهمس إليه بالأسئلة التى تريد أن تعرف إجابتها .

وترمى الغجرية مجموعة ، الودع على المنديل المفروش على الأرض ثم تقول كلاما مسجوعا محفوظا وتلقى الكلام لكل فرد على شاكلته . . فالشابة التى لم تتزوج لها كلام يخالف ما يقال للمرأة المتزوجة التى تقدمت بها السن أو الرجل الكهل أو التلميذ الذى

ينتظر نتيجة الامتحان . . وهى طبعا تبشر بخير قادم وتقول عقب كل مقطع . . قولوا إن شاء الله . . فيردون عليها إن شاء الله يارب . . وتحذر من الحسود . . ومن الاقارب اللى زى العقارب . . .

والغجر يعيشون فى مجتمع مغلق على أنفسهم ولذا لم تتغير حياتهم واساليب العيش بالنسبة لهم وهم دائما يتزوجون من قريباتهم . ولا يزوجون بناتهم لأى فرد خارج الجماعة مهما إرتفع مقامه أو كثر ماله .

ومن العجب أنهم ينظرون إلى الفلاحين نظرة تقوم على التعالى ويحتقرون الزراعة .

وكل ما يتصل بها من حرف

وهم وان كانوا لا يقلعون عن السرقة ويجيدونها بمهارة فإنهم لا يستخدمون العنف ويعترفون سريعا للمسئولين بما اقترفوا من جرائم

ولا يعلمون أولادهم فى المدارس ولا أى حرفة من الحرف كأنهم خلقوا لحياة أقرب الى حياة التشرد ، وهم بها سعداء على أى حال وتلك هى حالهم فى البلاد العربية وفى أوروبا وفى كل مكان يعيشون فيه . . مجتمع مغلق ، يعيش على مخالفة قوانين البلاد ، يكره العلم والتعليم .

وقد حدث ذات مرة ان أحد الخلفاء فى العراق صلب فى يوم واحد تسعين واحدا من الغجر لأنهم نهبوا الغلات ونشروا الرعب فى البلاد . وفى العراق تطلق كلمة الزط على الغجر وقد وصف الشاعر هذا المنظر بقوله :

لم أر صفا مثل صف الزط
تسعين منهم صلبوا فى خط
من كل عال جذعه بالشط
كأنه فى جذعه المشتط

مستقبل القرية المصرية

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

« قرآن كريم »

تقـــــــديم

عاشت القرية المصرية على مدى يزيد على اربعين قرنا بأسلوب يكاد يكون ثابتا لا يتغير أو يتبدل الا فى نطاق محدود .

بقيت القرية على ما هى عليه شكلا وموضوعا . . . المنزل ومواد بنائه ونظامه ومحتوياته حيث يضم السكان وماشيتهم وطيورهم . وأدوات الفلاحة ومستلزمات الانتاج .

ونظام الطعام ومكوناته ومواعيد العمل وفترات الراحة .

وعادات وتقاليد ظلت باقية تنتقل من جيل الى اخر منذ العهود الفرعونية الى مطلع هذا القرن .

ويبدأ موكب تاريخ القرية وكأنه واقف مكانه لا يتحرك فإن الصورة ثابتة لا تتغير والدليل قائم لا يحتاج الى اثبات توضحه تلك الرسوم والكتابات على جدران المقابر والمعابد التى بنيت ايام الفراعنة .

تعاقبت الاجيال وظلت القرية بعمارتها وعاداتها وتقاليدها على ما هى عليه .

سارت الحياة فيما مضى رتيبة رضى بها السكان واستراحوا واستكانوا لا فارق بين امسهم ويومهم وغدهم الى ان تغير نظام العالم وتبدل تغيرا سريعا يحث الخطى ولايتوقف واصبحت البشرية كلها فى سباق مثير يساند هذا السباق علم دافق واكتشافات واختراعات مع مطلع كل شمس ومواكب حضارة تسابق الزمن وتكاد تسبقه .

وصحت القرية المصرية فيمن صحا واستيقظ ، تريد ان تعيش العصر الجديد واليوم الجديد وان يكون لها من خيرات الحضارة المزيد .

وللقرية المصرية الحق كل الحق فى ان ترتقى مدارج الحضارة صعودا اذ لها جذور عميقة فى هذا المضمار يوم سبقت العالم كله وعلمته مالم يكن يعلم وان مرّ بعد ذلك حين وأحيان طغى عليها ظلام الجهاله وجنى عليها واساء اليها .

واليوم للقرية موارد وامكانيات وعلم متاح واختراعات فى متناول اليد ومقدورها ويستظل كل ذلك بإيمان عميق وخلق كريم ونفوس طيبة محبة للخير تعودت البذل والعطاء ونكران الذات والتسامح .

واصبحت كل الطرق ممهدة والوسائل سريعة لكل من يريد ان يحقق اهداف الحياة بعيشة كريمة .

وزمام الأمر وقيادته فى يد أبناء القرية أنفسهم فلن يرتقوا أو يسعدوا إلا بجدهم واجتهادهم .

تنمية القرية لن تتم الا عن طريق إحداث تغيرات حضارية فى المجتمع ويتطلب ذلك اولا وقبل كل شيء تطوير كثير من الافكار والمفاهيم التى تسود حياة القرية والمجتمع المصرى ويتطلب ذلك فكرا مستنيرا ينقلنا من الماضى وبساطته الى الحاضر ومتاعبه والمستقبل ومشاكله المعقده .

فكر مستنير ينقلنا من الماضى واغواره وخيالاته الى الحاضر بوضوحه ووقائعه .
فكر مستنير ينقلنا من الآراء المخدره الى الجهود النشطه .

واقع العالم اليوم ان الغنى المثقف المنتج المفكر تزداد حياته رفاهية وهناء والفقير الجاهل المريض المتكاسل تزداد حياته هموما ومتاعب ويتساقط عليه الشقاء من كل جانب ومثل هؤلاء فى حاجة الى يد قوية تهزهم هزا وتوقظهم من أوهامهم وأحلامهم وأفكارهم المتخلفة .

وفى ربع القرن الذى مضى بدت بعض ظواهر تعوق التنمية وهى إلقاء كل الأعباء أو اكثرهم على الدوله ومطالبتها بالحلول مع ان الكثير من متاعب القرية ومشاكلها يمكن ان يحل على يد أهلها اذا تعاونوا أو عاشوا لحظة صدق مع انفسهم أو تصدت القيادات الصالحة للخدمة العامة والعمل المثمر دون انتظار الجزاء أو أجر أو ثناء .

ليست هناك قرية عقيمة من القيادات الصالحة رجالا ونساء وما احوج القرية لهم فى هذه المرحلة من تاريخنا .

الطيبون الصالحون هم فى كل قرية كثيرون اما الراشدون المصلحون فقليل ماهم .

التقدم الحضارى والتنمية الاقتصادية هى امور حتمية فى يومنا هذا لتحقيق المعيشة الراضية لفلاح مصر ولكل مصرى .

وكل من التقدم والتنمية لن يتحقق الا بالعمل

والمساعدة العظمى والمعنوية الكبري التى تقدم لساكن القرية تكون من ذراعه وليست من الذراع الممدودة اليه .

من اليد التى تعمل وتكسب وليست من اليد السفلى التى تمتد لتأخذ .

وحاشا للفلاح الأصيل الذى عاش كريما ان تمتد يده للحصول على معونة ايا كان مصدرها أو نوعها وهو ليس فى حاجة اليها اذ فى مقدوره أن يحقق لنفسه واسرته الرخاء وأن يطور قريته لتصبح جنة وارفة الظلال آمنة فى عيشة راضية .

المحاولات السابقة لتنمية القرية

منذ بداية هذا القرن بذلت محاولات كثيرة للنهوض بالقرية والريف وإصلاح أهله . نادى بالإصلاح مواطنون شرفاء كانوا يحسون بما يعانيه الفلاح وما هى عليه القرية من تخلف كانت جهودهم كلها دعوة ونداء ولكن أحدا منهم لم ينتقل من الكلمة الى الفعل ومن الآمال والتمنيات الى ميدان التنفيذ .

ثم تولت الدولة هذه المسئولية بواسطة أنظمة وقوانين ومصالح ومؤسسات أنشأتها ، ولكنها لم تحقق كل الاهداف .

ويلاحظ ان كل الجهود التى بذلت للنهوض بالقرية حتى منتصف القرن كانت مصر خلالها لا تعانى من الانفجار السكانى ولكن الريف كان يعانى من التخلف بسبب الفقر والجهل والمرض .

فكانت رسالة المؤسسات تهدف الى محاربة الفقر بالبحث عن مصادر وموارد جديدة لدخل الفلاح وحاولت ان تمحو الأمية وان تعالج المريض .

وأهم هذه التنظيمات والمؤسسات كانت :

الجمعية التعاونية الزراعية - بنك التسليف الزراعى - مصلحة الفلاح - الوحدات المجمعة - الوحدات الزراعية - الوحدة الصحية - مجلس القرية - الوحده الاجتماعية - جمعية الاصلاح الريفى - جمعية تنمية المجتمع - بنك القرية ، وغيرها .

الجمعية التعاونية الزراعية

هى أول شيء عرفته القرية منذ أكثر من نصف قرن وكان الأمل ان تكون مصدر الخير والبركات وعماد التنمية الاقتصادية والاجتماعية فهى متعددة الأغراض وقد حققت الجمعيات التعاونية الزراعية فى الخارج نجاحا منقطع النظير وأدت للفلاحين والمستهلكين خدمات عظيمة ، ولكنها فى مصر لم تؤد رسالتها لأسباب سيأتى ذكرها بشيء من التفصيل عند الكلام عن أسباب معوقات تنمية القرية .

بنك التسليف

أنشىء فى بداية الثلاثينيات من هذا القرن لحماية الفلاح من المرابين ودعم قطاع الزراعة والانتاج الزراعى وقد أدى خدمات جليلة للقرية وأهلها .

وكان هناك قانون يمنع نزع ملكية من يحوز خمسة أفدنه فأقل وقد سن هذا القانون عام ١٩١٣ لحماية صغار المزارعين الذين كانت البنوك تستولى على أراضيهم عند عدم الوفاء بالدين وكانت أغلب هذه البنوك أجنبية فى جنسيتها ورأسمالها وعندما سن قانون حماية الخمسة أفدنة امتنعت البنوك عن إقراض صغار المزارعين .

ولما كان المزارعون مضطرين للاقتراض للإنفاق على العمليات الزراعية وتوفير مستلزمات الانتاج من تقاوى وأسمدة وغيرها وبعد ان أقفلت البنوك أبوابها أمامهم ، لم يكن أمامهم إلا المرابون سواء فى القرية أو المدينة وكان اكثر هؤلاء المرابين من تجار القطن الاجانب أو تجار الذهب - الصياغ - أو بعض افراد فى القرية يمارسون الاقراض سرا . وكان اسلوب التعامل مع المرابين قاسيا ومجحفا لكل من يستدين وفى معظم الحالات كان يصل سعر الفائدة السنوية الى اكثر من ٧٠ ٪ وربما يصل الى ١٠٠ ٪ .

فلما أنشىء بنك التسليف وجاء إنشاؤه خلال الأزمة الاقتصادية العالمية وقام بتسهيل القروض لكل ما يتصل بالانتاج الزراعى حتى زادت انواع السلف على اربعين نوعا منها قصيرة الأجل ومنها التى تسدد على آجال طويلة . لهذا كان منقذا للفلاح وحفظ الاقتصاد القومى من الانهيار . وقد كانت هناك بعض انتقادات على اسلوب البنك فى العمل وتصرفات بعض الموظفين ولكن أحدا لا يستطيع ان ينقص من قدر الدور الذى قام به هذا البنك فى خدمة الريف والانتاج الزراعى .

وقد تغير اسم هذا البنك من بنك التسليف الزراعى الى « بنك التنمية والائتمان الزراعى »

وقد اخذ البنك فى تطوير أسلوب العمل وتقديم خدماته واخذ يشارك فى تحمل نصيب من المسئولية فى دائرة اختصاصه ولكن من الصعب ان يواجه المشكلة وحده .

مصلحة الفلاح

أنشئت فى الاربعينيات وكان صاحب الفكرة الدكتور أحمد حسين وقد وضع قواعد للنهوض بالقرية وتنمية مواردها على أسس علمية وعمل منهجا للتنفيذ واختار الموظفين بعد سلسلة اختبارات واقام لهم دورات تدريبية طويلة .

ولم يكد العمل يسير فترة قصيرة حتى تغيرت القيادة وبالتالى تغير نظام العمل وطريقته وأنشىء ما يسمى الوحدات المجمعة .

الوحدات المجمعة

أساس الفكرة أن يقام بكل قرية وعلى مساحة عشرة أفدنة وحدة تضم كل مبانى الخدمات التى تحتاجها القرية . . المدرسة والوحدة الصحية ، والوحدة الزراعية ، والوحدة الاجتماعية ، ومكتب للبريد والتليفون . . وأقيم أيضا مكان صغير للصناعات الغذائية . كما أقيم برج حمام لا يصلح لإيواء الحمام لأنه مبنى بالأسمنت المسلح .

والذى قرر إقامة الوحدات المجمعة كان من الذين شاركوا فى تكوين مصلحة الفلاح .

ووضعت الخطة على أساس أن تغطى جميع قرى مصر بهذه الوحدات المجمعة ولكن ما كاد يبدأ حتى توقف .

الوحدة الزراعية

أقامت وزارة الزراعة وحدات زراعية فى القرى أمكن بناء مقار للبعض منها ووزع بها موظف زراعى يقيم فى القرية لإرشاد الزراع وتنفيذ القوانين الزراعية وعندما تقرر بناء مقار استمرت الوزارة فى تعيين الموظفين بحيث أصبح فى كل قرية مهندس زراعى أو أكثر يقيم فى وحدة زراعية فاذا لم يكن هناك مقر لهذه الوحدة جعل مقره الجمعية التعاونية الزراعية .

وتنفيذ القوانين الزراعية يستنفد وقت المهندسين بحيث لا يبقى لديهم وقت لإرشاد الزراع الى الجديد فى عالم الزراعة .

الوحدة الصحية

وفى كل قرية الآن وحدة صحية يرأسها طبيب ومعه مجموعة من الممرضات والعلاج وصرف الدواء دون مقابل وقد زاد وعى الفلاح فأصبح يتردد على الوحدة إذا شعر بالمرض ولكنه حتى الآن لا يهتم بالوقاية من الأمراض اهتمامه بعلاج المرض بعد ظهوره والوضع يتطلب المزيد من التوعية وخاصة بالنسبة لبعض الامراض الخطرة مثل شلل الأطفال والدفتيريا والسل والبلهارسيا .

وكلها أنشأتها وزارة الشئون وليس لها منهج واضح اذ انها تحاول ان تمارس بعض انشطة تدخل فى اختصاصات اجهزة اخرى تعمل فى نفس القرية مثل العمل على تربية النحل وتمارسه وزارة الزراعة عن طريق أجهزتها او تربية دودة الحرير او الدواجن او انشاء المشاتل .

وقد تتصدى لعلاج المواطنين بينما الوحدة الصحية موجودة .

ولهذا لم تنجح هذه التشكيلات وخاصة أن المبالغ التى ترصد للتنمية تعود الى الموظفين فى صورة أجور إضافية ومكافآت وحوافز وبدل انتقال وغير ذلك من المسميات .

مجلس القرية

عندما قررت الدولة إنشاء نظام الحكم المحلى لتخفيف العبء عن الأجهزة المركزية وتيسير وصول الخدمات الى كل المواقع فى الريف وضعت فى تشكيل النظام الجديد انشاء مجلس للقرى الكبيرة أو لمجموعة من القرى المتجاورة ليكون مسئولا عن توصيل الخدمات المختلفة لأهل القرية والعمل على تنمية الموارد وقد تعطلت هذه المجالس فى بدايتها بسبب قلة الاعتمادات المالية بسبب الإنفاق الحربى الكبير الذى صاحب السنوات الأولى لإنشاء مجالس القرى وقد بدأ الموقف الآن يتحسن كثيرا فاعتمدت مبالغ لا بأس بها ولدى هذه المجالس موارد من ضرائب محلية ومبالغ أخرى من الجهود الذاتية ويوجد الآن وفرة من الموظفين يرأسهم موظف جامعى حصل على سلسة من التدريبات وهو يشرف على كل جهاز حكومى بالقرية ما عدا الشرطة .

وبقى ان تتحرك هذه المجالس وتعمل فلم يعد هناك عذر مقبول للتوقف والركود .

نادى الشباب

فى كل قرية الآن نادى للشباب ولكنها لم تؤد رسالتها على الوجه المطلوب حتى الآن والاعتمادات التى تعطى لها قليلة والإشراف والتوجيه أقل .

أنشطة أخرى

علاوة على ما ذكر فإنه توجد فى بعض القرى أنشطة أخرى مثل جمعية تحفيظ القرآن أو جمعية أصدقاء الكتاب المقدس أو جمعيات خيرية وفى بعض القرى حضانة للأطفال .

ماذا حققته هذه الأجهزة والمنشآت . . ؟

توفرت للقرية كل هذه الأجهزة والمنشآت وأصبحت عامة تشمل جميع القرى بعد منتصف هذا القرن .

ولا شك ان القرى وأهلها قد استفادوا كثيرا اذا كانت المقارنة بالنسبة لما كانت عليه الحال قبل ذلك التاريخ . ولكن الذى لاريب فيه ان كل هذه الأجهزه والمنشآت لم تبذل كل جهدها ولم تؤد واحدة منها رسالتها على الوجه الأكمل وهناك نصيب من مسئولية التقصير تقع على الفلاح نفسه .

لم تنجح كلها فى توفير الخدمة المثالية أو تحقيق اى مستوى فى تنمية القرية لأسباب كثيره يمكن ذكر بعضا منها مثلا :

- التوقف عن تنمية القرية بسبب قله الانفاق عليها بسبب الحروب المتصله لمدة ثلاثين عاما وتحمل ميزانية الدولة عبء الانفاق العسكرى وقد انتهى هذا الموقف الان وتوفرت موارد لا باس بها لكل قرية .
- تغلب الروتين الحكومى وكثرة اللوائح والقرارات وتضارب التفسيرات .
- هبوط مستوى الموظفين فكريا ووطنيا والبعض منهم يرى الأمور من زاويته الخاصة وليس من زاوية الوطن .
- الاتجاه الأخير ان يكون الموظف من ابناء القرية . وربما فعلت الدولة هذا كجزء من حل مشكلة السكن والمواصلات ولكن جاء ذلك على حساب الانتاج والخدمات .
- كثره التبديل والتغيير فى الخطط ومناهج العمل واساليب التنفيذ .
- مركزية الإشراف على التنفيذ . ويوشك ان ينتهى ذلك بتحمل المحليات مسئولية التنفيذ .
- عدم وجود اى نظام او محاولة لتقييم المنجزات .
- كثرة تغيير قيادات الموظفين بالنقل او الندب أو الإعارة او الترقية .

- عدم ربط التخطيط بتوقيت زمنى للتنفيذ .
- تعدد الأجهزة وعملها فى اتجاهات متنافرة لارابط بينها ولا تنسيق وقد أصبح ذلك مسئولية رئيس مجلس القرية .
- عدم ربط الأجر بالإنتاج . وهذا هو المدخل الأول للإصلاح .

المتغيرات

مضت الحياة فيما مضى وانقضت رتيبة رضى بها الناس واستراحوا واستكانوا لافارق بين أمسهم ويومهم وغدهم الى ان تغير نظام العالم وتبدل وأصبحنا نعيش زمانا يتاح فيه العلم لكل من يطلبه وتلاشت المسافات بل والحدود أيضا فإن حدوث مشكلة كبيرة أو ظاهرة جوية حادة فى اى موقع تؤثر على مواقع كثيرة بعيدة أو قريبة . إن زيادة سعر البترول بقرار من منتجيه أو ارتفاع سعر القمح لنقص انتاجيته نتيجة عوامل جوية كل منها يتأثر به العالم أجمع .

كان التغير بطيئا منذ قرن مضى وأصبح الان سريع الخطى بل يقفز قفزا تغيير الى الافضل والى حضارة انسانيه صنعها فكر الانسان ويده وهى له مهما اختلفت الاجناس والالوان واللغات والاديان والمواقع .

واصبح نهر الحضارة اليوم يتدفق فى متناول كل الأمم لا فارق بين شرقى وغربى ، وشمالى أو جنوبى ، بين ساكن الريف أو ساكن الحضر ، نهر دافق لكل من أراد أن ينهل من مناهله العذبة الفياضة .

حاضر أفضل من الماضى ومستقبل أفضل من الحاضر لان الزمان غير الزمان والعصر الذى تعيشه البشرية اليوم وبعد اليوم يفرض التقدم والتطوير والتجديد شاء الناس أم لم يشاءوا لان امواج الحضارة عالية دافقة سريعة لا يستقر لها قرار ولا تقف عند حد .

لم يعد هناك أناس يعيشون فى الكهوف أو الغابات بمعزل عن الحضارة فإنهم ان لم يتذوقوها فهم يشاهدون كل يوم مواكبها تسير أمام عيونهم .

ولم تعد هناك بقعة من الارض لم تصل إليها القراءة والكتابة والإذاعة أو لم تصل إليها السيارة والطائرة والغذاء المصنع والدواء المستحدث والكساء المتجدد ليس هناك فقير مهما فتك به الفقر لم يتذوق ألوانا من الطعام والشراب وليس هناك مريض لم يعرف الطبيب أو الدواء . وليس هناك جاهل مهما اشتد جهله لا يضيف الى معلوماته فكرا جديدا وثقافة متجددة .

فى منتصف هذا القرن ثارت كل المجتمعات على الاستعمار حتى أتت عليه وطردته من أوطانها بعد القضاء على الاستعمار فان الشعوب الناميه تقاوم حكم الطغاة والمستبدين .

ان العلم ينتصر كل يوم على الجهل والجهالة ويحدث ثورات عارمة عنيفة فى مجال الفكر البشرى .

وقد نالت القرية المصرية نصيبا من الحضارة وتغيرت صورة الحياة فيها كثيرا خلال جيل واحد.

تغير المسكن فدخله الماء النقى والكهرباء والراديو وأصبح فى كل بيت تلاميذ يتعلمون لان بالقرية اكثر من مدرسة وتغيرت كثير من العادات. فقد اختفى حجاب المرأة وأصبحت سافرة الوجه . واختفت الخرافات مثل الاعتقاد بوجود العفاريت والجن والغول واختفى التداوى بالتمائم والأحجبة .

وتغيرت وسائل الانتقال من الدواب الى وسائل سريعة . . عجلة عادية وعجلة بخارية وسيارات .

زادت معرفة الفلاح بالحياة ، بالماضى وتاريخه والحاضر وما يجرى فيه والمستقبل وتوقعاته فلم يعد سيدنا فقيه الكتاب أو مدرس المدرسة هما مصدر المعرفة الوحيد بالقرية فقد جاء إلى كل بيت معلم مقيم متعدد المواهب وأستاذ متجدد العطاء وهو الراديو ومعه التليفزيون وكانت المعرفة وراء تغيير مجتمع القرية والارتقاء بها نسبيا .

كما تطورت الزراعة وارتفع معدل الإنتاج بسبب تحسين التقاوى وتقدم وسائل مكافحة الآفات واستخدام الآلات

وعرف إبن القرية الهجرة الى العالم الواسع خارج الحدود الى بلاد النفط التى تحتاج خبرته ومهارته بل هاجر كذلك الى أوربا الغربية وأمريكا واستراليا .

حدث تقدم فى القرية دون شك وأصبحت صورتها اليوم خلاف الأمس القريب ، ولكن هذا التقدم وذلك التغيير ليس على مستوى القرن العشرين فالعالم كله يحث الخطى نحو حياة أفضل . ولكن خطى العالم المتقدم فى أوربا الغربية وامريكا الشمالية واليابان واسعة وسريعة متتابعة ، أما فى البلاد الأخرى وخاصة التى يتفجر فيها تعداد السكان مثل الهند وباكستان واندونيسيا وأواسط افريقيا فان خطى التقدم بطيئة تسير ثم تتعثر حتى تتوقف وقد تسير الى الأمام فى بعض نواحى الحياة وتسير الى الخلف فى نواح أخرى .

أما القرية المصرية فقد حققت تقدما ولكنه نسبى لا يقارن بحضارة النصف الثانى من هذا القرن الذى تحققت فيه اكتشافات واختراعات علميه وتفوق التطبيق العلمى وأصبحت المسافة الزمنية بين اكتشاف أى نظرية ووضعها موضع التنفيذ قصيرة جدا لا تتجاوز بضع سنوات قليلة على عكس ما كان يحدث فى القرن السابق .

كانت القرون الماضية مفتخر على التاريخ ان كلا منها قد تحقق فيه اكتشاف كبير مثل عصر البخار وتلاه عصر الكهرباء . . . . أما هذه السنوات التى نعيشها فقد حقق العقل البشرى انتصارات كبيرة فى مقدمتها الطاقة الذرية واستخدام الطاقة الشمسية واختراع العقول الألكترونية الأقمار الصناعية وسفن الفضاء ونزل الإنسان على سطح القمر وعاد الى الارض سالما فى عدة رحلات ووصلت سفن الفضاء الى بعض كواكب المجموعة الشمسية كالزهره والمريخ .

وحدث تقدم كبير فى وسائل المواصلات وأولها الطائرات والوسائل الاخرى مثل السيارات والقطارات والبواخر .

وتقدمت علوم الطب والدواء وأصبح لأكثر الأمراض علاجات شافية .

على ان تقدما كبيرا قد حدث فى علوم الزراعة باستنباط اصناف جديده من المحاصيل ممتازة الصفات باستخدام علم الوراثه والانتخاب وفى مجال مقاومة الآفات الزراعية والوقاية منها وفى الآلات المستخدمة فى الزراعة وفى وسائل الرى حيث استخدمت اساليب جديده للرى مثل الرى بالرش والرى بالتنقيط وكل منهما يوفر كميات المياه المستخدمه حتى يمكن استخدام المتوفر لزراعه مساحات جديده .

وفى مجال الثروة الحيوانية يتحسن الانتاج الحيوانى بصفة مستمرة وتقدمت أساليب تربية الدواجن لانتاج اللحم والبيض وابتكرت طرق لتربية السمك وانتاجه على نطاق واسع . وتحققت قفزة علمية مذهلة بظهور علم الهندسة الوراثية الذى بدأ تغيير علوم الحياة ، نباتيه وحيوانية والذى سيكون له آثاره المبهرة على الحياة .

وقد استفادت القرية المصرية من هذه العلوم الحديثة ووصل اليها بعض من أساليب حضارة اليوم ولكن هذا الذى وصل قليل من كثير كان يجب ان يتحقق ولذا فإن الفرصة مواتية لإحداث تغييرات كثيرة وجوهرية .

وأصبح من ضرورات العصر وطابع الحياة اليوم ان يصل قريتنا كل ما حققته التكنولوجيا على المستوى العالمى فانه لا ينقصنا الآن العقول المفكرة المثقفة ولكن ينقصنا إرادة التنفيذ وسلامته . .

ولعل من اكبر المتغيرات التى كان للقريه نصيب وافر منها هو حلول السلام بعد حروب دامت ثلاثين عاما . وأصبحت القرية الآن آمنة مطمئنة بعد ان كانت فى خوف مستمر من الحروب وأهوالها .

كانت القرية عرضة للغارات الجوية وكان أبناؤها فى زهرة العمر يذهبون الى ساحة القتال ولا يعودون . ومنهم من يعود مشوها عاجزا عن العمل .

وحدث ربط على البطون سنوات متعاقبه وتسعير للحاصلات لتوفير الانفاق على الحروب .

عاد السلام وندعو الله ان يدوم خيره وتستمر بركاته .

هذا القرن منذ مطلعه كان بالنسبة للقرى قرن الحروب ، حروب ليس لنا فيها مصالح ولكن شاركت فيها مصر مرغمة وهى الحرب العالمية الأولى ثم الحرب العالمية الثانية ، شاركت برجالها وأموالها وخدماتها لجيوش الحلفاء .

ثم حروب متصلة من عام ١٩٤٨ الى ١٩٧٤ من أجل فلسطين واليمن والعرب ضحت فيها مصر بمائة ألف شهيد وأربعين ألف مليون من الجنيهات .

وفى ظل السلام لابد ان يتغير واقع القرية مستفيدا من حضاره العصر وعلومه ولا يمكن فرض التغيير .

التغيير يتكون وينبع من نفس المجتمع وقد جاء فى القرآن الكريم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

« الهجرة من القرية وإليها »

لم تكن الهجرة من القرية معروفة للفلاحين وأبنائهم لحبهم للأرض ولأهلهم ولترابط العاطفة بينهم وكلما ازدادت المتاعب وتلاحقت إزدادوا تمسكا بحب وطنهم الصغير فلا يبرحون بلادهم

ولم يكن يهاجر الا شخص هارب من حكم قضائى أو مطارد للثأر أو مجرم تبحث عنه أجهزة الدولة

وحدثت هجرات اضطرارية أيام المجاعات التاريخية الى الشام والبلاد القريبة وكذلك أيام الحروب كانت تحدث هجرة من بعض القرى التى تمر بها الجيوش الى القرى

الأخرى البعيدة . ولكن فى مثل هذه الحالات كان الفلاحون يعودون الى قراهم بعد زوال المجاعة أو انتهاء الحروب

على أنه على مدى تاريخ مصر الطويل كانت تحدث الهجرات من خارج الحدود الى قرى مصر فقد وفدت من الجزيرة العربية ومن بلاد الشام افواج متلاحقة من الهجرات قبل الاسلام وبعده واستقر المهاجرون فى قرى شرق الدلتا وعلى امتداد الصعيد . كما كانت تحدث هجرات من المغرب العربى مثل قبائل أولاد على وغيرهم الذين استقروا بقرى البحيرة والفيوم والمنيا .

كانت الهجرة تتمثل أساسا فيمن يفد على القرية وليس فيمن يتركها إلى خارج الحدود

والهجرة التى كانت تحدث من القرية كانت قصيرة المدى كأن يهاجر إبن إلى العاصمة أو المدن الكبيرة لطلب العلم أو البحث عن عمل غير الفلاحة أو يكون قد حصل على وظيفة وتطيب له الحياة فى المدينة فيقيم فيها ويظل غالبا على صلة بأهله وقريته يأتى اليها فى الأعياد والمناسبات ولكن مع مرور الزمن تنقطع صلة الأبناء والأحفاد تدريجيا بالوطن الأصلى .

واكثر أماكن الطرد إلى المدن كانت من القرى التى ازدحمت بالسكان مثل قرى المنوفية وقرى الصعيد الأعلى ، اسيوط وسوهاج وقنا

وقد اخذت الهجرة شكلا جديدا خلال النصف الثانى من القرن العشرين بعد ان تضاعف عدد سكان القرى كثيرا وتناقص زمام الأرض المنزرعة ، بسبب الاتساع فى المبانى والمشروعات العامة على حساب الرقعة المنزرعة ، وبسبب الزيادة المستمرة فى عدد المثقفين وظهور البترول فى بلاد الجزيرة العربية واحتياج هذه البلاد الى الخبرة الفنية للتعمير وللمثقفين من ابناء مصر فى كل التخصصات فى التعليم والطب والهندسة والزراعة والعمالة الفنية المدربة ، فأخذ كثيرون من ابناء القرى يسافرون الى هذه البلاد للحصول على موارد مالية اكبر ويقيمون هناك اقامة مؤقتة ومهما امتدت بهم سنوات العمل فإنهم يعودون الى بلادهم ولا يبقى هنلك الا القلة التى لا يعتد بعددها

وقد هاجر فى هذه المرحلة ايضا المضطهدون سياسيا مثل جماعة الأخوان المسلمين

واكثر العائدين بعد هذه الهجرة المؤقتة يعود الى قريته ويغير من اسلوب معيشته فى القرية فيعيد بناء منزله أو يبنى منزلا جديدا على نظام حديث مزود بالماء والكهرباء ويفرشه بأثاث حديث . ثم يستثمر امواله التى ادخرها فى مشروعات على قدر رأس ماله واكثر هذه الاستثمارات فى مجال الانتاج الزراعى كأن ينشىء مشروعا لتسمين الماشية أو انتاج اللبن أو لتربية الدواجن بالاساليب الحديثة لانتاج اللحم أو البيض ، وقد يحضر

معه من الخارج سيارة ركوب أو سيارة نقل أو جرار زراعى ، كما يحضر بعض الأدوات الحديثة لتأثيث المنزل مثل الثلاجة والمروحة الكهربائية وموقد الطهى الذى يعمل بالغاز

وبلغ عدد المهاجرين للعمل ـ وهى هجرة اكثرها مؤقت ـ اكثر من مليونى شخص وذلك فى نهاية العقد الثامن من هذا القرن

وحدث شيء جديد بالنسبة لهجرة ابناء الفلاحين وخاصة المثقفين منهم فان كثيرا منهم لم يتجه الى بلاد البترول حيث الرزق اكثر وفره ولكن كانت هجرتهم الى بلاد الغرب ، بلاد أوروبا الغربية مثل انجلترا والمانيا الغربية والنمسا وايطاليا وفرنسا والى الامريكتين وخاصة الولايات المتحدة الامريكية وكندا ومنهم من هاجر الى استراليا ونيوزيلنده

اكثر هؤلاء المثقفين كانوا يهاجرون بقصد الحصول على مؤهلات علمية أعلى مما حصلوا عليه فى الجامعات المصرية والبعض كان يكتفى بما حصل عليه فى مصر ويخوض معركة الحياة فى هذه البلاد الغريبة عليه فى اللغة والدين والعادات والتقاليد

ونجح اكثر هؤلاء المهاجرين إن لم يكن كلهم وحققوا تفوقا ونجاحا فاق كل تصور وفى كل المجالات فى الطب والهندسة والجيولوجيا والعقول الألكترونية وعلوم الفضاء والكيمياء والزراعة . كما نجح الكثيرون فى أعمال التجارة والصناعة وأصبحوا من رجال الأعمال البارزين

ومنهم من احتل اماكن الصدارة فى مراكز البحوث والجامعات والمستشفيات الجامعية . ولا تكاد تخلو جامعة من جامعات الولايات المتحدة الأمريكية من أساتذة من الشباب المصرى الذى هاجر الى هناك منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين . كما يوجد عدد من مشاهير الأطباء فى مستشفيات انجلترا

وساهم العلماء المصريون فى برنامج الفضاء الأمريكى ووصل بعضهم الى القمة بعلمه وعمله واجتهاده

هذه ثروة علمية تعتز بها القرية المصرية وتفخر وان كان اكثر هؤلاء المهاجرين قد اكتسب جنسية البلاد التى هاجر اليها واستقر فيها ولن يعود الى قريته وقد بدأ ينساها أو يتناساها ولكن البعض الآخر لايزال على صلة بأهله أو قريته وقد يساعد قريته بالمال أو المشروعات وقد حاول أحدهم ان يستخدم الطاقة الشمسية فى قريته وبجهوده الخاصة دون مساعدة من أحد

والبعض يساعد ذويه وافراد أسرته على الهجرة الى حيث يقيم ليجدوا مزيدا من العلم أو جديدا من العمل

وقد كان للوضع الجديد للهجرة ان بدأت صورة الحياة فى القرية تتغير وساعد على ذلك دون شك الخدمات التى تقدمها الدوله وفى مقدمتها دخول الكهرباء القرية ووجود المدارس والمياه النقية للشرب والوحدات الصحية فساعد كل ذلك المهاجرين على تحقيق فوائد مادية وأخرى أدبية واجتماعية عندما يعودون الى الإقامة والاستقرار فى قراهم أو عندما يكتفون بالعون المادى لأهلهم ويظلون فى اقامتهم بالمهجر الجديد

نتج عن هذا تحسين فى بناء المنزل وارتفاع مستوى المعيشة نتيجة لارتفاع مستوى الدخل

ودخلت الاجهزة الحديثة الى القرية بكثرة لم تكن بها من قبل وفى مقدمتها التليفزيون الملون والثلاجة والسيارة وغيرها

وأهم من كل ذلك ان هذا النجاح الذى يحققه المهاجرون سواء كانت هجرتهم مؤقتة ويعودون الى قراهم أو كانت الهجرة الى غير عودة ويحققون انتصارات علمية أو تجارية فان كل هذا أوجد فى شباب القرية روحا جديدة وثابة الى الهجرة والطموح والحصول على مستويات أعلى فى الثقافة وزيادة الخبرة والدخل

هناك فوائد كبيرة عادت على القرية نتيجة هذه الهجرات وكانت هذه الفوائد نتيجة للجهود الفردية فكل واحد يعمل لخير نفسه أو افراد اسرته

وعسى ان يكون قريبا ذلك اليوم الذى يكون فيه المهاجرون العائدون مجموعات عمل لخدمة القرية كلها . . يوم يحدث ذلك فسيكون نقطة تحول فى تاريخ القرية . . تحول جديد إلى صورة اكثر إشراقا وأسعد حالا مما هى عليه اليوم

على ان ظروف الحياة فى مصر والزيادة المستمرة المتصاعدة والسريعة فى عدد السكان قد جعل المدن وخاصة القاهرة والعواصم تزداد بها مشاكل المعيشة وتتفاقم حتى صار اكثر هذه المشاكل متعذر الحل وفى مقدمة ذلك أزمة الاسكان اذ لا تجد الزيادة المطردة فى عدد السكان حاجتها من المسكن . وأصبحت المواصلات داخل المدن عسيرة بسبب الزحام ويستغرق الانتقال بين المنزل وموقع العمل زمنا مضاعفا علاوة على المتاعب الأخرى التى يسببها الزحام سواء فى الحصول على التموين لطعام الأسرة أو التحاق الأبناء بالمدارس والجامعات يضاف إلى ذلك الإرهاق النفسى بسبب المتاعب اليومية المتصلة داخل المدينة الكبيرة

وفى الناحية الأخرى بدأت القرية تأخذ وضعا جديدا بعد وصول الخدمات العامة اليها من مرافق مثل الماء والكهرباء وخدمات تعليمية وصحية وغيرها

لهذا كله سيأتى عاجلا اليوم الذى يهاجر فيه أهل المدن الكبيرة الى القرية هروبا من متاعب العيش فى المدينة

وستبدأ الهجرة من أهل القرية الذى كانت سبقت لهم الهجرة إلى المدينة وطابت لهم الإقامة فيها . سيعودون إلى بلادهم الأصلية بحثا عن معيشة أكثر راحة واستقرارا وهروبا من زحام المدن ومتاعبها ومشاكلها.

ولعل فى الهجرة العكسية من المدينة الى القرية مايكون من أسباب النهوض بالقرية ورفع مستواها

معوقات التنمية

الزيادة السكانية

تضافرت عوامل كثيرة على زيادة النسل فى القرية وتجمعت هذه العوامل كلها الآن كأنها على موعد بعضها طبيعية وأخرى نتيجة لمفاهيم خاطئة وفى مقدمة العوامل الطبيعية إقبال الإنسان المصرى على الزواج ، ثم سن الزواج المبكر فى الريف والخصوبة العالية للمرأة المصرية بصفة عامه والريفية بصفة خاصة . وأضيف لهذه العوامل أفكار ومعتقدات ليس لها سند واقعى أو أساس علمى ولكنها سادت وسيطرت على مجتمع الريف . وعلاوة على كل هذا فان الحكومه قررت زيادة فى المرتبات واعانة الغلاء وبطاقة التموين لرب الاسرة الذى يعول عددا من الأبناء فمن كان عنده ثلاثة أبناء أو أكثر يميز عمن لديه واحد أو اثنين وهذا يميز عمن لم ينجب ولايزال هذا التميز ساريا وفى مقدمة الافكار المسيطرة أن كثرة الإنجاب تساعد على زيادة دخل الأسرة والاعتقاد الخاطىء أن الأديان تحرم تحديد النسل وأن الكثرة العددية مطلوبة للتغلب على الأعداء خارج الحدود وأن الطاقات البشرية ، مورد يمكن تصديره والاستفاده منه .

الإنسان المصرى بطبيعته محب للزواج ويقبل عليه لتمسكه بالدين لأنه يرفض العلاقة غير الشرعية ويعتبرها عارا وجريمة ولذا فإن معدل الزواج يصل إلى درجة مرتفعة تبلغ ١٠ فى الألف وقد تتجاوزها .

والزواج فى الريف يتم فى سن مبكرة عادة أقل من العشرين وتتم حالات زواج كثيرة دون سن السادسة عشرة وهى السن القانونية للزواج ويحدث هذا بالحصول على شهادة طبية تفيد أن طالب الزواج قد تجاوز السادسة عشرة أما فى المدن فإن سن الزواج يكون عادة فوق العشرين وبالنسبة للفتاة الجامعية يصل هذا السن إلى خمسة وعشرين عاما .

وقد تميزت الفلاحه المصرية بالخصوبة العاليه جدا فإن القدرة على الإنجاب تستمر من السادسة إلى التاسعة والأربعين وتلد خلال فترة الخصوبة الطويلة العديد من الأبناء .

أما أن كثرة الانجاب تساعد على زيادة الدخل فربما كان ذلك صحيحا فى مرحلة سابقة عندما كان الأبناء يعملون فى الحقل ولا يتعلمون أما الآن فالأسرة حريصة على تعليم أبنائها والتفرغ للمدرسة دون العمل فى الزراعة ورب الأسرة مطالب بتوفير الغذاء والكساء لكل الأبناء وهو مطالب أيضا بالإنفاق على الدروس الخاصة حتى ينجح الأبناء فى الامتحانات ويحصلون على الشهادات ، ورب الأسرة حريص أيضا على رعايتهم صحيا وعلاجهم من كل مرض ، لهذا أصبحت كثرة العيال عبئا على الأسرة وزيادة الإنفاق ولم تعد مصدر دخل .

أما عن الاعتقادات الدينية فإن كلا من الإسلام والمسيحية لم تحرم تحديد النسل وليس هناك أى نص على ذلك .

وقد صدرت فتاوى من الهيئات الرسمية للفتوى من كبار العلماء توضح دون لبس أو إبهام أن تحديد النسل جائز ولا حرمة فيه .

ثم إن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه منذ عهد الصحابه فلم يقف اجتهاد الصحابه ومن جاء بعدهم من العلماء ومفكرى الإسلام إلى يومنا ، لم يقف اجتهادهم عند النصوص والقياس وإنما شمل كل وجوه الرأى وفقه الرأى والاجتهاد يتأثر بالبيئة وما حقق مصالح الناس .

الاجتهاد مطلوب فى كل مرحلة وإن كان موضوع تحديد النسل أو مايطلق عليه حاليا تنظيم الأسرة ليس فى حاجة الى إجتهاد جديد فقد أفاض فيه علماء الدين المسلمون وكذلك علماء الدين المسيحيون .

والفكرة التى سادت أنه بزيادة النسل تتغلب على الأعداء ونرد كيدهم فى نحرهم فقد كذب الواقع ذلك وانتصرت اسرائيل وتعدادها مليونان من البشر على أكثر من مائة وثمانين مليون عربى فى ثلاثة حروب متوالية فالعبرة ليست بالعدد ولكنها بالقدرة والكفاءة .

وتصدير الطاقات البشرية تتضاءل أمامها الفرص تدريجيا بسبب الزيادة السكانية المستمرة فى الدول التى كانت تسمح بالهجرة وتشجعها وبالمنافسه الشديدة التى تقابل الأيدى العاملة المصرية من عمال شرق آسيا داخل الوطن العربى. وخاصة فى البلاد المنتجة للنفط وعلى هذا فإن الإقبال على الزواج ثم سن الزواج المبكر والخصوبة العالية للفلاحه والاعتقاد بأن الأديان تحول دون تحديد النسل وأن كثرة الأولاد تزيد الدخل وتكيد الأعداء ويمكن الاستفادة منها بتصديرها خارج الحدود ، ومساهمة الحكومة فى تحمل أعباء الأسرة التى يزيد إنجابها يضاف إلى كل هذا تعدد الزوجات وزيادة نسبته فى القرية عن المدينة ، كل هذه العوامل المتعددة كانت السبب المباشر فى زيادة النسل فى القرى المصرية وأن تسير هذه الزيادة عفوا وطفواً دون ضوابط أو حدود .

وضاقت مساكن القرية وشوارعها وحواريها عن استيعاب السكان وأصبح نصفهم من الأطفال والصبية أى من الفئات التى تستهلك ولا تنتج .

ويبقى الزمام المنزرع على ماهو عليه بل تناقص بعض الشيء بسبب اتساع العمران والتوسع فى المشروعات العامه .

وكلما ازدحم الناس وتكاثروا انخفض معدل الخدمات العامه وكفاءتها

إن زيادة النسل فى القرية هو أول معوقات التنمية وأكبرها وهو المنبع الوحيد لكل مشكلات القرية .

ولن يكون هناك إصلاح ولن تتحقق تنمية أو تزدهر حضارة الاّ اذا عولجت مشكلة زيادة السكان أولا وقبل كل شيء .

الصحة

لازمت الفلاح أمراض كثيرة منذ القدم توطنت معه واخذت تصارعه ويصارعها ، كان يصارعها فيما مضى بدواء مما فى متناول يده من نبات أو منتجات حيوانيه أو أملاح أو معادن أو باستخدام النار لكى موضع الألم ، وأضافت الجهالة إلى وسائل العلاج أشياء ، ليست من العلم أو التجربه أو الخبره مثل الشعوذه التى كان يمارسها بعض أدعياء الطب والكهنة ورجال الدين ويقدمون للمرضى تعاويذ وتمائم وأحجبه وأدعية لا تشفى ولا تعالج ولكنها تضيف الى الأوهام وهماً جديداً وتعطى للداء فرصه زمنية يستشرى فيها ويمتد إلى أوصال الجسد ويشتد ، ظل الحال على ذلك إلى أن استنار الناس وتقدم العلب وصناعة الدواء وأصبح هناك أطباء متخصصون فى كل فروع الطب ومصانع للدواء تبحث وتجربها ثم تصنع الدواء فى صورة بسيطه سهله التداول رخيص الثمن عالى الفائدة .

واستفاد الفلاح من ذلك كثيرا فإن بعض الأمراض قد اندثر واختفى من حياته مثل الجدرى ولم يعد السل يحصد الأفراد والعائلات بصورته الحزينة الأليمة ولم تعد البلهارسيا تلازمه من طفولته إلى شخوخته وأصبح علاج الملاريا والنزلات المعديه والمعويه سهلا وتضاءلت أخطار امراض العيون بعد أن كان الرمد يسبب ضعف الإبصار وفقدها .

وأصبح لكثير من الامراض دواء للوقاية منها والحيلوله دون الإصابة بها مثل شلل الأطفال والدفتيريا والتيفود والسل والجدرى .

وفى كل قرية الآن وحدة صحيه يسرع اليها الفلاح اذا مرض يجد فيها العلاج والدواء دون أجر أو عناء .

وطرح وراء ظهره خرافات التعاويذ والتمائم والأحجبه والكى بالنار .

ولكن اهتمامه بصحته يكاد يكون قاصرا على علاج المرض عند نزوله فإنه حتى الآن لا يعطى للطب الوقائى إهتماما مع أن كثيرا من الأمراض المنتشرة فى الريف يمكن الوقاية منها بالنظافة أو بالأدوية الوقائية .

وإذا كان مرض البلهارسيا هو أقدم الامراض وأخطرها لما يسببه من تدهور عام فى الصحة وما ينتج عنه من مضاعفات أخطر منه فإن انتشاره يمكن أن يقل ويضمحل لو أن الفلاح إمتنع عن التبول فى مجارى المياه .

ومع التحسن الملموس فى صحة أهل الريف بعد إنشاء الوحدات الصحية فى كل القرى وارتفاع مستوى الوعى فلا يزال المرض عاملا مؤثرا على العمل والإنتاج وأهم من كل هذا لا يزال مؤثرا على سعاده الفرد والأسرة .

وفى الحقيقة إن صحة الفلاح والحفاظ عليها أصبحت مسئولية الفلاح وحده طالما ان الدولة يسرت له الطبيب المقيم ، والدواء والتمريض والمستشفى فى كل قرية دون استثناء ووفرت له مياه الشرب النقية الخالية من قواقع البلهارسيا وميكروبات الأمراض .

الفلاح مسئول عن وقاية نفسه وأسرته من البلهارسيا وشلل الأطفال والجدرى والملاريا والتيفود والدفتيريا والتهاب الكبد الوبائى والسعال الديكى وهو مسئول عن نظافة المأكل والملبس والمسكن ونظافة الجسد . .

ان المعيشة فى القرية ستصبح أكثر رغدا وهناء إذا اعتنى الفلاح بصحته وتجنب الأمراض بالوقاية والعلاج والنظافة .

العمالة

يمر الإنتاج الزراعى فى وقتنا الحاضر بمرحلة صعبة ربما لم يسبق لها مثيل ، إذ بينما يزداد عدد سكان القرى زيادة سريعة متوالية تتقلص الرقعة الزراعية بسبب ما يستهلك منها لإقامة المساكن والمؤسسات والمرافق ، نجد أن الأيدى العاملة فى قطاع الزراعة تتناقص عدداً وتقل كفاءة وترتفع أجراً .

وقد وضحت المشكلة الآن وتجسمت ولكنها ستتفاقم وتزداد خطراً فى السنوات القليلة المقبلة إذ ترتبط بالكيان الاقتصادى المصرى كله وبمستقبله .

وأصبح من الواجب والضرورى التصدى لها بعزم وشجاعة قبل أن يصعب الحل ، علماً بأن كل حل مهما بلغت كفاءته وقدرته لن يقضى على المشكلة سريعاً ، ولكن المضى فى الإصلاح ومواجهة مصاعب الحلول أفضل دون ريب من التغاضى عنها أو التهوين من أمرها .

لقد أصبحت المشكلة واقعاً مجسماً يعترض مسار الإنتاج الزراعى وإذا عقدنا العزم ووضعنا وسائل العلاج موضع التطبيق فإن ظهور نتيجة العلاج سيكون مرحليا وستظل آثار المشكلة ضاغطة على الاقتصاد الزراعى إلى أمد قد يطول .

وهذا كله يبرر ويلزم سرعة تصدى المسئولين للموقف ومحاولة إيجاد الحلول ووضعها موضع التنفيذ المرتبط بالتوقيت الزمنى قبل أن يسبقنا الزمن .

فى بعض مراحل الماضى كان مجتمع القرية ملكاً لواحد أو لأسرة أما اليوم فإن مجتمع القرية ملك للجميع ، الرخاء يعم وكذلك الشقاء . والرخاء يأتى نتيجة العمل والنشاط والسعى المتواصل لرفع مستوى المعيشة ، أما الشقاء فهو نتيجة الكسل والتواكل والتراخى .

لقد كانت الحياة فى القرية فى أوئل هذا القرن أشبه بالثابتة أما اليوم فإن التغيير مستمر ، ولابد لنا من العمل الدائب لتغيير أوضاعنا وإلا أفلت منا الزمام واستعصى الحل .

والعاملون فى قطاع الزراعة الذين يسكنون القرى فى ازدياد كبير سريع ، والرقعة الزراعية التى تقوم عليها القرى الحالية فى تقلص مستمر ومع هذا يعانى العمل الزراعى من قلة العاملين .

ومنذ عام ٦٤ / ١٩٦٥ حتى اليوم تناقصت الرقعة الزراعية القديمة بنحو مليون فدان ، كل قرية من القرى القديمة ، والتى يبلغ عددها أربعة آلاف قرية ، زاد عدد سكانها وقلت مساحتها بينما لاتجد الزراعة الأيدى العاملة الكافية ، فازداد الطلب وارتفعت الأجور ، وفى مواسم العمل ـ وخاصة فى الصيف ـ تأخذ الظاهرة صورة الأزمة الحادة .

وقد ساعدت بعض الظروف على وجود هذا المناخ وفى مقدمتها أن الدولة ألزمت نفسها بتوظيف كل من يحصل على مؤهل دراسى أيا كانت نوعية هذا المؤهل وقيمته . كما

أنها عقب حرب أكتوبر ألزمت نفسها بتوظيف كل المجندين المسرحين من الجيش وغالبيتهم من الفلاحين . وألحقوا فى مواقع عمل ليست فى حاجة إليهم ، ولما تزايد عدد المعينين حشروا حشرا فى منشآت هى فى غنى عنهم وبدلا من أن يعود شباب القرية الذين جندوا إلى الحقل عادوا إلى قراهم فى وظائف لا وجود لها . . يتقاضون أجراً ولايؤدون عملاً وبهذا إنتقل هذا الشباب وهو فى سن العمل والإنتاج إلى مجال البطالة المأجورة ، مجال لايصل فيه كان يعمل بالحقل ، ثم جند ، فاكتسب لياقة بدنية وعولج من أمراضه الطفيلية وعاد إلى القرية موظفاً على باب المسجد أو المدرسة أو المجلس القروى مكلفا بنظافة الشوارع وجمع القمامة .

هذا بالنسبة للشباب فى سن العمل والانتاج . أما الأطفال والصبية فان أهلهم يضنون عليهم أن يذهبوا إلى الحقول . . والأمل والرجاء عندهم أن يحصل الأبناء على شهادة ـ أى شهادة ـ ليصبح بواسطتها موظفاً . وموظفاً فى القرية أو فى مكان قريب .

وكانت المرأة تشارك الرجل العمل الزراعى وتتحمل معه عبئا يكاد يكون متساويا ولكن الجيل الجديد من الشابات أصبح يأنف العمل الزراعى ولايذهب إلى الحقل .

ومن هذا نجد أن سبب آزمة العمل الزراعى أن الروافد التى كانت تغذى العمل بالعمال قد جفت ونضبت .

الذين كانوا يذهبون من الحقل إلى الجيش كانوا يعودون إلى الحقل ولكنهم عادوا إلى مواقع كسولة لاجهد فيها ولاعناء ، لها رواتب ثابتة منتظمة تزيد مع الأيام وحقوق واضحة ولا يقابل الرواتب والحقوق أية واجبات صغرت أو كبرت .

والمصدر الثانى هو الأجيال الصاعدة من الصبية والأطفال بنين وبنات ـ الذين كانوا يلازمون الآباء فى غدوهم ورواحهم إلى الحقل ويعملون به جعلوا كل وقتهم لتعليم سنته الدراسية نصف عام ويومه الدراسى نصف يوم وهدفه شهادة توصل صاحبها إلى وظيفة تعهدت بها الدولة والتزمت وأصبح ذلك شعاراً من شعاراتها .

والمصدر الثالث وهو العنصر النسائى آصبح يرى أن العمل الزراعى لايناسبه ولذا إبتعد عنه وعن الحقل .

والمصدر الرابع وهو الأطفال المتسربون من مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى لايريدون أن يعملوا بالحقول ، وآباؤهم لايرضون لهم ذلك .

وهكذا أصبح حجم العمالة الزراعية فى تناقص مستمر لعدم وجود روافد تغذية من الشباب ثم من الصبية ثم من النساء وبقى الحجم الأصلى من ذوى الأعمار المتقدمة يتناقص بالعوامل الطبيعية من عجز وشيخوخة ووفاة .

ونتج عن ذلك علاوة على ارتفاع الأجر إنخفاض ساعات العمل وهبوط معدل ومستوى الأداء مما تسبب فى زيادة التكاليف وانخفاض جودة الإنتاج كما هو حادث فى رتب القطن مثلاً والتى تقدر خسارتها السنوية بنحو ٥٠ مليون جنيه وتفشى الإصابة بدودة ورق القطن نتيجة عدم دراية الأطفال أو إهمالهم .

والسبب الرئيسى إن لم يكن الوحيد فى حدوث هذه الظاهرة هى كراهية أهل الريف للعمل الزراعى هروباً من مشقته وشعورهم بسهولة الحصول على الوظيفة . وهو سبب نفسانى يحتاج علاجه إلى تحول فعلى فى مفهوم الحصول على الرزق ورفع مستوى المعيشة .

ولا نستطيع أن نضيف الآن إلى هذا السبب عامل الهجرة إلى المدن أو البلاد العربية فهى عوامل غير مؤثرة حالياً لأن مافى الريف من كثافة سكانية يكفيه بل يفيض عن احتياجات الرقعة الزراعية بالأداء التقليدى وبديهى أن الفائض سيكون أكثر لو إستخدمت الميكنة والأساليب الحديثة وهى فى سبيلها الى التطبيق الفعلى فى الريف وأصبحنا الآن فى القرية أمام جيل يعتمد على الدولة فى كل شىء ولا يعتمد على نفسه فتراخى إلى حد الكسل والتواكل وانعدمت روح المغامرة والابتكار والتطلع إلى حياة أفضل بالكفاح والاجتهاد ، وأصبحت الأمانى هى التطلع إلى حياة أسهل لا اجتهاد فيها ولا عرق . ولن يرتفع نصيب الفرد من الدخل القومى بدرجة ملموسة إلا بالعمل المنتج والعمالة الحكومية فى أكثر صورها ليست عملا منتجاً .

إن الأزمة قائمة ، يكبر حجمها يوماً بعد يوم ويزداد خطرها إجتماعيا واقتصاديا وسياسياً ولابد من التصدى لهابشجاعة ووضوح ودفعها بكل الوسائل قبل أن يمضى الوقت ويستعصى الحل . . . ولقد مضى حين من الوقت وكاد الحل أن يصبح عصيبا .

وليست هناك حلول سريعة لهذه المشكلة فكلها تحتاج إلى وقت ومثابرة وأمانة وجدية فى التنفيذ عساها أن تحقق الرجاء أو بعضه .

وفيما يلى بعض الآراء التى تفيد فى حل هذه المشكلة :

مناهج التعليم والتدريب :

- ضرورة تعديل مناهج التعليم فى المراحل الأولى - الابتدائى والإعدادى - وإدخال تعليم فنى تحتاجه القرية فى يومنا هذا من ميكانيكا وكهرباء ونجارة وغيرها .

- وأن تكون هناك مراحل تعليمية منتهية .

- تطوير التعليم الزراعى المتوسط حتى يستطيع أن يخرج شبابا يستطيع أن يمارس العمل الزراعى بتطبيق تكنولوجيا آخر القرن العشرين . لان التعليم الحالى يخرج شبابا يصلحون لعمل زراعى كان سائدا منذ اكثر من نصف قرن . فالخريج حاليا لا يعرف شيئا عن الميكنة الزراعية أو طرق تربية الدواجن الحديثة وزراعة الأسماك والبستنة وإعداد المحاصيل للتسويق والتصدير وطرق الرى والصرف والزراع المحمية .
- التوسع فى التدريب الفنى عمليا دون إعطاء أى شهادة .
- إلغاء تسعيرة الشهادات .
- العدول عن التزام الدولة بالتعيين لكل من يحمل مؤهلا دراسيا .
- إعادة النظر فى مجانية التعليم الجامعى بحيث تصبح المجانية مقصورة على المتفوقين أما غير المتفوقين فيدفعون التكاليف الفعلية ـ ويعاد النظر فى مرات الرسوب ـ وفى عدد الكليات النظرية .

الإعلام :

تقوم وسائل الإعلام بالتوعية إلى المصادر المختلفة التى يمكن الحصول منها على الرزق بعيدا عن الوظيفة وان فرص العمل ليست مقصورة على وظائف الحكومة والقطاع العام . والعمل الخاص والمهنى اكثر ربحا وأقدر على تكوين الشخصية واكتساب الخبرة علاوة على الحرية التى لا تقدر بثمن .

وتدعو إلى أن العمل هو الأساس الذى يرفع مستوى المعيشة فى الريف . العمل الجاد المنتج المتطور الآخذ بأساليب التقدم الحضارى .

الأجهزة السياسية :

آن الأوان لأن تضع السياسة نفسها فى خدمة الاقتصاد المصرى بدلا من آن يسخر الاقتصاد المصرى لخدمة السياسة ، وألا يخضع العمل السياسى لتيار العاطفة واسترضاء الجماهير بتحقيق ما تريده، ولو كان فى غير صالح البلاد ومستقبلها .

المسرحون من التجنيد :

يعود المجندون إلى مواقعهم الأولى دون أن تتحمل الدولة عبء توظيفهم فيعود الفلاح إلى حقله بعد فترة التجنيد التى استفاد منها صحيا وثقافيا .

الميكنة :

إستنباط واستخدام آلات زراعية صغيرة تؤدى مختلف الخدمات الزراعية وتلائم ظروف الزراعة المصرية مع التدريب المستمر على حسن استعمالها وصيانتها .
إننا نترقب اليوم الذى يتحرر فيه الفلاح من العمل اليدوى . . نترقبه ونتمناه ولكننا لا نتمنى ان يخلو الحقل المصرى من فلاحه .

تفتيت الحيازة الزراعية

تفتيت الحيازة الزراعية من معوقات الإنتاج الزراعى عامة . ومشكلة التفتيت تفرض نفسها على الزراعة المصرية سواء كان التفتيت للحيازة أو للكية الأراضى .
واسبابها كثيره ، أولها الضغط السكانى المتزايد وانتقال الأرض بالتوريث من فرد الى جملة أفراد وتمسك كل وارث بنصيبه مهما صغر ، ثم القوانين التى جعلت حدا أقصى للملكية والحيازه ولم تتمكن من تنفيذ وجود حد أدنى للملكية لاعتبارات سياسيه واجتماعية ، فعندما صدرت قوانين الاصلاح الزراعى بعد عام ١٩٥٢ وضعت حدا أعلى وحدا أدنى للملكية الزراعية وكان الحد الأدنى خمسة أفدنة ولكن لم ينفذ ذلك .

وقدر المسئولون خطر مشكلة التفتيت واثرها المباشر على الانتاج كما ونوعا اذ أن التفتيت يعوق استخدام الآلات الزراعية التى تحقق خدمة أفضل واسرع وأرخص كما ينتج عنه فاقد فى الرقعة الزراعية بسبب كثرة المراوى والطرق والحواجز . ثم أن وجود محاصيل صغيرة المساحة ومتجاورة فى رقعة زراعية محدودة تختلف مواعيد زراعتها ونظام ريها ولكل منها آفاته وأمراضه يتسبب عن كل ذلك عوامل تضر الإنتاج فينخفض مقداره وتقل جودته وعلى سبيل المثال ما تحدثه مساحة منزرعه أرزا اذا كانت تجاور قطنا أو ذره أو خضرا وتصعب مقاومه الآفات واكتشافها مبكرا .

والحيازات الصغيرة تسبب فاقدا فى مياه الري لا يقل عن ٢٠ ٪ وهذا يؤثر على التوسع الأفقى والرأسى معا .
ولا يمكن تطبيق دورة زراعية اقتصادية مع وجود التفتيت ويصعب تنفيد بعض القوانين الزراعية .

نظام التجميع :

وكان الحل الميسور للتغلب على مشاكل التفتيت هو تجميع حيازات صغيرة متجاوره تزرع محصولا واحدا ويقوم كل مزارع بحرية الزراعة والخدمة ولكنه ملتزم بنوع

المحصول الذى يتقرر زراعته سواء كان قطنا أو قمحا أو برسيما أو قصبا أو ذره أو غير ذلك حسب ما تفرضه الدوره الزراعية المناسبة أو المطلوبة .

وبدأ تطبيق نظام التجميع على مستوى الجمهورية كلها عام ١٩٦٦ ومساحة التجمعية الواحدة نحو ثلاثين فدانا وهناك تجميعات اكبر من ذلك وقد بذلت محاولات لجعل مساحة التجميعة كبيره بحيث تبلغ بضع مئات من الأفدنة ولكن ظهرت معوقات أهمها قطاعات الترع ومجارى المياه وعدم قدرتها على توفير المقننات المائية اذا كانت مساحة المنزرع كبيره ومن محصول احتياجاته المائية عاليه مثل الأرز ولهذا بقيت مساحة التجميع قريبه من الثلاثين فدانا .

وتعود الزراع على هذا الأسلوب وارتاحوا إليه .

وأهم ما قدمته الدولة لخدمة نظام التجميع هو العدالة وتكافؤ الفرص لكل مزارع فلا استثناء ولا مفاضلة والخدمات كلها تصل الى الموقع فى مواعيدها .

ولكن هل عالج نظام التجميع مشاكل تفتيت الحيازة الزراعية .... ؟

التفاوت فى الإنتاج

طبقت الدولة نظام التجميع الزراعى ووفرت له كل الخدمات ومستلزمات الإنتاج ورفعت مستوى الإرشاد الزراعى وهيأت لكل مزارع العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص ونقلت إلى الحقول كل أساليب تحديث الزراعة والتكنولوجيا الجديدة .

وكان ابسط النتائج المنتظره ان يؤدى كل مزارع واجبه نحو نفسه ونحو وطنه ويرتفع بمستوى انتاجه .

ولكن مع الأسف بدت ظواهر غير طيبة ولا تزال قائمة ومستمرة الى الآن ألا وهى تفاوت الانتاج بين مزارع وآخر فى نفس التجميعة تفاوتا كبيرا تحت تماثل الظروف وتكافؤ الفرص .

وقد قام كاتب هذه السطور بعمل دراسة على انتاج القصب فى مركزى كوم امبو وادفو بمحافظة اسوان عام ١٩٦٦ ثم على انتاج القطن والقمح والذره فى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية فى اعوام ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ ثم قامت محافظ الفيوم بتقديم دراسة مماثله للمجلس القومى للانتاج عن انتاج القطن فى خمسة مراكز ادارية بالمحافظة وشمل البحث ستين تجميعة منها عشر تجميعات تتبع الاصلاح الزراعى وتمثل دراسة

الفيوم انتاج عام ١٩٧٧ كما عملت دراسة عن انتاج الموالح بالشرقية عام ١٩٧٦ و ١٩٧٧ وقد نشرت بعض هذه البحوث فى المجلات المتخصصة كما ان بعضها قدم لمؤتمرات زراعية .

ومن الضرورى التنويه على ان الدراسة كانت حريصه كل الحرص على ان تكون قاصرة على تماثل العوامل المتحكمه فى الانتاج وتشابهها وان الفرص المتاحة لكل المنتجين كانت فرصا متكافئة .

وكانت التجارب التى أجريت فى أسوان والشرقية يصاحبها تحليل كيماوى للتربة الزراعية بالنسبة لكل حائز لاستبعاد أى حيازة تتفاوت خصوبتها أو تتحكم فيها عوامل تؤثر على الانتاج كأن تكون مجاورة لترع ترشح مياهها فى القطع المجاوره وترفع مستوى الماء الأرضى بها واستبعدت ايضا كل شبهه لتهريب المحصول فان بعض .
الزراع الذين تراكمت عليهم الديون يسلمون جزءا من محصولهم الى جيرانهم الذين ليست عليهم ديون فيظهر متوسط انتاجهم منخفضا
كل هذه الصور استبعدت من الدراسه .

وقد حللت نتائج الدراسات إحصائيا وثبت ان التفاوت كان كبيرا والانحراف عن المتوسط كان غير مقبول علميا

ولايتسع المجال فى هذا البحث لسرد جداول الإحصائيات ونتائج تحليلها ولكن نذكر فى إيجاز بعض بياناتها

فى مركز ادفو اجريت دراسه فى ثلاثة احواض مختلفة متفرقه ولكن ظروف الانتاج فى كل حوض منها كانت متشابهة فى جميع العوامل فأصناف القصب واحده ومواعيد الزراعة متقاربة ونظام الرى وظروف الصرف واحده ومقررات التسميد متساويه وبديهى أنها تعرضت لظروف مناخيه واحده وقد تم تحليل التربه كيماويا فى معامل وزارة الزراعة - الادارة العامة للأراضى - فوجد ان تربة الحقول متشابهه التركيب ولكن اختلف الانتاج فى كميته وجودته كثيرا .

ففى حوض الجمعاويه مركز ادفو نجد أحد الزراع انتج خمسه أطنان من القصب من الفدان بينما انتج جار له ٥٢,٦١ طن ومتوسط التجميعة ٣٨,٧ طن

وفى ناحيه المواساه مركز ادفو أيضا نجد احد الزراع انتج ١٣,٥ طن من الفدان بينما انتج جار له ٥٤ طنا ومتوسط التجميعة ٣٠,٣ طن

وفى ناحيه البصيليه الوسطى بنفس المركز انتج احد الزراع ٨ أطنان من الفدان وانتج آخر فى نفس التجميعة ٥٥,٣٨ طن - ومتوسط التجميعة ٣٩,٥ طن

وفى مركز كوم امبو حوشه ١٤٩ حوض ٦٩ ناحيه كوم امبو قبلى كان متوسط الحوشه ٤٣,٨ طن بحد أدنى ١٩,٦ وحد أقصى ٥٠ طنا

وفى قرية غزاله مركز الزقازيق عام ١٩٦٧ - تجميعة قطن مساحتها ٣١ فدانا ومتوسط الانتاج ٣,٤٦ قنطار قطن زهر وعدد المزارعين ٢٥ مزارعا وكان أعلا أنتاج لأحد المزارعين ٧,٤ قنطار زهر وأقل انتاج ٢,٦ قنطار وواضح ان الفرق بينهما نحو خمسه قناطير وان الانحراف عن المتوسط من + ٣,٩٤ إلى - ٠,٨٦ قنطار وفى بيانات محافظه الفيوم عن محصول ١٩٧٧ كانت المفارقات كبيره ايضا نذكر على سبيل المثال :

تجميعه بمركز الفيوم - المتوسط ٣ قناطير وأعلا انتاج ٤ وأدنى انتاج قنطار واحد
تجميعه بمركز اطسا - المتوسط ٤ قناطير وأعلا انتاج ٦ والأدنى ؟ .
تجميعه بمركز ابشواى - المتوسط ٢ قنطار وأعلا انتاج ٧,٥ والأدنى قنطار واحد
تجميعه بمركز سنورس - المتوسط ٤,٧٥ قنطار وأعلا انتاج ٩,٥ والأدنى ٢,٨
وكذلك الحال فى كل التجميعات التى كانت موضع الدراسة وعددها ٦٠ تجميعه

وبالمثل أجريت دراسة عن انتاج الموالح فى مركز بلبيس عام ١٩٧٦ وكان تقدير وزارة الزراعه لمتوسط المركز ٨ أطنان ووصل انتاج بعض الزراع الى اكثر من ١٦ طنا وانخفض انتاج البعض الآخر الى أربعة أطنان تحت ظروف قريبة التشابه وليست كاملة التشابه لصعوبة المقارنة بسبب اختلاف الاعمار والأصناف والأصول التى طعم عليها البرتقال وتعتبر نتيجه الدراسه أنها تعطى مؤشرا الى تفاوت انتاج الموالح فى منطقة واحده

وعلى هذا فان رقم المتوسط العام الذى يذكر لمحصول ماسواء كان الرقم يمثل تجميعه مساحتها نحو ثلاثين فدانا أو يمثل قرية أو مركزا أو محافظة أو متوسط الجمهوريه فإن هذه المتوسطات تشبه الصوره الفوتوغرافية التى لاتعطى أبعادا ولاتبين أعماقا . وهذا التفاوت والبعد عن المتوسط فى انتاج كل تجميعه على مستوى الجمهورية يعطى مدلولا خطيرا لابد من التصدى له ومن التواضع تسميته تفاوتا فى الانتاج فهو خلل حقيقى

واصلاح هذا الخلل هو المدخل السريع للنهوض بالانتاج الزراعى وزيادة موارد القرية واذا وضعت خطه لتنمية القرية يجب أن يكون موضوع التفاوت فى الانتاج أول الموضوعات التنفيذيه

يجب ان تكون الفروق غير بعيدة عن المتوسط . وطالما أن الظروف متشابهة والفرص متكافئة وكل عناصر الإنتاج موحدة فى الصنف والسماد والمبيد وماء الرى وجودة التربة ومستوى الصرف والمناخ فمن الواجب اذا الا تبتعد الفروق عن المتوسط زيادة أو نقصا باكثر من ١٠٪ بمعنى انه اذا كان متوسط التجميعه سته قناطير فان اقصى انتاج يكون حوالى ٦,٦ قنطار وأقل انتاج يكون ٥,٤ قنطار . واذا كان تحت هذه الظرف المتساويه قد حصل أحد الزراع على ضعف المتوسط أو اكثر من الضعف كما رأينا فى للقصب والقطن فلماذا لا يكون كل زملائه المزارعين مثله .

وفى سجل كل مديرية من مديريات الزراعة بالمحافظات التى تزرع قطنا اسماء مزارعين من صغار الحائزين انتاجهم يزيد على العشرة قناطير من الفدان وقد تصل الى ١٣ قنطارا أو اكثر . وفى محافظات القصب يوجد زراع يتعدى انتاجهم سبعين طنا من الفدان فى كوم امبو وادفو والمطاعنه وقوص ونجع حمادى وغيرها ولاينخفض انتاج هؤلاء الزراع ـ وكلهم من صغار الزراع ـ مهما تغيرت الظروف أو تعددت العوامل التى ينسب اليها انخفاض المتوسط العام .

هؤلاء الزراع سواء كانوا من صغار الحائزين أو متوسطى الحيازة ـ وهم جديرون بتسميتهم ابطال الانتاج ـ لابد ان نأخذ منهم دروسا مستفاده تؤكد ان متوسطات الانتاج فى كل تجميعه وبالتالى فى القرى يجب ان تكون على مستوى هؤلاء الناس الذين لم تتح لهم فرصة استثنائية ولكنهم اتبعوا اسلوبا للتنفيذ سليما وليس فى هذا معجزة أو جهودا خارقه ولكنها أمور بسيطه للغايه وهى الاهتمام بتنفيذ مبادىء أصول الزراعة التى يعرفها كل من يعيش فى الريف حتى لو لم يكن زارعا للقطن أو لغيره من الحاصلات . ومن أمثلة هذه المبادىء الزراعه فى المواعيد واكتشاف الإصابه بالآفات مبكرا وعلاجها فور اكتشافها ونظافة الحقل من الحشائش والعناية بالرى دون غرق أو شرق والتسميد الوافى من الاسمده العضويه والكيماويه والعنايه بالجنى واعداد المحصول للتسويق نظيفا خاليا من الشوائب .

ولكن معرفة قواعد وأصول المبادىء الاساسيه للزراعة شىء وتنفيذها شىء آخر وعندما يهبط محصول مثل القطن أو القصب أو الموالح على مستوى الجمهوريه تظهر على الفور اسباب لهذا الهبوط فقد يذكران المناخ لم يكن مناسبا عند الزراعه واثناء أطوار النمو الأولى أو عند النضج وقد تعزى الأسباب الى التقاوى بأنها رديئة الإنبات أو وصلت متأخرة أو ان مياه الرى كانت شحيحه فى مرحلة من المراحل ، أو ان آفة معينة قد اشتدت الإصابه بها أو يعزى السبب الى مبيد معين بأنه غير فعال أو له آثار ضارة أو جانبيه أو اتهام الصنف بالتدهور ومطالبه ملحه بتغيير الصنف

يحدث هذا واكثر منه عندما ينخفض المتوسط العام

ولكن فى الجانب الآخر يبقى فى كل تجميعه وفى جميع قرى مصر دون استثناء مزارعون يحققون ارقاما قياسيه ويحافظون على انتاجهم العالى ولا يوجهون اتهاما الى الجو أو التقاوى أو المبيد أو غير ذلك لايتهمون أحدا لأنهم يعملون ولايتكلمون ، ولو بلغ كل مزارع فى التجميعه مستواهم فان الانتاج يتضاعف

العلاج

اذا كنا فى زمن المعجزات العلمية والتنفيذيه وقد ارتادت بلاد الفضاء ووصلت الى القمر وأمكن لدولة كالصين ان تتخلص من إدمان الأفيون وهى عمليه شبه مستحيله وان تقضى على الذباب والعصافير فإن إصلاح الإنتاج داخل تجميعة زراعية مساحتها حوالى ثلاثين فدانا لايحتاج الى معجزه أو قدرات خارقه ويمكن تحقيق ذلك بالعمليات التاليه مجتمعه :

الأول ـ تحسين سعر المحاصيل باعاده النظر فى التسويق التعاونى فقد كان لضروره حربيه وقد حل السلام وآن الأوان لأن نعود إلى اقتصاد السلام والاستقرار

الثانى ـ محاسبة الموظف الفنى بالقريه على اساس انتاج التجميعه بحيث يكون المقياس هو عدم وجود تفاوت اكثر من ١٠٪ عن المتوسط وان يرتبط أجر هذا الموظف ومكافآته وترقيته بزياده الإنتاج على هذا الاساس

الثالث ـ معاملة جادة للفلاح المهمل فكل من ينقص انتاجه عن متوسط التجميعه بأكثر من ١٠٪ ثلاث سنوات متوالية تؤخذ منه الارض وتؤجر لغيره

جودة الإنتاج

إقتصاديات أى محصول ترتبط بجودته وحسن صفاته وملاءمته للاستهلاك المحلى أو التصنيع أو التصدير

والفلاح لايعطى أهمية كبيرة لجودة المحصول وخاصه عند جنيه أو حصاده وإعداده للتسويق علما بأن البضاعة الجيدة الممتازة تجد إقبالا من طالبها وتفوز بسعر أعلى .

ويتأثر سعر كل الحاصلات بنظافتها وخلوها من الآفات والعيوب وبتجانسها وخلوها من الشوائب وبتعبئتها وبالصوره التى تعرض بها على المستهلك

ويستوى فى هذا كل الإنتاج الزراعى على اختلاف أنواعه سواء كان من محاصيل الألياف كالقطن والكتان والتيل أو من محاصيل التصنيع المحلى مثل قصب السكر أو من الحبوب أو الفاكهه أو الخضر أو النباتات الطبيه أو نباتات الزينه وينطبق ذلك أيضا على كل صور الإنتاج الحيوانى .

وأقوى الأمثلة على أهمية جودة الإنتاج وأثرها المباشر على السعر هو محصول القطن فقد حدث بعد تطبيق نظام التسويق التعاونى ان تدهورت رتب القطن وانخفض العائد منه حتى قدر المختصون فى المحالج وشركات تجارة القطن ان الخسارة السنوية لاتقل عن خمسين مليونا من الجنيهات بسبب انخفاض الرتبة ومعنى هذا ان خساره الفدان الواحد حوالى أربعين جنيها

وقد حدث هذا لعدة أسباب منها أن الفلاح لم يكن مقتنعا بالسعر عند مقارنته بالمحاصيل الأخرى التى يمكن ان يزرعها بديلا عن القطن ولهذا لم يهتم بالقطن وزراعته فيتأخر فى الزراعة عن المواعيد المناسبه ولايعتنى بالخدمه والعزيق للتخلص من الحشائش ويهمل مقاومة بعض الآفات ويترك مسئولية مقاومة الآفات الأخرى للأجهزة الحكوميه ولايتبع نظام الجنى المحسن

الذى يتطلب النظافة والتنقية من الشوائب والفصوص الميته أو المصابة بالفطر الأسود . ويكتفى بجمع القطن مره واحده بدلا من الجمع على مرحلتين . كما يحدث الغش أحيانا وهو مايرتكبه الجهلاء .

كما ان الفلاح كان يضايقه ويشكو كثيرا من سوء نظام الاستلام والتسويق وطريقة الفرز وهى غير عادلة وليست فنية وغير دقيقة فاختلطت الرتب العالية بالمنخفضة وأضيف الى هذه الأسباب هبوط مستوى المحالج فنيا وإداريا

أما القصب فإنه منذ اخذ محصوله فى التدهور منذ عشرين عاما اضطرت شركة السكر ان تجعل اساس السعر هو نسبة السكر . وليس كمية المحصول حتى يجتهد مزارع فى خدمة المحصول للوصول الى نسبه مرتفعة من السكر

وتشكو الشركة التى تصدر الموالح من ارتفاع نسبة الفرزه التى لا تصلح للتصدير وتقدر سنويا بنحو ٢٥ ـ ٣٠ ٪ بسبب عدم عناية المزارع بقطف الثمار والحفاظ عليها من

التلف والتشقق وعدم فرزها مبدئيا أو العناية بتعبئتها ونقلها وهى عوامل تسبب انخفاض الثمن

وكذلك الحال بالنسبة لحاصلات التصدير الأخرى مثل البطاطس والأرز والورد والزهور والخضر والنباتات الطبية

ان مسئولية جودة الانتاج تقع على المزارع وحده دون ان تكلفه كثيرا وفى يده ان يزيد دخله ويرفع ايراده لو أعطى العناية والاهتمام لنظافة حاصلاته ورعايتها الى ان يتم تسويقها .

العلاقة بين المالك والمستأجر

فى اعقاب عام ١٩٥٢ صدرت قوانين كثيرة تتصل بالأراضى الزراعية سواء ملكيتها أو حيازتها أو تخص العلاقة بين مالك الأرض ومستأجرها . وكانت هذه القوانين تستهدف غايات سياسية واجتماعية ومن أبرز وأقوى تلك القوانين وضع حد أعلى للملكية الزراعية الذى بدأ بتحديد ثلاثمائة فدان حدا أقصى لتملك الأراضى الزراعية ثم عدلت الى ان وصل الحد الأقصى لملكية الفرد خمسين فدانا والأسره مائة فدان

ووزعت الأراضى التى استولت عليها الحكومة على المعدمين من الزراع بمساحات صغيرة تختلف من فدانين الى خمسه وبلغت جملة ما تم الاستيلاء عليه ووزع على صغار الفلاحين ثمانمائة ألف فدان

أما القانون الذى كان اكبر أهمية فهو الذى نظم العلاقة بين المالك والمستأجر اذ خضعت جميع الاراضى الزراعية لهذا القانون دون استثناء وبمعنى آخر أصبحت الستة ملايين فدان وهى كل الأراضى الزراعية تحت ظل وسيطرة قانون العلاقة بين المالك والمستأجر

وقانون الاصلاح الزراعى الذى شمل هذه القوانين واللوائح تناولته تعديلات كثيرة تربو على المائة قانون يجد الباحث مشقة وصعوبة لفهم احكامها المتعاقبة وقد أصبح من الضرورى صدور قانون موحد مبسط يجمع الأحكام المتناثرة حتى يصبح من العوامل المساعدة على النهوض بالانتاج الزراعى ولا تكون معوقة له

وقد كشف التطبيق العملى لقانون العلاقة بين المالك والمستأجر عن وجود قصور فى بعض النواحى وعدم تحقيق العدالة فى جوانب منها حتى أصبح مثارا للشكوى وأصبح من الضرورى إعادة النظر فى هذه العلاقة من جديد

وأهم النقاط الاساسية التى تثير الخلافات هى تحديد القيمة الايجارية ومده العقد ومدى سريان عقد الايجار بعد وفاة المستأجر

وقد بنى تحديد القيمة الإيجارية للأراضى الزراعية على اساس سبعه أمثال الضريبة العقارية . والمقصود بالضريبة العقارية انها الضريبة الأصلية فلا يدخل فيها الضرائب الإضافية التى تحصل للدفاع والأمن القومى وغير ذلك والضريبة تكاد تكون ثابته اذ لاينظر فى تعديلها الا كل عشر سنوات وهى فترة طويلة والتغيير الذى يحدث فيها بعد عشر سنوات قد يكون طفيفا لا يذكر وقد تبقى على ما هى عليه ونتيجة لذلك يظل الايجار ثابتا وقد ظلت القيمة الإيجارية ثابتة اكثر من ثلث قرن كانت فيها المتغيرات كثيرة وخاصة متغيرات اسعار الحاصلات الزراعية فارتفعت اسعار القطن والأرز والحبوب والخضر والبرسيم والنباتات الطبية اكثر من ستة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٥٢ وارتفع دخل وايراد المستأجر وظل إيراد صاحب الارض على ما هو عليه طيلة هذه المدة وكثير من ملاك الاراضى ليس لهم دخل إلامن أرضهم .

واذا كانت الاراضى الزراعية لها وظيفتها الاقتصادية إلاّ أنها ايضا لها وظيفتها الاجتماعية التى لا تقل خطورة عن الوظيفة الاقتصادية ذلك ان ملاك هذه الاراضى - وفى ظل الملكية - يرتبون أحوال معيشتهم على الدخل من هذه الأطيان وقد يكون من بينهم من ليس له دخل آخر سوى ما يحصل عليه من قيمتها الإيجارية ، أو تمثل هذه القيم الايجارية دعما لموارده فى ظل ارتفاع مستمر فى تكاليف المعيشة .

ومع انخفاض قيمة الإيجار فإن كثيرا من المستأجرين يتقاعس عن سداد هذه القيم الإيجارية فى مواعيدها مما يسبب آثارا ضارة بالنسبة لملاك هذه الاراضى .

وقد حرص المشرع عند صدور أول قانون للإصلاح الزراعى على وضع ضمانات أساسية لاستقرار الزراع فى الارض تنص على ألاّ تقل مدة عقد الإيجار عن ثلاث سنوات وذلك تمشيا مع الدورة الثلاثية الا انه رغبة فى تأكيد حماية المستأجر فقد قرر المشرع مد عقود الايجار الى ان اصبحت هذه العلاقة ابدية .

والعلاقة على هذا الوضع تفوت فرصة استغلالها من ملاكها او ادخال تحسينات على هذه الاراضى الا انه يلاحظ ان المشكلة الحقيقية لا تتمثل فى تحديد مدة زمنيه لعقد الايجار وانما تكمن فى مدى قيام المستأجرين والتزامهم بالوفاء بواجباتهم والتزاماتهم كاملة سواء من ناحية استثمار الارض بأقصى حد من الكفاية وصيانة خصوبتها ومرافقها ام من ناحية اداء الحقوق لأصحابها .

ونتيجة لارتفاع اسعار الحاصلات وثبات قيمة الايجار وانخفاضه بالنسبة للدخل فإن كثيرا من المستأجرين لا يجتهدون فى الانتاج مما يؤثر تأثيرا مباشرا على الدخل القومى وأصبح الايجار النقدى عملا من عوامل إنخفاض مستوى الانتاج ومن النصوص التى جاءت فى قوانين الاصلاح وأصبحت موضوعا للشكوى أن عقود ايجار الارض نقدا أو مزارعة لا تنتهى بموت المؤجر ولا بموت المستأجر اذ تنتقل الإيجاره الى ورثته :

ولما كانت عقود الإيجار من العقود التى يراعى فيها العامل الشخصى لدرجة كبيرة حيث انه من المفروض ان المالك لا يؤجر أرضه إلا لمن يثق فى حسن تعامله ووفائه بالتزاماته ، وانه اذا صح القول بأن عقد الإيجار لا ينتهى بوفاة المؤجر حفاظا على حق المستأجر الذى اختاره المالك الأصلى ، فإن القول بعدم انتهاء العقد بوفاة المستأجر المختار من جانب المالك يحتاج الى وقفة طويلة فقد لا يكون من بين ورثته من هو على مستوى المسئولية ، كما أن إتاحة هذا للورثة واحدا بعد الآخر يفقد الملكية عناصرها الأساسية واجبه الاحترام .

ويمكن تحسين العلاقة بين المالك والمستأجر بأحد الوسائل التالية ، وهى ليست مستحدثة ولكنها كانت من العلاقات السائدة سابقا وكانت موضع رضاء الطرفين .

اولا ـ نظام المزارعة :

وفيه يتحمل المستأجر وحده جميع مصروفات خدمه وجمع وتجهيز المحصول وتحميل المؤجر كافة الضرائب الأصلية والإضافية والرسوم المفروضة على الأطيان بما فيها ضريبتا الدفاع والامن القومى ثم يتقاسمان الناتج .

ثانيا ـ الإيجار العينى :

وفيه يتم الاتفاق على تقدير ايجار عينى للفدان حسب المحصول المنزرع كأن تكون قيمة الايجار ثمن قنطارين من القطن أو ضريبة ارز أو أربعه أرادب من القمح أو الذرة وهكذا وبديهى أن الإيجار العينى يختلف من منطقة إلى أخرى .

وقد يكون فى هذه النظم المقترحه تخلصا من الإيجار النقدى المعرض لتأثير تغير اسعار الحاصلات من سنة الى أخرى ثم يكون حافزا للمستأجر على الاجتهاد .

التسويق التعاونى للحاصلات الزراعية

مقدمة :

عندما قررت الدولة تطبيق التسويق التعاونى للحاصلات الزراعية كانت تريد ان تحقق أهدافا متعددة لصالح المنتج والمستهلك ولتوفير خامات بعض الصناعات وبعض السلع التصديرية ، وأن يتجه التعاون الزراعى الى ممارسة انشطة جديدة فى مجال الإنتاج والتسويق مع تحقيق بعض أسس العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى الريف بحماية الزراع وخاصة صغارهم من التجار والسماسرة .

الا أنه بعد تطبيق النظام ظهرت سلبيات وتراكمت أخطاء باعدت كثيرا بين النظرية والتطبيق ، نظرية التسويق التعاونى كأسلوب اشتراكى يحمل العبء عن الفلاح ، ثم حقيقة التطبيق وواقعه المعقد . وبذلك أصبح التسويق التعاونى إسما على غير مسمى فما هو الا توريد اجبارى للمحاصيل بالطرق الادارية .

بل أكثر من هذا إنه كان سببا مباشرا فى فقدان الثقة بين جمهور الزراع والأجهزة المنفذة لعمليات التسويق ، وهى مسألة لها انعكاساتها السياسية الضارة مما يحتم سرعة إيجاد الحلول العملية للمشاكل والسلبيات التى أحاطت بهذا النظام .

ومن الواجب الآن العمل على إزالة المعوقات والسلبيات كلها أو بعضها أملا فى إصلاح الحال .

والتغلب على أخطاء التسويق التعاونى لن يتم بين يوم وليلة بل سيحتاج الى مرحلة زمنية لأنه يتوقف اولا وقبل كل شىء على سلوك البشر المكلفين بالتنفيذ فهى المشكلة الكبرى والمهمة الصعبة ومما يزيد مهمة التطوير والإصلاح تعقيدا تلك الصورة التى استقرت فى أذهان الزراع عن هذا التسويق واعتقادهم الآن انه عمل مناهض لهم وليس فى خدمتهم بدليل ان كل تنظيم لوسائل التسويق يظهر مقابلها تحركات مضاده من المزارعين مثل مخالفات الدورة والإصرار عليها والتهرب من التوريد واخفاء المحصول او بيعه لتجار السوق السوداء رغم القرارات الوزارية والأوامر العسكرية .

ولو كان التسويق تعاونيا كمفهومه النظرى لتهافت المنتجون عليه وارتضوا به وحمدوا القائمين عليه .

المحاصيل المسوقة :

اولا ـ القطن :

والدولة هى المشترى الوحيد وليست هناك فرصة امام المنتج للبيع لغيرها ولذا ليست له سوق سوداء .

ثانيا : القصب ـ

والمفروض ان يورد كله لشركة السكر فى المحافظات التى بها مصانع وهى اسوان وقنا والمنيا وهو ما يحدث تقريبا اذ تورد غالبية المحصول للمصانع والقليل يباع للعصارات والمص اما القصب الذى يزرع فى باقى المحافظات فيباع للاستهلاك دون تدخل من الدولة .

ثالثا : القمح ـ الارز ـ الفول السودانى ـ الفول ـ السمسم :

تشترى الدولة جزءا من الانتاج يحدد سنويا وتترك للمزارع حصة يتصرف فيها والمفروض انها لاستهلاكه الشخصى ولكن الواقع انه يحتفظ بجزء لاستعماله والباقى يباع لتجار السوق السوداء . والاتجار فى كل هذه المحاصيل ممنوع بقرارات وزاريه .

رابعا : البصل والثوم ـ

تشترى الدولة اكبر كمية من الانتاج للتصدير والتصنيع والباقى القليل يستوعبه الاستهلاك المحلى .

خامسا : البطاطس ـ

يتم تسويقها عن طريق الاتفاق السنوى بين المنتج وجمعية البطاطس والمفروض ان يقدم المنتج كل المحصول وهو ما يحدث تقريبا .

سادسا : الكتان ـ

يتم التسويق عن طريق الاتفاق بين المنتج وجمعية الكتان التى ترتبط مع شركة الكتان ويقدم المنتج كل محصوله ـ وتستولى شركة الكتان على اكبر كمية من الانتاج وتباع كميات قليلة لمصانع الدوباره والحبال من القطاع الخاص .

سابعا : التيل ـ

يتم تسويقه عن طريق الاتفاق الفردى بين المنتجين ومصنعى شركة الجوت المصرية فى شبرا الخيمة وبلبيس .

وحتى الان لا توجد جمعية تعاونية لمنتجى التيل .

ويتم التوريد والمحاسبة بين الزراع والمصانع دون حدوث مشاكل وقد ظهر فى بعض السنوات مشاكل بسيطه امكن التغلب عليها بواسطة الاجهزة المحلية سياسية وتنفيذية .

ثامنا : البلح ـ

وتوجد جمعية تعاونية لتسويقه فى محافظة اسوان ونشاطها قاصر على البلح الجاف من انتاج محافظة اسوان فقط وتضع تسعيره سنوية لاصناف البلح وتنظم الاتجار فيه ونقله الى اسواق الجمهورية .

تاسعا : الفاكهة والخضر ـ

تكتفى الدولة بوضع تسعيره لبعض اصنافها ـ وتسعيرة الفاكهة تسرى طول الموسم اما تسعيرة الخضر فهى اسبوعية .

سلبيات ومعوقات التسويق

تتعدد المعوقات والسلبيات لنظام التسويق ويمكن تلخيصها فيما يلى :

اولا : الاسعار :ـ

جميع الاسعار المحدده ـ دون استثناء ـ غير مرضية للزراع فهم لايحصلون على عائد مجز مقابل جهدهم وتعبهم . ويلاحظ على اسعار المحاصيل المسوقة ما يلى :

أ- السعر لا يتناسب مع تكلفة الانتاج .

ب - انخفاض السعر الرسمى عن السعر الحر .

جـ- وجود فارق كبير بين الاسعار العالمية واسعار التسويق .

د - اسعار المحاصيل المسوقة لا تتناسب مع اسعار المحاصيل الاخرى فى الدورة الزراعية التى لا تسوق - المحاصيل المنافسة .

هـ - اختلاف العائد من مختلف المحاصيل وفى مختلف مناطق الجمهورية والواجب ان يكون هناك تقارب فى الدخول بين الدورات الزراعية المختلفة على مستوى الجمهورية .

و - اسعار المحاصيل الحالية تجعل العائد من الدورة الزراعية لا يكفل مستوى معيشيا مناسبا للفلاح .

وموضوع الاسعار هو المدخل الرئيسى لحل مشاكل التسويق او تخفيف حدتها ولذا يجب ان يعاد النظر فيه بدراسة شاملة لتكلفة الانتاج والاسعار العالمية وعدالة العائد بين الدورات الزراعية المختلفة ومستوى معيشة الفلاح وتكاليف الانتاج من اجور ومستلزمات انتاج ونقل تختلف من محصول الى اخر ومن منطقة الى اخرى ولكنها بصفة عامة فى زيادة مستمرة يقابلها ثبات فى الاسعار زيادات بسيطة لاتتناسب مع زيادة التكلفة المطردة .

والفروق بين الاسعار العالمية والمحلية فروق واسعة ويخف الاثر الحاد لهذه الفروق بالنسبة للقمح نظرا لان الكمية التى يطالب المزارع بتوريدها لا تتجاوز ربع الناتج والباقى يتصرف فيه لاستهلاكه الشخصى او بالبيع فى السوق الحرة التى يقرب سعرها من السعر العالمى .

ولكن الوضع يختلف بالنسبة للمحاصيل التى تستولى الحكومة عليها كلها مثل القطن او على معظمها مثل القصب والارز والسمسم .

والفرق ايضا كبير بين العائد من الدورة الزراعية الملتزمة بزراعة المحاصيل المسوقة والدورة التى لا تسوق محاصيلها واصبحت المحاصيل المنافسة مثل البرسيم والخضر والنباتات الطبية والعطرية تعطى عائدا كبيرا يبلغ اضعاف المحاصيل المسعره ولهذا اتجه كثير من الزراع الى مخالفة الدورة مهما كانت عقوبة المخالفة وخلال السنة الزراعية ٧٣ / ١٩٧٤ بلغت جملة محاضر مخالفات الدورة ١٣١١٤٠ بيانها كالتالى : -

القطن ٧١٨٤٩
القمح ٣٨٤٧٥
الارز ١٤٠٥٥
القصب ٦٢٦٢
الفول ٣٤٥
البطاطس ١٥٤
الجملة ١٣١١٤٠

ولم تحقق الاسعار المحددة للمحاصيل العدالة الاجتماعية للزراع لان مستوى المعيشة فى الريف لم يتغير علاوة على انخفاض مستوى الخدمات العامة التى تقدم لهم .

ثانيا ـ تعقيد الاجراءات : ـ

تمر عمليات التسويق كلها فى اجراءات معقدة وبعضها غير واضح ولا يجد الفلاح من يفسرها او يشرحها له .

وعلى سبيل المثال فان تسويق القطن له ثمان استمارات وبكل استماره مجموعة من البيانات وتسويق الارز له تسع استمارات .

ثالثا : تعدد الأجهزة :ـ

ما اكثر الاجهزة المشتركة فى عمليات التسويق وكل منها يتدخل من زاوية خاصة ومن المفارقات انه عند اعداد التقرير السنوى كانت البيانات المستقاه من كل جهة تختلف عن الاخرى وهذه الاجهزة هى :

١ ـ وزارة الزراعة
٢ ـ مؤسسة الائتمان الزراعى والتعاونى
٣ ـ الهيئة العامة للتعاون الزراعى
٤ ـ الاتحاد التعاونى الزراعى
٥ ـ اجهزة الحكم المحلى
٦ ـ وزارة الخزانة وممثلوها من الصيارف
٧ ـ الشركات المشترية
٨ ـ الجمعيات التعاونية العامة او المتخصصة
٩ ـ اجهزة الفرز والتحكيم
١٠ ـ وزارة النقل ومؤسساتها وجمعياتها
١١ ـ الشرطة والمباحث
١٢ ـ الرقابة الادارية

وقد كان لهذا التعدد اثاره على التسويق والبعد عن النظرة الشاملة لظروف الاقتصاد القومى وسيادة النظرة الخاصة لكل جهة تجاه التسويق وتعارض الاهداف الجزئية دون النظر الى الاهداف الكبرى التى تنشدها الدولة من وراء نجاح التسويق .

كذلك ادى هذا الى التغالى فى فرض العمولات على المنتجين .

رابعا ـ استعداد الجمعيات التعاونية :

الاجهزة التنفيذية فى الجمعيات ليست على المستوى المطلوب .

اكثر الجمعيات لا يتوفر لها المخازن او مقار لاستقبال المحاصيل التى سيتم تسويقها .

عدم التمسك بان تكون البطاقة الزراعية هى اساس التعامل رغم صدور العديد من القرارات والتوصيات .

عدم القدرة على تنظيم انسياب المحصول الى مراكز التجميع فتتكرر خلال الموسم حالات التكدس والاختناقات .

خامسا : بنك القرية ـ

بنك القرية هو الدائن المباشر للمزارع ونظرا لان بعض المزارعين يتهرب من السداد او يماطل ولحرص البنك للحصول على امواله فانه تحدث بعض اجراءات قد يضار منها البعض .

سادسا : الصيارف ـ

ربما كان سلوك الصيارف من اهم معوقات التسويق للأسباب التالية :ـ

- عدم تواجدهم بالجمعيات رغم الاوامر والتنبيهات الصادرة لهم .
- خصم مستحقات فرد من حساب اخر من نفس الاسره واحيانا خصم مديونية الاسره كلها من فرد واحد .
- عدم توضيح المديونيات للفلاحين وعدم الاستعداد للاستيضاح او المناقشة .
- عدم اثبات الاموال الاميرية بالبطاقة الزراعية .
- لا يلتزم الصيارف بالقرار الوزارى المنظم لتسويق المحاصيل والذى يقضى بضرورة توقيع المزارع على صحة الحساب .
- لا يلتزم الصيارف بارسال كشوف حساب المنتجين الى بنك القرية فى المواعيد المحدده .

سابعا : الشركات المشترية ـ

ـ ما يقال عن تنافس الشركات فى الشراء امر غير واقعى .
ـ لا توجد ثقة ـ حاليا بين الزراع والشركات وخاصة فى عمليات الفرز لتقدير الرتب .
والتحكيم وتقدير الثمن والوزن .
ـ اعتماد الشركات المشترية للحاصلات المسوقة على غيرها من الوزارات والجهات الادارية واجهزة الادارة المحلية فى تنفيذ عمليات كثيرة هى من مسئولية الشركات وحدها ومن اولى واجباتها .
ـ تتأخر الشركات فى ارسال استمارة (٥ تسويق) الى البنك ولا يمكن الصرف بدونها فهى بمثابة ايصال من الشركة المشترية ومحضر للفرز واسلوب عمل الشركات كلها !و اكثرها غير جاد .

ثامنا ـ النقل :

المحاصيل التى تسوق تعاونيا ـ ماعدا القصب ـ كل منها ينضج فى وقت محدد ويسوق فى فترة زمنية وجيزة وهناك محاصيل متعاقبة تنضج وراء بعضها مثل القطن والارز وبعض المحاصيل يتعرض للتلف اذا طال تخزينه فى مراكز التجميع وبعضها يتلف اذا تعرض للمطر .

فاذا اضفنا الى هذا حجم الكميات المسوقة التى تبلغ ملايين الاطنان نجد انه .

من المتوقع حدوث اختناقات فى النقل وتأخير ووقوع اضرار فى بعض الاحيان .

ولا علاج لذلك الا برفع كفاءة النقل بالسكة الحديد ووسائل النقل الاخرى مع تنظيم عمليات انسياب المحاصيل الى المجمعات ثم خروجها منها .

تاسعا : معوقات من الزراع :

بعض الزراع يتهرب من توريد محصوله اما لكى يبيعه لتجار السوق السوداء للحصول على سعر اعلى من سعر التسويق او يورده باسم شخص اخر ـ كما هو الحال فى محصول القطن ـ حتى لايدفع ما عليه من ديون .

ولا يهتم بعض الزراع بنظافة المحصول لرفع مستوى الرتبه .

وقد فقد المزارع الثقة بكل الموظفين الذين يعملون فى التسويق وخاصة موظفى البنوك والجمعيات التعاونية والشركات المشترية واجهزة الفرز والتحكم والصيارف وقد يكون محقا بعض الشىء ولذلك ينسى الايجابيات .

عاشرا : المكافآت و (الحوافز) :

تصرف مكافات للشرطة ورجال الزراعة اذا قاموا بضبط محاصيل تسويق مهربة او مخبأة وتغرى هذه المكافآت البعض على اتخاذ اساليب غير انسانية وخاصة مع صغار الزراع والبسطاء بتفتيش المنازل بعنف او الاستيلاء على المحاصيل اثناء نقلها ومصادرتها .

ان هؤلاء الموظفين يحصلون اخر الموسم على مكافآت نقدية وتترك تصرفاتهم اثارا سيئة على سمعة التسويق وتزيد فى كراهية المزارعين له .

احد عشر : معوقات حكومية :

تنفيذ القوانين واللوائح والقرارات والاوامر العسكرية يتأرجح بين الشدة واللين والتسامح ولا يسير على منهج واحد ولهذا كثرت مخالفات الزراع للدورة الزراعية ولتسويق الحاصلات .

واهم من مخالفات الزراع وجود فئة من تجار السوق السوداء يتجرون فى الحبوب وخاصة الارز والفول والسمسم وهى فئة تستغل الفقراء ولا تدفع ضرائب وتسبب متاعب تموينية .

تعدد العمولات وكثرتها والأفضل إلغاء كل انواع العمولات دون استثناء .

إثنا عشر : زمام القرية :

زمامات القرى المصرية كلها مقسمة اداريا منذ فترة بعيدة وقد تغيرت ظروف القرية فاصبحت وحدة انتاجية ولذا يجب ان يعاد التقسيم على اسس جغرافية والتقسيم الحالى فى كثير من القرى يسبب متاعب لبعد بعض العزب والنجوع والاحواض عن مقر الجمعية او مراكز التجميع لوجود موانع مائية مثل الترع والمصارف او غيرها واعادة التقسيم على قواعد جغرافية واقتصادية سيكون عاملا لتنسيق الانتاج وسهولة تصريفه وتسويقه .

اولا ـ زيادة العائد :

أ ـ زيادة السعر بحيث يتناسب مع تكلفة الانتاج والسعر الحر والسعر العالمى وسعر المحاصيل المنافسة فى الدورة الزراعية ويحقق العدالة بان تتقارب الدخول بين الدورات الزراعية المختلفة على مستوى الجمهورية .

كما يكفل العائد مستوى معيشيا مناسبا للفلاح .

ب ـ الزيادة الراسية للمحاصيل ـ باتباع الوسائل المعروفة زراعيا وفى مقدمتها تحسين الصرف ونشر السلالات الممتازة وغير ذلك .

ثانيا ـ تبسيط الاجراءات :

أ ـ اختزال عدد استمارات التسويق وحذف بعض بياناتها .
ب ـ ان يكون اساس التعامل مع الفلاح هو البطاقة الزراعية فقط .
جـ ـ استعمال الآلات الحاسبة البسيطة لسرعة اعداد كشوف الحسابات .
د ـ تحديد الاشراف على التسويق وتحمل مسئوليته بجهة واحدة وهى الاتحاد التعاونى الزراعى العام بدلا من الاجهزة العديدة التى تتولى الاشراف حاليا .
هـ ـ دراسة امكانية الغاء نظام الصيارف وتحصيل ما يعادل قيمة الضرائب العقارية عن طريق اضافتها الى بعض مستلزمات الانتاج .
و ـ سرعة صرف ثمن المحصول بعد تسليمه .

ثالثا ـ دعم التعاونيات :

ان التسويق التعاونى للمحاصيل الزراعية بوضعه الحالى لا يعدو كونه نظاما لتوريد ادارى للمحاصيل ولما كان الاصل ان يكون التعاون نابعا من المزارعين انفسهم فيقترح ان تقوم الجمعيات التعاونية بمسئوليتها فى الانتاج بان تساهم فعلا فى تحديد الدورة المناسبة لكل الاحواض فى زمام القرية داخل الاطار الذى تحدده الدولة وتوفير الخدمات وخاصة الالية ومستلزمات الانتاج وفى مقدمتها التقاوى الممتازة .

كما تتولى متابعة عمليات الانتاج فى كل خطواتها واخيرا تقوم بالتسويق .

ضرورة تعديل زمام القرية لانها اصبحت وحدة اقتصادية فتعدل الحدود على اساس جغرافى لكى تيسر الخدمات .

رابعا ـ اجهزة الفرز والتحكيم :

تعديل تبعيتها الى جهة محايده مثل وزارة الزراعة حتى يطمئن الزراع .

خامسا ـ القضاء على بعض المعوقات الاخرى :

أ ـ القضاء على تجار السوق السوداء وخاصة فى الحبوب : الارز ـ [illegible] ـ والفول السودانى ـ السمسم .
ب ـ الغاء كافة العمولات
جـ ـ النظر فى الغاء المكافآت التى تعطى للموظفين الذين يقومون بضبط المحاصيل المهربة .
د ـ انتهاج سياسة موحدة ازاء تنفيذ القوانين والنظم الزراعية وخاصة المتعلق منها بزراعة محاصيل معينة او توريد بعض هذه المحاصيل .

سادسا :

قد يكون من مصلحة المزارعين توفير المنافسة فى تجارة الداخل فى المجاصيل الزراعية .

سابعا :

ضرورة اجراء دراسة اقتصادية متكاملة لتسويق المحاصيل الزراعية على ضوء الاسعار العالمية لهذه المحاصيل وذلك لتحقيق اكبر عائد اقتصادى من كل محصول .

تسعير الحاصلات الزراعية

تقوم الدولة بتسعير الحاصلات الزراعية لاعتبارات اقتصادية واجتماعية وتلزم الفلاح بتوريد بعض الحاصلات وهى القطن والقصب وحصص من الحبوب . . الارز والقمح والفول والعدس والفول السودانى والسمسم .

اما باقى الحاصلات فتوضع لها اسعار تعلن على الجمهور ويحدد سعر للمنتج واخر لتاجر الجملة وثالث لتاجر التجزئة الذى سيبيع للمستهلك .

واهداف الدولة واضحة يراد بها حماية المنتج والمستهلك معا وتوفير الغذاء لكل المستهلكين .

وبعض الحاصلات المسعرة التى يتحتم توريدها بالكامل للاجهزة الحكومية ومصانع القطاع العام وهى القطن والقصب كان سعرها غير مجز من وجهة نظر المزارع فان العائد منها كان اقل من عائد المحاصيل البديلة فى الدورة الزراعية مثل الخضر والبرسيم والذرة وغيرها .

ونتيجة لذلك كان الفلاح يتهرب من زراعة القطن والقصب ويتحمل المخالفة والغرامة المالية فاذا زرعها فانه لا يحسن زراعتها ولا الاهتمام بها طالما انها لا تحقق له الربح الواف .

ولم يدخل الفلاح فى اعتباره ان الدولة تقدم له خدمات كثيرة مجانية كالتعليم والعلاج الطبى وتدعم مواد الغذاء والكساء الشعبى بمبالغ اخذت تتزايد عاما بعد اخر حتى تجاوز الدعم مليار جنيه فى ميزانية ١٩٨٠ ولا يلام الفلاح لأنه يزن الأمور من ناحيته الشخصية وما يعود عليه دون ان يقدر الخدمات التى تقدم له ومقدار الدعم الذى احتفظ بثمن رغيف العيش خمسة مليمات وثمن القمح والدقيق دون الاسعار العالمية والمحلية وكذلك اثمان الزيت والسكر والشاى والملابس الشعبية .

لم يضع الفلاح كل ذلك فى تقديره فانصرف عن زراعة القطن والمحاصيل المسعرة التى تسوق تعاونيا او حاول التهرب من زرعها فان زرعها اهمل خدمتها وتأثر الانتاج كثيرا وانخفض محصول القطن والقصب وهبط مستوى الجودة فى الانتاج .

وعالجت الدولة ذلك فى العامين الماضيين فرفعت سعر القطن والقصب والارز والفول السودانى والسمسم والفول البلدى والعدس والموالح فتحسن موقف الفلاح وزاد معدل الانتاج زيادة ملحوظة .

وبقى على الفلاح ان يدرك انه يستطيع ان يرفع دخله كثيرا اذا ضاعف جهده واعتنى بزراعته فى كل المراحل وكذلك عند الجنى والحصاد والاعداد للتسويق .

وبقى على الدولة ايضا ان تضع فى الاعتبار عند وضع تسعيره الحاصلات العوامل النفسية للفلاح وان السعر المجزى هو اكبر حافز على زيادة الانتاج .

التعاون

منذ بدا تطبيق نظام التعاون فى مصر والحركة التعاونية غير مستقره تنظيما وتشريعا اذ ما يكاد يقرر قانون للتعاون الا وترتفع الاصوات مطالبة بالتعديل والتغيير حتى انه صدر منذ تطبيق التعاون سته قوانين .

والملاحظ على هذه القوانين السابقة واللاحقة انها تصور الامانى الحلوة المشرقة للتعاون ومفهومه ورسالته ولكن واحدا من هذه القوانين لم يرسم ابدا الطريق السليم لخطة تنفيذية تجنب مسار التعاون العثرات وتنير الطريق للذين يراودهم الامل فى وجود تعاون حقيقى بمفهومه الاجتماعى والدولى بل بمفهومه الدينى ايضاً .

قوانين متلاحقة تطارد بعضها كونت العقد وعملت على تراكمها ووضعت لوائح مطولة تحتمل التفاسير المتضاربة ونظم معقده واشراف ينازع بعضه بعضا .

وكل قانون من القوانين السابقة كان ياتى فى مذكرته التفسيرية انه يهدف الى تجنب اخطاء القوانين السابقة بل من الغريب حقا ان بعض جمل كلامية قد نقلت بنصها من مذكره تفسيرية الى الاخرى تبريرا للتبديل والتعديل .

ومن الحقائق البارزة ان محصله تعديل هذه القوانين كانت انشاء هيئات حكومية واتحادات وجمعيات عامة وكوادر وظيفية يستفيد منها افراد العاملين بها اكثر مما تستفيد الجمعية التعاونية الصغيرة فى القرية التى هى الخلية الاولى فى البنيان التعاونى وعلى سبيل المثال كانت الجهة المشرفة على تنفيذ اول قانون للتعاون قسما يسمى قسم التعاون ثم ارتقى على سلم التطور مع اصدار القوانين فاصبح اداره ثم مصلحة ثم وكالة وزارة ثم مؤسسة عامة ثم هيئة تعاونية . وارتفع عد العاملين من بضعة افراد الى عدة الاف لهم كوادرهم ومرتباتهم ومخصصاتهم انتظموا فى اقسام وادارات كثيرة العدد متنوعة الاختصاصات .

وكانت نتيجة هذه القوانين المتلاحقة والادارات الحكومية التى كبرت وتضخمت على حساب التعاون ان اصبح التعاون اسما على غير مسمى وتحولت الجمعية بالقرية من وجهة الاداء الى محل لبيع مستلزمات انتاج توفرها لها الدولة حتى موقعها ومن وجهة الرسالة التعاونية فقد كانت الجمعيات التعاونية كلها ـ دون استثناء على مستوى الجمهورية مصادر الشقاق والتنازع بين اهل القرية الواحده وكانت بؤرا للتسيب والتعفن والانحراف والاختلاسات وميدانا لتسلط بعض الافراد لم يحدث من اول القوانين الى الاخير منها اى سلوك تعاونى سواء بفهومه الدولى كما هو حادث فعلا فى دول اوروبا وامريكا وخاصة انجلترا وايرلندا وهولندا والدانيمارك والمانيا وسويسرا وفرنسا والولايات المتحدة وكندا وغيرها ولم يحدث ان رأينا سلوكا تعاونيا كالذى تطالبنا به الاديان السماوية فالاسلام حينما امر بالتعاون طلب ان يتجرد الفرد من انانيته ويعمل على اسعاد الاهل والعشيرة . . . وتعاونوا على البر والتقوى فقدم البر على التقوى والبر هو ان

يجود المرء بما عنده لاهله وجيرانه ولامته كلها وللوطن اما التقوى فهى العلاقة بين المخلوق والخالق .

اراد الله ان يكون التعاون خدمة المجموع باكرم الصور وأجملها . . . نكران للذات وعطاء للمال وتطوع للخدمة دون انتظار لأجر او مثوبة او جزاء وقدم فضله ومكانته على التقوى التى هى علاقة العبد بربه .

وجعلت الدول المتقدمة فى كل من النظامين الرأسمالى والاشتراكى من التعاون أداة مثالية للخدمات الاجتماعية والفنية والتعايش فى محبة ووفاء وصفاء والعمل على رفع مستوى معيشة التعاونيين وحل مشاكلهم واسعادهم .

اما نحن فقد جعلنا من التعاون قوانين تفرض سلطتها على الجمعيات والاعضاء وجعلنا منه منشآت وكودار حكومية .

لقد كان عدد الجمعيات التعاونية ٣٤٣ جمعية عام ١٩٥٢ واصبح عددها عام ١٩٨٥ ٥٣٨٤ جمعية (٤٨٣٠ جمعية زراعية تعاونية + ٥٥٤ جمعية نوعية) اى اكثر من ١٥ ضعفا فما هو اثر هذه الزيادة على الانتاج الزراعى . . لاشىء على الاطلاق لسبب بسيط لم تكن جمعيات تعاونية الا اسما فقط .

وكانت النتيجة طبيعية ومنطقية فقد انتهى بنا الحال بعد اكثر من نصف قرن ان ضاع التعاون وفقدناه اصلا وظلا ولم يبق الا الاسم على غير مسمى .

والقيادات التعاونية الحكومية كان يعنيها فى المقام الاول بناء كوادر وظيفية باسم التعاون ولكن على حسابه .

ولكى يكون لدينا بنيان تعاونى سليم فان المدخل لن ياتى ابدا من تعديل القوانين او الغائها واحلال الجديد محل القديم ولكن ذلك سيتحقق اذا وجد لدينا جمهور يفهم التعاون ويعرف اهدافه واضحة وان يكون هناك على مستوى القرية قيادات لها صفات القيادة الحقيقية ايمانا برسالة التعاون واخلاصا لخدمة اهل القرية وتمسك بالقيم والاخلاق ويستدعى ذلك محاولة ايجاد الانسان التعاونى سلوكا وفهما وعملا وان نبتعد عن القوانين وتعديلاتها وتكرارها ورفع الاشراف والهيمنة الحكومية عليه والا فاننا سنظل ندور فى هذه الحلقة المفرغة ولن يستقر للتعاون قرار .

السلوك التعاونى اولا واخيرا معناه وجود الانسان « البار » باهله ووطنه ونفسه فان الاصلاح يبدأ بالنفوس لا بالنصوص وهذا الانسان التعاونى البار لم تجده القوانين

السابقة ولن تجده القوانين الاتية ولكن وجوده لن يتاتى الا عن طريق ممارسة العمل التعاونى الحقيقى دون رقابة الموظفين والهيئات الحكومية وتدخلهم السافر المتكرر ومن خلال الممارسة سيحدث الخطأ والصواب ولكن على المدى الطويل ستجد القرية قيادات تعاونية تستطيع ان تاخذ بيد التعاون الى شاطىء الأمان .

ولم تكن القرية فى تاريخها الطويل عقيمة من خيار الناس والقيادات الصالحة ولكن الاخيار يتجنبون اليوم المشاركة فى اى عمل جماعى ولا يتصدى للاقبال على العمل الجماعى الا الذين لديهم شهوة التسلط او رغبة الاستغلال .

قوانين التعاون :

فى عام ١٩١٢ بدأت اول محاولة لوضع قانون للتعاون وفى عام ١٩١٤ صدر قانون اقرته الجمعية التشريعية واوقف العمل به لقيام الحرب العالمية الاولى .

وفى عام ١٩٢٣ صدر قانون تعاون يعتبر الاول من حيث التطبيق واعتبر بداية العمل التعاونى فى مصر .

وفى عام ١٩٢٧ صدر قانون يسمح بقيام جمعيات تعاونية استهلاكية .

وفى عام ١٩٤٤ صدر قانون اكثر تطورا ولكنه لم يشر الى قيام اتحاد تعاونى او اى تشكيلات على مستوى اعلى من جمعية القرية .

وفى عام ١٩٤٩ صدر قرار بتحويل بنك التسليف الزراعى الى بنك تعاونى .

وفى عام ١٩٥٦ صدر القانون ٣١٧ وهو اول قانون للتعاون بعد ١٩٥٢ ومن اهم خصائصه تكوين التشكيل الهرمى ابتداء من جمعية القرية الى الاتحاد المركزى .

وفى عام ١٩٦٠ صدر القانون رقم ٢٦٧ ويقضى بانشاء مؤسسات تعاونية تشرف على الانشطة التعاونية بدلا من وزارة الشئون وهى :

مؤسسة تعاون استهلاكى ـ مؤسسة تعاون زراعى ـ مؤسسة تعاون اسكانى ـ مؤسسة تعاون انتاجى .

وفى عام ١٩٦٤ صدر القانون ١٠٠

وقد اجاز انشاء جمعيات تعاونية فى الاراضى المستصلحة وجمعيات محلية تعلوها مباشرة الجمعية العامة .

وفى عام ١٩٦٩ صدر القانون ٥١

وقد فرض عضوية الاتحاد الاشتراكى لمن يريد ان يرشح نفسه لمجلس الادارة وفرض رقابة الاتحاد الاشتراكى وتدخله فى اعمال الجمعيات .

وفى ظل هذه القوانين المتلاحقة ظهرت معوقات واخطاء ادت الى نتائج حتمية وهى اختفاء التعاون شكلا وموضوعا .

ومن بين العوامل :

* تعدد جهات الاشراف وتضاربها وتنازعها وهى بنك التسليف ومديرية الزراعة ومديرية التعاون والادارة المحلية والاتحاد التعاونى ولجنة المراقبة والجمعية العمومية وفى فترة وجود الاتحاد الاشتراكى كان له سلطة ومراقبة ومحاسبة للجمعيات .

* استغلال الجهات المشرفة للجمعيات فى مجالات كثيرة مثل تعيين الموظفين وبيع الكتب ونظام التدريب الذى لم يثمر وغير ذلك .

* ظهور اربعة تشكيلات تعاونية فى القرية او بعض القرى وهى الجمعية التعاونية الزراعية وتمثل الغالبية الكبرى ثم جمعيات الاصلاح الزراعى وجمعيات تعمير الصحارى وجمعيات مؤسسة استزراع الاراضى وكل منها مستقل عن الاخر .

* القوانين كلها لم تفرق بين التعاون كعمل شعبى اجتماعى وبين الأداء الحكومى بأساليبه المعقدة .

المذكرة التفسيرية لكل قانون تشرح وتعدد أسباب تدهور الجمعيات ثم تشير الى أن القانون المقترح سيقضى على العيوب السابقة مثل التمويل والامكانيات وخبرة العاملين والتدريب وتعدد الاشراف وتعدد التشكيلات وعدم المراجعة الفعالة ونقص الاحصائيات والبيانات وبعد تطبيق القانون الجديد تزداد هذه العيوب حدة وتتضخم ويتفاقم خطرها .

- لم تتمكن هذه القوانين من ضبط حسابات الفلاحين .
- لم تنضم جمعية خيرية الى الجمعية التعاونية بالقرية .
- لم يضع أى فلاح مدخراته فى الجمعية .

- تصاعدت ازمة الثقة بين الفلاح والتعاونيات وزاد تسلط بعض الافراد سواء من اعضاء مجلس الادارة أو موظفى الاشراف .

ـ لم يظهر أى ثمرة للتدريب الذى صرف عليه الكثير وقيل عنه الاكثر والاكثر واقيمت من اجله المنشآت ومن غريب الملاحظات ان المنحرفين التعاونيين الذى ضبطوا فى احدى محافظات الوجه البحرى على مدى سنوات كانوا جميعا ممن اخذوا دورات تدريبية تعاونية .

ـ لم توجد فى جمعية تعاونية واحدة مكتبة ثقافية رغم عشرات الالوف من الجنيهات التى دفعت ثمنا للكتب .

ـ ظهور القصور والمعاناة فى استخدام الآلات الزراعية وصيانتها .

ـ فى ظل هذه القوانين وتسلسل تعاقبها وتعديلاتها تفشى التسيب والانحراف والاختلاس والسرقة بكل الوسائل الظاهرة والخفية .

ـ آلاف الجمعيات تعمل وكأنها صبت فى قالب واحد فلم نشاهد أو نسمع عن جمعية قامت بعمل تجربة أو مشروع أو تبنت فكرة تخالف الجمعيات الاخرى . أعمال نمطية موحدة فكرا وتخطيطا وتنفيذا وحتى الانحرافات اصبحت متشابهه فى تنفيذها وتكرارها .

بديهى ان يحدث كل هذا لأن التعاون سلوك ولم يكن ابدا قوانين ولوائح ولن يكون كذلك على مدى الأيام .

إصلاح مسار التعاون

* التعاون نظام شعبى ومن الضرورى رفع السيطرة الحكومية عنه وقد جربنا نصف قرن من الاشراف الحكومى وان الاوان لكى يعطى التعاون حرية الحركة ونترك الرقابة لاجهزة التعاون نفسها ممثلة فى لجان المراقبة والجمعية العمومية والاتحاد المركزى أو الجهاز المركزى المنتخب أيا كان اسمه .

* تكون القوانين المقترحة خطوطا عامة للنظام التعاونى .

* قانون موحد وجمعيات تخدم الانتاج الزراعى دون تشكيلات خاصة مثل جمعيات زراعية أخرى للاصلاح وثالثة للصحارى ورابعة للأراضى المستصلحة .

* تنظيم هرمى للبنيان التعاونى :

جمعية تعاونية قروية ـ ثم جمعية مركزية على مستوى المركز ـ ثم جمعية عامة ـ جمعيات متخصصة ثم اتحاد تعاونى عام مركزى على مستوى الجمهورية .

* العضوية اختيارية ومجلس الادارة بدون قيود فلم يعد هناك تخوف سياسى من وجود اقطاع بالريف .

* وضع حد أدنى للمساحة التى تستخدمها الجمعية أو لحجم الانتاج والنشاط الذى تباشرة الجمعية . وكذلك حد أدنى لعدد الاعضاء .

* لا ينشأ فى القرية أكثر من جمعية تعاونية زراعية .

* تكون الجمعية متعددة الاغراض حتى تستطيع ان تغطى كل الانشطة والخدمات .

* عدم تعدد الجمعيات بالقرى حتى لاتتعدد صور الفشل ويمكن ان تقوم الجمعية التعاونية بالاعمال التى تقوم بها جمعيات تنمية المجتمع وجمعيات الاصلاح الريفى وغيرها .

كل من أراد ان يخلق لنفسه مجالا للتسلط قام يدعو الى تكوين جمعية أو رابطة أو ناد بينما يمكن للجمعية التعاونية ان تحقق ذلك لانها بطبيعتها متعددة الاغراض .

* الجمعية العمومية هى مصدر السلطات التعاونية .

* معاقبة المنحرفين بقرار من الجمعية العمومية يسرى مفعوله فورا ولا يحتاج لاعتماد سلطة تنفيذية أو سياسية .

* الغاء الشعارات من قاموس التعاون .

« تلوث بيئة القرية »

الى منتصف القرن العشرين كانت القرية بعيدة عن مصادر التلوث وبعد هذا التاريخ دخل على حياة القرية مصادر كثيرة للتلوث أصبحت تمثل خطرا حقيقيا على حياة الناس والحيوانات بل على النباتات والأرض الزراعية التى كنا نفخر بخصوبتها وجودتها .

ومصادر التلوث الجديدة متعددة وأهمها الصرف غير الصحى وفضلات وصرف المصانع المقامة فى المدن أو القرى واخيرا التوسع فى استخدام المبيدات الكيماوية لمقاومة الآفات الزراعية والحشائش ، وعادم السيارات .

الصرف :

بعد الارتفاع النسبى البسيط فى مستوى المعيشة أخذ بعض السكان وكذلك المنشآت العامة كالمدارس والمساجد يصرفون المجارى فى اقرب مصرف عام فاذا لم يكن هناك مصرف فانهم يستخدمون الترع لذلك الغرض وفى هذا خطر مباشر على الصحة العامة فان المجارى تلوث المياه حتى تصبح غير صالحة للشرب أو الاستعمال سواء للانسان أو الحيوان .

وما أسهل ان تحل هذه المشكلة بأن يخصص مكان صغير قريب من المساكن ويكون تحت مهب الريح وتتجمع المجارى والفضلات ويصنع منها سماد عضوى ينفع الزراعة ويرفع خصوبة الأرض ويكون هذا الاجراء مصدر دخل للقرية ويحفظ للمصارف والترع نقاوة مياهها .

المصانع :

إنتشرت المصانع فى المدن والقرى وكل مصنع له مخلفات ناتجه عن عمليات التصنيع ومنها ما ينتج عنه غازات تطلق فى الجو أما المخلفات فانها تلقى فى المصارف وتكون مصدر تلوث واضرار متعدده وقد أجرى تحليل كيماوى لمخلفات المصانع فى مصر والتى ترمى فضلاتها فى المصارف فوجد فيها عناصر مختلفة منها : مركبات الحديد والنحاس والمغنسيوم والرصاص والمنجنيز والكبريت والزرنيخ وأكثرها سام للانسان والحيوان والنبات وقد انشئت المصارف فى مصر لتستوعب المياه التى تشبعت بها الأراضى نتيجة للرى ويمكن الإستفادة منها مرة أخرى فى أعمال الرى بعد خلطها بالمياه العذبة للاقلال من ملوحتها .

أما بعد خلط مياه بعض المصارف بمخلفات المصانع فانها اصبحت لا تصلح للرى أو لاى نوع من الاستخدام .

والقاهرة وهى العاصمة وأكبر مدن مصر كان لها نظام صرف حيث كانت تتجمع مياه الصرف فى منطقة الجبل الاصفر وتؤخذ الرواسب الجافة وتباع سمادا يسمى البودريت والمياه المتبقية تزرع عليها بساتين فاكهة من الموالح والنخيل وغير ذلك من الأشجار الخشبية . ولكن زيادة سكان القاهرة السريع وتوقف حجم العمل فى محطة مجارى الجبل الأصفر جعل هذه المحطة غير قادره على استقبال مياه المجارى المتزايده فى المقدار يوميا ولذا تركوا الفائض يصب فى مصرف كبير هو مصرف بلبيس الذى يخترق القليوبية

والشرقية حتى بحيرة المنزلة وأصبحت مياهه ملوثة كريهة الرائحة تؤذى وتضر مئات القرى التى يمر عليها دون ان تبدو بادرة لعلاج هذا الوضع .

المبيدات :

يتميز الوقت الحاضر بكثرة استخدام المبيدات فى الأعمال الزراعية لمقاومة الآفات الزراعية والمنزلية وابادة الحشائش وغير ذلك من الاغراض .

وهذه المبيدات لها فوائدها فى القضاء على تلك الآفات وصيانة الثروة الزراعية وزيادة انتاجها ولكن مع ذلك لها أضرارها وخطرها وخاصة اذا أسيء استعمالها ولها تأثير ضار على الانسان والحيوان والنبات والتربة الزراعية والمياه اذ أن معظمها ان لم يكن كلها ، سام وعندما ترش النباتات تبقى آثار من المبيدات ملتصقة أو عالقة على سطوح الخضر والفاكهة والحبوب وأعلاف الماشية فاذا أكل الانسان أو الحيوان مقادير من النباتات المعالجة فانه يتعرض للتسمم .

وبعض هذه المبيدات يسرى فى عصارة النبات وتصبح اجزاء النبات كلها مسممة ومنها الأوراق الخضراء والثمار والأزهار ولا ينفع معها غسلها بالماء أو تنظيفها أو طبخها .

واذا عولجت الماشية بالمبيدات أو تناولت أعلافا معالجة فان بعض المبيدات يفرز مع اللبن ويصبح اللبن ضارا .

وكثير من هذه المبيدات له صفة التراكم فى الدهن والغدد بمعنى ان الجسم يختزن كمية من هذه المبيدات ولا تفرز فاذا تكرر ابتلاع بعض هذه المبيدات مع الطعام فانه فى كل مرة يضاف مقدار جديد الى ما سبق ان أكله الانسان الى ان تصل الكمية الى جرعة قاتله تقضى على الحياة .

واذا لم يصل الامر الى الموت فان ظواهر مرضية كثيرة تحدث مثل : الشعور بالعمى أو انقباض الصدر أو قيء ومغص أو ارتعاش أو فقد الشهيه أو دوخة مع قيء أو تعب وانهيار أو عدم القدرة على التنفس أو شلل بالجهاز التنفسى .

وفى الحالات الشديدة يتوقف القلب فجأة وكثير من حالات هذه الاعراض لا يعرف ان السبب الحقيقى هو المبيدات .

وقد أصبح استخدام المبيدات بواسطة الطائرات عاما لكل مزارع القطن حيث يرش عدة مرات وكذلك بعض حقول الأرز وبعض الحدائق .

ونثر المبيدات بواسطة الطائرات يعطيها فرصة أوسع للانتشار فى الجو فتغطى الحقول والمنازل والترع ومجارى المياه وحظائر الماشية ويتوزع ضررها على كل مكان ويستنشق الناس والحيوانات الهواء الملوث بالمبيدات .

ان التوسع فى استخدام المبيدات وخاصة بواسطة الطائرات هو أكبر مصادر تلوث البيئة للريف وسكان الريف .

التقسيم الإدارى للقرى

القرية عباره عن كتلة سكنية متجاوره تحتوى المنازل والمنشآت ويتبعها فى اماكن متفرقة متناثره عدد من العزب والنجوع ويضم كل ذلك رقعة مقسمة الى احواض تتخللها طرق وترع ومصارف .

ولم تكن هناك قواعد عامه تنظم زمام القرى ومساحتها وحدودها اذ ان ذلك كان يتم اما عشوائيا دون اى قاعدة او تتحكم فيه عوامل قبلية او اجتماعيه او سياسية كأن تكون لأسرة او بعض الافراد من ذوى النفوذ الادارى او السياسى أطيان زراعية بعيدة عن مبانى القرية فيعملون على ضمها وتبعيتها اداريا لتكون تحت سيطرتهم ونفوذهم .

كانت القرية وحدة قبلية او اجتماعية ، هكذا نشأت وتكونت وظلت على هذا الوضع الى يومنا هذا .

ولكن الوضع الان يختلف كثيرا عن الماضى فقد اصبحت القرية وحدة اقتصادية منتجه واقتصادياتها وانتاجها مرتبط بحياة اهل القريه ومرتبط ايضا بالدخل القومى للوطن وبتوفير الامن الغذائى وتحقيق الاستقرار السياسى .

ولكى يتحقق ذلك بصورة سهلة بسيطة ميسرة فإن الامر يتطلب ان تكون كل التوابع من عزب ونجوع واحواض زراعيه قريبه من القرية الأم وليس بينها ما يحول دون ارتباطها ببعض فلا تكون هناك عوائق جغرافيه مثل الترعه والمصارف وجسور السكك الحديدية حتى تصل الخدمات العامه والزراعيه الى كل موقع دون ارهاق او زيادة فى التكلفة او تضييع الوقت .

فإن كل رقعة زراعية فى زمام القرية تحصل على مستلزمات الانتاج من مقر الجمعية التعاونية بالقرية صاحبة الزمام وليس من قرية اخرى لا تتبعها ويشمل ذلك الحصول على التقاوى والاسمده والمبيدات والاعلاف والات الخدمة الزراعية وآلات مقاومة الآفات .

والعزب والنجوع وسكانها يرتبط امنها بالعمدة او مقر الشرطة .

وبالتقسيم الادارى الحالى صور شاذه كأن تكون عزبة او نجعا أو حوضا زراعيا مجاورا لقرية ما ولكنه يتبع قرية اخرى بعيده وقد تبعد بضع كيلو مترات وهى صور تكاد تكون فى كل القرى .

وهذا الوضع من العوامل المعوقة للانتاج ولوصول الخدمات العامة .

واصبح من الضرورى ان يعاد تقسيم القرى بحيث يكون على قواعد واسس جغرافيه واقتصادية . وهو اجراء سهل ميسور لن يكلف شيئا ولكنه اصبح ضروره يرتبط بها زياده الانتاج ورفع كفاءة الخدمات .

المواصلات

الانتقال بين القرى وبعضها كان الى وقت قريب بواسطة الدواب تحمل الناس والحاصلات الزراعية ومستلزمات الانتاج وحاجيات السكان وكانت الغالبية تمشى على اقدامها ولذا كانت الطرق بسيطة خفيفه متعرجه ضيقة .

ولما حدث التطور السريع فى وسائل النقل وانتشر استخدام السيارات على مختلف انواعها والجرارات الزراعيه لم تطور الطرق وظل اكثرها على ما هو عليه فقد تأخر انشاء الطرق الحديثه المرصوفة بسبب الاعباء الثقيلة التى تحملها الاقتصاد القومى نتيجة الانفاق الحربى اكثر من ثلاثين عاما ولم توجه عناية الى صيانه تلك الطرق الترابية التى عرفت باسم الطرق الزراعية وكان الفلاح احد العوامل التى اضعفت هذه الطرق اذ كان يزحف عليها بإضافة رقعة صغيرة لا تغنى ولا تثمر الى ارضه يضم شبرا او بعض شبر الى ارضه يقتطعها من الطريق ليزرعها ويأخذ ما يلزمه من اتربه من الطريق نفسه وعندما يفيض ماء الرى فى حقله يتركه يتسرب الى الطريق فيغرقه ويوحله وتصبح الطرق الزراعيه كلها لهذه الاسباب لا تؤدى الغرض منها على الصوره الواجبة والتى تتطلبها الحياة الان فلا تستطيع السيارات الصغيره والكبيرة السير على هذه الطرق وكذلك سيارات اطفاء الحريق وسيارات اجهزه الامن والاسعاف والخدمات الاخرى .

ولما كانت الطرق ذات اثر مباشر على انتاج القرية وخدمتها وعلى الاقتصاد القومى كله وليس فى مقدور مواردنا المالية انشاء شبكات طرق حديثه دفعة واحده لهذا فإن العلاج السريع هو رفع كفاءة الطرق الزراعية الموجودة بمنع التعديات عليها وصيانتها

وتسوية جسور الترع والمصارف حتى تصلح لسير السيارات وليست هذه المهمه صعبه اذا تعاونت أجهزة الحكم المحليه مع اهالى القرى على ذلك .

ارتفاع معدلات الاستهلاك

كانت القرية تنتج من الطعام ما يكفيها بل كان الانتاج يزيد على حاجتها فكانت تصدر الى المدن كل مواد الغذاء الرئيسية من حبوب وخضر وفاكهه ولحم ولبن وسمن وبيض وكانت الدوله تصدر الفائض عن الاستهلاك الى الخارج .

ولكن تغير الموقف واصبحنا نستورد الكثير من مواد الغذاء وفى مقدمتها القمح والدقيق والذره التى نستوردها من بلاد تبعد الاف الاميال من امريكا الشمالية واستراليا كما نستورد الزيت والسمن واشياء اخرى عديده .

وكثير من المواد الغذاء تدعمه الدوله حتى تصل الى المستهلك بسعر رخيص وتتحمل خزانه الدوله اكثر من ثلاثه مليارات جنيه لدعم الاسعار .

لقد زاد استهلاك القريه من الغذاء والكساء ومواد الطاقة من بترول وكهرباء والزيادة لسببين ارتفاع مستوى المعيشة ثم الزيادة المطرده فى عدد السكان .

والزيادة لرفع مستوى المعيشة هى امل ورجاء وهو ما يسعى اليه الجميع لتحقيقه بالنسبة للفلاح الذى عاش قرونا متصله يعيش على الكفاف ويعانى من نقص التغذيه وهو ما يجب العمل للتغلب عليه بزياده الانتاج ولكن كل زياده فى الانتاج لن تكفى بسبب الزياده السكانية .

واصبح من اهم مسئوليات الدولة توفير التموين للسكان فى الريف والحضر وحماية المستهلك .

وفى الماضى القريب وحتى بداية هذا القرن لم يكن مسئوليات الدول والحكومات حماية المستهلك او السعى لحل مشاكله اذ لم تكن هناك حاجة الى ذلك .

ولكن فى يومنا اصبح المستهلك هو اكبر هموم الدوله فى كل دوله وحكومه تزيد معدلات السكان فيها عن معدلات الانتاج سواء كان الحكم رأسماليا او اشتراكيا او شيوعيا لان المستهلك اذا جاع فقد عقله وكفر بكل القيم والمبادىء وصم آذانه عن

الاستماع الى المواعظ والنصائح والحكم ولم تعد تضحك عليه الشعارات او يضحك عليها .

حمايه المستهلك الان هى حماية امن الدوله ، حمايه الحاكم والمحكوم وهى اهم دعائم الاستقرار .

وفى القريه الان تجد طوابير السيدات والرجال فى انتظار توزيع الدقيق والزيت والسمن والسكر والشاى والملابس ولم يكن هذا مألوفا ولا معروفا فإن كل منزل كان فيه مايكفيه من حبوب وسمن لعام او أكثر من عام وكان انتاج اللبن والبيض يكفى ويفيض وكانت سلع مثل الزيت والسكر والعسل الاسود تبقى فى دكان التاجر راكدة ذلك لان الانتاج كان اكثر من احتياجات السكان .

ولكى يصحح الوضع لابد من زياده الانتاج وتحت الظروف المصرية والعالمية فإن زيادة الانتاج لها حدود وليست مطلقة الى مالا نهاية وعلاج الموقف مرتبط بحل مشاكل الزيادة السكانية حلولا عاجلة .

الحرائق

إذا شبت حريق فى منزل فسرعان ما تمتد الى المنازل المجاوره واذا كانت هناك رياح فان النار تنتقل من منزل الى ما يجاوره من المنازل .

ويساعد على انتشار الحريق عدة عوامل أولها طبيعة بناء القرية والتصاق البيوت ببعضها وضيق الحوارى والشوارع وتعود الأهالى وضع الاحطاب على سطوح المنازل وهى مخلفات المحاصيل الزراعية مثل قش الأرز وحطب القطن والذره وكلها سريعة الالتهاب .

وتكثر الحرائق فى الأشهر التى تشتد فيها الرياح مثل فبراير ومارس وفى موسم رياح الخماسين التى تسود مصر فى شهرى ابريل ومايو وهى رياح تهب من الشرق والجنوب الشرقى محملة بالأتربه وتكون قوية عاصفه وهى تهب عكس الرياح السائدة فى مصر طول العام وهى الرياح الشمالية الغربية .

واثناء اشتعال النار تهرب الطيور والدواجن والقطط والكلاب من النار وبعضها تكون النيران قد أمسكت بها فتجرى على غير هدى ومن منزل الى آخر ويطير الحمام وهو مشتعل فتكون كل هذه العوامل مساعده على اتساع دائره الحريق .

وليس فى القرى أجهزة إطفاء حريق وعند قيام اى حريق فإن الأهالى يتعاونون على إطفائها بوسائلهم الخاصة بحمل الماء فى جرار من الفخار أو الحلل والجرادل ويقومون بإبلاغ اقرب نقطة مطافىء حكومية التى توجد عادة فى احدى المدن او مراكز الشرطة .

وطبيعى ان يمضى وقت بين إبلاغ المطافىء وبين وصولها فتكون النار قد أتت على الدور وما فيها .

وقد تحضر سيارات الإطفاء ولكنها لا تجد طريقا للوصول الى موقع الحريق وربما لا تجد ماء كافيا فى ترعة او مصرف او تكون بعيده فيصعب توفير المياه اللازمة للإطفاء .

وتدمر الحدائق المنازل الريفية تدميرا تاما اذ انه علاوه على تأثير النار فان الماء المستخدم فى الاطفاء يتسبب فى هدم الجدران المبنية من الطين أو الطوب النى .

وماشية الفلاح ودوابه تعيش داخل الدار ولهذا تصيبها الاضرار السريعة لانها تكون مربوطه بالحبال فلا تستطيع الفرار .

وقد تشتعل الحرائق فى الحقول وخاصة فى القمح والشعير عند نضجها وجفاف سيقانها وتكون فى هذه الحالة مذبره انتقاما من صاحب الحقل ونادرا ما تكون قضاء وقدرا .

وبعد الحريق لايجد المصابون المأوى ولا الطعام ولا الملبس وتسرع الأجهزة الحكومية لإغاثتهم إغاثة مؤقته لأيام قليلة وقد تصرف تعويضات بسيطة أو لا تصرف ، ويترك المنكوبون يدبرون أمورهم ويجدون فى البداية تعاونا ومساعدة من أهليهم وذويهم وجيرانهم ولكن آثار الحريق الاقتصادية تكون كبيرة الأثر طويلة المدى على من نكبتهم الحرائق .

ويمكن الحد من أضرار الحريق بالوسائل التالية :

- تمهيد الطرق وصيانتها المستمره لتيسير وصول سيارات الإطفاء .

- عمل ماسورة مياه خاصة للإطفاء فى البلاد التى بها شبكات مياه شرب ، وكل القرى تقريبا مزوده حاليا بشبكات مياه الشرب .

- توزيع مضخات إطفاء حديثة صغيرة الحجم سهلة الاستعمال وتكون فى مواقع مختلفة بالقرى لاستخدامها عند بداية الحريق .

تصفية الاقطاع

فى منتصف عام ١٩٦٦ شكلت لجنة سميت اللجنة العليا لتصفية الاقطاع وكان رئيس اللجنة هو القائد العام للجيش واستمرت اللجنة تعمل الى ان توقفت مرغمة بسبب هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ ثم انتحار رئيسها .

وكان عمل هذه اللجنة من اغرب الاشياء واكثرها شذوذا ويصعب على المؤرخين وعلماء النفس تحليل الاسباب والغايات والاهداف التى من أجلها شكلت هذه اللجنة وسمح لها بالعمل فى جو من الارهاب والطغيان وتعذيب الناس جماعات وافرادا .
قالوا عند انشائها ان الغرض هو القضاء على الاقطاع فى الريف وكان الاقطاع قد تم تصفيته قبل ذلك باربعة عشر عاما ..

قال عبد الناصر فى خطاب طويل فى دمنهور يوم ١٥ / ٦ / ١٩٦٦ : « اهم تغيير حصل بقيام الثورة هو انتقال السلطة السياسية الى تحالف قوى الشعب العاملة اى اسقاط سيطرة الاقطاع ورأس المال » .

اسقاط الطبقة اللى كانت تمتلك كل شىء الا ان تاخذ كل ناتج عمل وتترك له الشىء البسيط ولا يهمها من مصير باقى الشعب شىء اللى يدوب يخليه يعيش علشان يشتغل ونتيجة شغله يوفروا الثروات الطائلة ويشتروا الارض .

ويستطرد فى خطابه الطويل فى سرد الظلم الذى تعرض له الفلاحون علاجا لذلك وقضاء على الظلم يرى ان الوسيلة هى :

التسويق التعاونى
ثم تصفية الاقطاع بالريف
وكرر الجملة الاخيرة مرتين ..
وسنرى فيما بعد كيف كان امر التسويق التعاونى .

ونستعرض الان فى ايجاز امر تصفيه الاقطاع قال الرئيس محمد انور السادات فى خطاب له يوم ١٤ مايو ١٩٧٧ « لجنة تصفيه الاقطاع لم تكن الا تعبيرا عن قمة تصاعد الاجراءات الاستثنائية ضد الشعب باسم حماية الثورة » .

هل حققت اللجنة اهدافها لتصفيه الاقطاع ... ابدا ... !! .

كانت لجنة ظالمة اعتمدت على تقارير مزيفة وعلى احقاد وداست على كل القيم وفرضت الحراسات وشردت مئات الاسر .

كان طرفا المقصلة هما اللجنة العليا المتمركزة فى القاهرة يرأسها قائد الجيش ومجموعة مختارة من قيادات الجيش والجهاز السياسى والطرف الاخر هو جهاز الاتحاد الاشتراكى فى الاقاليم .

هل استفاد الفلاحون والعمل الوطنى والانتاج الزراعى من هذه القرارات . . ؟

هل عادت أعمالها بخير على احد . . ؟
الحقائق والارقام تقول ان محصلة هذه اللجنة فى عامها الأسود كان الاستيلاء على :
٢٠٠ ألف فدان
٩٤ قصر ريفى
٢٠ ألف رأس من المشية
٣٦٣ من الخيول العربية الأصيلة
١٦١٣ آلة زراعية
وأبعد عن الريف ٢٢٠ من الأسر

ولم يتم هذا فى هدوء ولكن صاحبه العنف والتعذيب والقسوة ولو اتبعت اسلوبا قضائيا لكان فى ذلك فرصة لكل صاحب حق ان يدافع عن نفسه .

ولكن اللجنة سقطت فى اخطبوط اجهزة متعددة كالمخابرات والمباحث والشرطة العسكرية والحكم المحلى والاتحاد الاشتراكى والتنظيم السرى الطليعى وتم اختيار الافراد من هذه الاجهزة ممن تجردوا من صفات الانسانية ومن هنا وقع الظلم على كثير من الأبرياء لمجرد كلمات مكتوبة فى التقارير أو وشاية مغرضة حاقدة حتى ان رئيس اللجنة وهو يرأس الاجتماع ذات ليلة أخرج من جيبه علبة السجاير واخذ يقلبها وقرأ اسما رباعيا فلما استفسروا منه عن هذا الاسم وعن عمله وعنوانه قال لااعرف وابحثوا عنه وضعوه تحت الحراسة وبحثوا كثيرا وطال البحث.ثم صدر قرار اللجنه بوضعه تحت الحراسة وفصله من وظيفته وأيضا رئيس مجلس إدارة شركة صناعية بالاسماعيلية والثانى مديرها العام . . وتم تنفيذ القرار ووضع الاثنان تحت الحراسة وفصلها من عملهما .

وكانت فترة عمل اللجنة فرصة للاثراء غير المشروع لمئات الافراد الذين ساهموا فى اعمالها فمئات الالوف من الجنيهات والمجوهرات النادرة والثمينة والتحف والسجاد والاثاث واعداد لا حصر لها من الثروة الحيوانية بدلا من ان تضاف إلى موارد الدولة دخلت جيوب وبيوت البعض واصبحت جزءا من ممتلكاتهم الشخصية .

ولم تعرض على اللجنة حالات كثيرة ولم تبحث والسبب الرشاوى الضخمة التى تقاضاها البعض وحالات النسب والقربى ووساطة ذوى النفوذ .

ولقد ظلمت قرارات اللجنة مئات الابرياء معظمهم من رجال القضاء وشردوا بلا ذنب اقترفوه الا انهم من العائلات التى بحثت حالاتها أمام اللجنة أو تربطهم بها صلة المصاهرة .

كانت التقارير والحسابات القديمة والحقد الاسود والأهواء الشخصية هى السند لكل ما تم من اجراءات .

وقد تمكن صحفى ناجح هو الاستاذ محمد رشاد من الحصول على الملف الكامل للجنة تصفية الاقطاع واقتبس منه بعض الحالات وسجلها فى كتاب بعنوان « سرى جدا » . . .

من ملفات اللجنة العليا لتصفية الاقطاع . . . والكتاب حافل بالأعاجيب وبه النص الحرفى للمناقشات التى كانت تدور بين الأعضاء داخل اللجنة .

وهذه المناقشات تحتاج إلى وقفة تأمل ودراسة لمعرفة أى نوع من المخلوقات تلك الجماعة التى حكمت مصر فى هذه المرحلة الحزبية .

القانون فى مفهوم اللجنة :

كانت اللجنة تهزأ بالقوانين ولا تعترف بها . . فى أحد الاجتماعات قال شعراوى جمعة « كتاب سرى جدا ص ٢١٨ » لم اقتنع بالنيابة ولااريد ان يحال اليها موضوعات اخرى وفى تصورى انه يجب ان تحال مثل هذه الموضوعات إلى جهة ثورية للتحقيق فيها مثل المخابرات العامة والمباحث العسكرية بدلا من الدخول فى دوامة القوانين وتنتهى الحالات بالبراءة .

ويضيف احد اعضاء اللجنة ان فرض الحراسة لايتعارض مع نصوص الدستور لان الدستور يمنع الحبس فقط والحراسة اجراء امنى وليست عقوبة .

وقال ثالث . . المحكمة تلتزم بالقانون الذى يقضى باعتبار الشك لصالح المتهم ولابد من اقامة محكمة خاصة من الرجال ثوريين متشبعين بمبادئنا الثورية حاملين لواء اهدافها لمعاقبة هؤلاء المجرمين أسوة بما تم مع عدلى لملوم أحد الاقطاعيين والمنحرفين من العمال فى كفر الدوار .

اسباب غريبة لمصادرة الأملاك والحراسة :

ملفات الحراسة التى لخصت بعض تقاريرها تعطى صورة غريبة ربما لم تحدث على مدى التاريخ البشرى والمعلومات التى نذكرها هنا هى صورة طبق الاصل دون تعليق او تحريف منقولة من كتاب « سرى جدا » ولا يتسع المجال لذكرها ونكتفى بذكر بعض نماذج منها .

عائلة غراب

عائلة غراب تعيش بقرية اوسيم مركز امبابة وقد فرضت عليها الحراسة للاسباب التالية .

● العائلة وعددها ٨٠ شخصا يمتلكون عشر سيارات ملاكى ..!!
(ويلاحظ أن رئيس اللجنة كان يخصص لخدمة منزله ١٩ سيارة) .

● ارتكبوا جرائم قتل فى عهد الخديوى اسماعيل منذ اكثر من قرن .

● ان الاسرة تكن عداء بغيضا للاشتراكية والمنادين بها وصدر قرار اللجنة وهو :

١ - العزل السياسى لجميع افراد هذه العائلة .
٢ - تقوم الحراسة بالتصرف فى الاراضى الزراعية المملوكة لهم بالبيع لصغار الفلاحين حتى تتم تصفية ممتلكاتهم بالقرية ويودع ثمنها بالحراسة .
٣ - يتم نقل جميع رجال الشرطة بمركز امبابة ونقطة اوسيم .
٤ - فصل جميع افراد الاسرة من جميع المناصب الادارية على الفور .
٥ - حل لجنة الاتحاد الاشتراكى وحل مجلس القرية ببلدة أوسيم وحل الجمعية التعاونية الزراعية .
٦ - الذين تقرر اعتقالهم من عائلة غراب يعتقلون فى الصحراء فى مكان بعيد .
٧ - الطلبة الموجودون فى الخارج من اولاد المعتقلين ينظر فى امرهم .

رئيس مجلس الدولة :

ووضع رئيس مجلس الدولة تحت الحراسة وتدور مناقشات عجيبه فى اللجنة يتبين منها انه يدير اطيانه واطيان أسرته ويحقق انتاجا عاليا .

فيقول أحد الاعضاء ان هذا يدل على مقدار حبه لجمع المال فقد كان يكفيه مالديه وأرى انه ينبغى ان نطبق عليه ماطبقناه على غيره فى الحالات المماثلة .

ويقول آخر . . . صحيح ان السيد على السيد كان رجلا عظيما وخدم الدولة ولكن الدولة خدمته ايضا وجعلت له كيانا فما كان يصح له ان يترك عمله ليقوم بمباشرة الزراعة بصفة مستمرة حتى كون هذه الثروة الكبيرة .

ويصدر قرار اللجنة كالآتى :

تفرض الحراسة على الأرض الزراعية المملوكة للسيد على السيد على الا يعلن هذا القرار فى الصحف .

أبطال الإنتاج الزراعى تحت الحراسة :

ولعل أفظع الصور ان يوضع تحت الحراسة افراد لم يرتكبوا جرائم ولم يحترفوا السياسة ولم تكن لديهم ملكيات زراعية كبيره ولم يكونوا مستغلين بل لأنهم اجتهدوا فى زراعة اراضيهم وحصلوا على انتاج كبير وعلى سبيل المثال لا الحصر .

- مزارع فى اشمون كانت ارضه تعطى أعلى محصول من البطاطس حتى أطلق عليه ملك البطاطس .

- مزارع فى قرية الكتيبه مركز بلبيس كان لديه تسعه أفدنة من الخوخ يبيع ثمارها سنويا بأكثر من عشرة آلاف جنيه وذلك فى الستينيات أى أن الفدان يعطى ايرادا يزيد على الألف جنيه سنويا وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت .

- مزارع مجتهد بالمنوفية كان أول من تخصص فى زراعة الورد وتصديره للخارج وحقق ايراد الفدان مبلغا كبيرا .

- مزارع بالفيوم أدخل فى مصر لأول مرة زراعه الطماطم على اسلاك فاعطى الفدان محصولا يبلغ ثلاثين طنا بينما يعطى نفس الفدان بالطرق العادية محصولا لايزيد على خمسه أطنان .

- مزارع فى ابو حماد كان رئيسا لرابطة مربى النحل ويمتلك منحلا نموذجيا يعطى انتاجا عاليا من العسل .

هؤلاء وغيرهم وضعوا تحت الحراسة ويعلل شعراوى جمعه اسباب وضعهم تحت الحراسة بالرأى التالى كما جاء النص الحرفى فى الملفات :

ان محمود حسين يوسف يحقق انتاجا عاليا من البطاطس وبذلك يحصل على ارباح طائلة انه يثير الحقد عند الطبقات الفقيره الكادحة التى لا يصل انتاجها من البطاطس ربع أو ثلث انتاجه .

حالة توجب وضعه تحت الحراسة ونحن اذ نفعل ذلك نكون فى غاية الاطمئنان فهذا الرجل خطر جدا ويعتبرا مخربا للاقتصاد القومى .

قرار اللجنة :

فرض الحراسة على محمود السيد حسنين على يوسف وعائلته وابعاده عن الريف وهكذا فرضت الحراسات على ابطال الانتاج الزراعى بدعوى أنهم مخربون للاقتصاد القومى . . .

وفى أواخر عام ١٩٦٦ وصل الى خلايا التنظيم السرى التابع للاتحاد الاشتراكى منشور دورى به نص موال يتغنى به المغنون على مقاهى القرى فى كثير من المحافظات وان هذا الموال يندد بلجنة تصفية الاقطاع والمطلوب معرفه مؤلف هذا الموال لأنه حتما يمثل القوى الرجعية التى تريد ضرب تحالف قوى الشعب العاملة ، وجاء فى آخر المنشور ان الذى سيتعرف على مؤلف الموال سيكون موضع تقدير خاص . . والموال هو : (بعد حذف بعض عبارات نابيه)

يا زارع فى بلدنا شجر الحقد
يا زارع الشوك بدَل الورد
يا عدو الحب يا كاره الود
يا مجمع البلاوى والهموم من غير عد
تروى زرعك بالحقد الدفين
وتخلع بإيدك الفل والياسمين
تحرق ضلوعك نار الغيره والغل
فوق لنفسك وازرع الفل

دا الخير كثير والخير للكل
وربك الرزاق باسط فضله على الكل
ليه الحسد ليه الغيره يا عليل
اشتغل واعمل واسهر يا ذليل
تلاقى الخير طوفان والعمر يصبح طويل

واجتهد اعضاء التنظيم السرى للبحث عن المؤلف وجاءت محصلة الردود تحوى سبعين إسما يؤكد كل تقرير ان الاسم المذكور هو مؤلف موال الحقد . . وعرض التقرير على الرئيس الأعلى للتنظيم فأدهشه ان للموال سبعين مؤلفا ينتشرون فى كل البلاد فكتب على التقرير . . « خيبة الله عليكم أجمعين »

مداخل التنمية

لكى تنجح أى خطة لتنمية القرية ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا لابد ان تكون اسس الدراسة مستنده الى الحقائق والواقع ولا تكون قائمة على التفاؤل والتمنى فالنجاح مرتبط بالتعامل مع حقيقة وواقع .

الأمم التى تقدمت وارتقت حضاريا كانت واقعية وصناع الأمجاد فى التاريخ كانوا كلهم واقعيين .

والتغيير الحضارى لمجتمع الفلاحين لن يتحقق إلا اذا آمن الفلاحون بذلك وعملوا له ولا يمكن ان يفرض عليهم ، ومن غير هذا ستظل خطوات التقدم والارتقاء بطيئة ثقيله بينما العالم يسرع ويجتهد لتحقيق حياة أرقى وأفضل .

فالاساس الأول للتنمية هو استجابة أبناء القرية أنفسهم وعزمهم بإيمان وصدق واجتهاد على رفع مستواهم الحضارى وتنمية مواردهم وقبول الافكار الجديدة التى تدعو الى تطوير نمط الحياة .

وقد توافرت الآن بسبب تقدم العلوم التطبيقية وسائل عديدة لم تكن معروفه من قبل بل لم تكن معروفه منذ سنوات قليله مضت مما ييسر سرعة حل المشاكل والتصدى لها والتغلب عليها وعدم تأجيلها لأن تأجيل المشاكل اكبر علامات الفشل .

ومسئولية تنمية القرية هى الان مفروضة وواجبه على المجتمع كله ، مسئوليه الدولة والناس ولكل مجالاته وتخصصاته ، ولابد ان تنفذ كل الخطط فى تناسق وتعاون دون تداخل أو تكرار . ويساهم فى العمل كل القطاعات التالية :

- الحكومة
- أهل القرية
- الأجهزة السياسية
- الإعلام
- المعونات والمساعدات الفنية الخارجية

اولا ـ مسئولية الحكومة

١ ـ علاج المشاكل من المنبع

مشاكل تنمية القرية متعددة الأسباب منها مايرجع إلى الماضى بعيده وقريبه ومنها ما يتصل بالحاضر ولكن هناك الآن سبب واحد يعتبر المنبع الرئيسى لكل المشاكل وهو التضخم السكانى فان كل خطط التنمية تبتلعها الزيادة السكانية فلا يظهر أى أثر أو نتيجة للجهود التى تبذلها الحكومة وقد توفرت الآن للقرية خدمات كثيرة لم تكن موجودة منذ ربع قرن وأصبح من الضرورى لمواجهة المشكلة الأولى ان تواجه بشجاعة سياسية وفكر مستنير وان يكون فى مقدمة الخطوات التنفذية مايأتى.

أ ـ وضع خطة قومية عاجلة التنفيذ لعلاج الانفجار السكانى ولاتترك لجهاز واحد بل يتحمل مسئولياتها برامج التعليم فى كل المراحل والإعلام والتنظيمات السياسية مؤيدة ومعارضة بغرض إيجاد وعى عند كل الناس .

وزيادة وتنشيط الخدمات الطبية المنظمة للنسل ورفع سن زواج البنت إلى عشرين سنة والغاء الشهادات الطبية التى تقدر العمر بشهادة من طبيب .

يلتزم بالخطة القومية لكل الأجهزة والأفراد بحيث لا يخرج عن الخطة وتنفيذها أحد وان ترتبط كل خطط التنمية بموضوع السكان .

ب ـ ضمان العمل للناس وليس ضمان العيش لهم

اخذت الحكومة على عاتقها فى السنوات الأخيرة توظيف كل من يحمل مؤهلا .

والافضل ان تكون مهمة الحكومة توفير العمل المثمر وليس التوظيف بصورته الراهنة .

وقد تحملت الحكومة بتوفير المعاشات والمعونات وهو عمل جليل طالما كان قاصرا على المسنين والعاجزين عن التكسب ومن فقدوا عائلهم ولأسر الشهداء والمصابين فى الحوادث .

ولكن جاء فى نظام المعاشات حق العامل فى ان يطلب معاشا ويحيل نفسه للتقاعد بعد خدمة عشرين سنة فبدأت هذه الايام ظاهرة جديدة وهى ان بعض العاملين فى

مصانع القطاع العام أو الخاص أو الشركات يطلب التقاعد هروبا من العمل الشاق - مقارنا بالعمل الحكومى - ويتقاضى معاشا وهو فى سن حول الاربعين ويظل مابقى من العمر يأخذ ولايعطى .

ومطلوب اعادة النظر بشجاعة فى المنح والمساعدات التى تعطى للأسرة كبيرة العدد - ثلاثة ابناء فاكثر - فتعطى الحوافز للولد الأول وأقل منها الثانى ثم سلبيات للولد الثالث ومابعده ومطلوب ايضا حفظ الكرامة الانسانية وعدم اهدارها بالصدقات الهبات والاجور دون عمل .

جـ - رفع كفاءة الأجهزة الموجودة فعلا بالقرية الآن

قبل التفكير فى انشاء اجهزة جديدة لابد من العمل على تشغيل المؤسسات الحكومية بكامل طاقتها ووضع برامج واقعية محددة واضحة لكل جهاز تكون مرتبطة بتوقيت زمنى مع المتابعة والتقويم .

حـ - ربط الأجر بالانتاج

وهو اجراء لن يكون سهلا بعد ان تعود موظفو الحكومة التراخى وعدم المبالاة طالما نه يحصل على مرتبه وعلاواته وترقياته وهو مطمئن فى قريته سواء عمل أم لم يعمل .

واذا ارتبط الأجر بالعمل فانها ستكون نقطة تحول سريعة فى تنمية القرية بل تنمية لوطن كله .

هـ - الانتقال من حضارة الكلمة الى حضارة العمل

الابتعاد عن الشعارات
عدم الاسراف فى الوعود
محاسبة كل مسئول عن تصريحاته
حوافز للأفراد والقرى
اقامة معارض ومهرجانات للانتاج
تركيز الخطط ووضوحها

ثانيا - مسئولية أهل القرية

أ - الأفراد

العمل هو الوسيلة المؤكدة لإسعادهم
التنافس الشريف
الاستفادة من حضارة العصر
كل مواطن من ابناء القرية فى عنقه دين لقريته
الذين نجحوا ولايزالون فى القرية
الذين واتتهم فرص لتحقيق نجاحات علمية واقتصادية واجتماعية وتركوا القرية
الذين هاجروا خارج الوطن هجرة موقوتة أو دائمة كلهم مطالبون بالعطاء

ب - الجماعات والجمعيات والمؤسسات

الاهتمام بالجوهر قبل المظهر
عدم الاستغلال وتحقيق منافع خاصة
توزيع الانشطة وعدم تداخلها أو تضاربها
المحافظة على المنشآت العامة وصيانتها ونظافتها
التطوع للخدمات العامة دون انتظار أجر أو ثناء

ثالثا - الأجهزة السياسية

العمل السياسى هو دراسة علاقات القوى السياسية فى موقف ما وحشد الطاقات المتوفرة والامكانيات المتاحة لمواجهة هذا الموقف ووضع خطط التحرك وحساب احتمالات النتائج والتقييم السريع لتلك النتائج . والاستفادة من كل ذلك بتغيير اسلوب التحرك

ومن صفات العمل السياسى المخلص التكتل ووحدة الصف عند وقوع الخطر أو الشعور بقربه .

كان الخطر فى الاستعمار والجيوش الغازية من وراء الحدود وقد زالت هذه المخاطر وأصبحت المهمه الكبرى التى يجب أن يواجهها العمل السياسى هو تحقيق التنمية وازالة

معوقاتها . وقد مضى أكثر من نصف قرن كانت القرية بكل مواردها وامكانياتها فى خدمة السياسه وقد آن الأوان لكى تضع السياسه نفسها فى خدمة القرية .

وقد مرت فترة من العمل السياسى حينما كان يسيطر نظام واحد أو حزب واحد ولحسن الحظ إنها كانت قصيرة بالنسبة لعمر الأمه وافتقد الوطن البناء الحضارى والابداع ولم يجد النبوغ وسيلة للتألق ولم يجد طريقا للعطاء والفرصة الآن مهيأة أمام التنظيمات السياسية أن تخدم القرية وأن تؤدى خدمات جليله وتتنافس فيها .

ويمكن توزيع الخدمات العامه وأنشطتها المختلفة على الاحزاب السياسية بالقرية وهى مسائل لن تكلفها ماديا وكل ما يطلب هو قليل من الجهد بشريطة أن يكون جهدا متصلا ودائما . ومن أمثله الخدمة التى يمكن أن ترتادها الاحزاب .

النظافة والصحةالوقائية وتنظم النسل ومحو الامية وفصول التقوية والرياضه . .

رابعا - أجهزة الإعلام

كانت القرية إلى قريب فى معزل ثم أصبحت تسمع وترى كل أنباء العالم وأصبحت أجهزة الاعلام أخطر الأجهزة وأقواها وأبعدها أثرا وقد ظل الإعلام يزرع الحقد ويثير التفرقة زمانا إن عمداً أو جهلا وكان لذلك آثاره على مجتمع القرية وقد أمكن تصحيح المسار . ولكن لايزال الإعلام بكل أنواعه وصوره مطالب بتطوير نفسه والاهتمام بالقرية أكثر من اهتمامه بشهادة الثانوية العامه أو بعض الأندية الرياضية .

الاعلام مطالب بان يكون له دور ملموس بالقرية وتنميتها وتحضرها والاعلام المتفوق يستطيع أن يغير مجتمع القرية .

خامسا - المعونات والمساعدات الفنية

تتقدم بعض الدول الغنية أو الصديقة بتقديم مغونات ومساعدات فنية لقطاعات مختلفة ومنها الريف .

ويمكن أن يكون لهذه المعونات أثر سريع وواضح لو تركزت على خدمات عامه أو مشاريع خاصه مثل .

إنشاء الطرق المرصوفه - مراكز التدريب المهنى - وضع نظام للصرف الصحى للقرى والاستفادة منه فى تجهيز اسمده عضوية تنفع الزراعة - زراعة الاسماك - توفير تقاوى الخضر الممتازه - وغير ذلك .

لو تخصصت كل معونه فى إحدى النواحى السابقة ونفذتها فان ذلك سيكون أفضل من توزيع الاعتمادات والانشطة على مشاريع متفرقة .

مجالات التنمية

المدخل السريع لتحقيق تنمية ناجحة للقرية المصرية عن طريق استثمار قطاع الزراعة وليس هناك سواء والافضل أن تكون البداية بالوسائل سريعة التنفيذ التى لا تحتاج وقتا طويلا وتكون مؤكده الفائدة عاليه العائد .

وأهمها :

* القضاء على تفاوت الانتاج وقد سبق تفصيله واقتراح العلاج له .
* الاهتمام بزيادة انتاج الحبوب وفى مقدمتها الذرة والقمح والارز .
* الاهتمام بجودة الانتاج لأن ذلك يرفع السعر فيزداد الدخل بالتالى .
* غمر القرى كلها أو قطاعات كامله باصناف من الدواجن ممتازة الصفات .
* زراعة الأسماك فى مجارى المياه ومزارع الأرز والبرك والبحيرات .
* تطوير زراعة الخضر وتحديثها وهو أهم المداخل وأسرعها وأكثرها أهمية للأمن الغذائى ولزيادة دخل الفلاح .
* النهوض بالثروة الحيوانية وتوفير الأعلاف .

بعد هذا العرض المختصر لتنمية القرية فان من المعلوم ان التنمية وسيلة وليست هدفا ولذا يجب ان تمتد الى ابعاد كثيرة وتصل الى اعماق بعيدة

التنمية وسيلة لرفع مستوى المعيشة ولتحقيق الرخاء النفسى وتهيئة المناخ الصحى وتوضيح الطريق السوى وطهارة السلوك والابتعاد عن الجريمة والتعفف عن الانحراف

والقرية المصرية هى الخلية الاساسية للمجتمع ومصر عضو فى المجتمع العالمى وهناك الآن عوامل كثيرة تثير القلق اليوم والغد إذ يجتاز العالم مرحلة غريبة من مراحل

تاريخ البشرية ، فسباق مجنون للتسلح وزيادة سكانية سريعة وخاصة فى الدول ضعيفة الانتاج قليلة العمل ثم غلاء يشتد كل ساعة ويرتفع وأصبح علاجه فوق مقدور كل الاقتصاديين فى كل موقع فى العالم ويأتى فى مقدمة اسبابه ارتفاع سعر النفط المستمر وهو ما تفرضه الدول المنتجة . والنفط هو مصدر الطاقة الرئيسى الآن وتعتمد عليه كل عناصر الانتاج الزراعى والصناعى والنقل والسياحة والخدمات وكل مايلزم الناس من الضروريات والكماليات

وسيكون هذا الغلاء مع الزيادة السكانية سببا مدمرا لخطط الأمن الغذائى وتوفير لقمة العيش للدول الغنية والفقيرة على السواء ولكن الدول الفقيرة ستكون معاناتها أشد وأوجع

وفى مصر ينعقد الأمل والرجاء على القرية المصرية لتكون الدرع الواقى ومصدر الخير لكل مصرى وسط هذا الصراع الدولى المتلاطم الأمواج ويكتنفه الضباب فلا تتضح الرؤية ولا يؤتمن الغد

أصبح واجبا مفروضا ان نوجه كل الجهود للنهوض بالقرية وتنميتها اقتصاديا واجتماعيا . . . . عاجلا وسريعا

النهاية بعد البداية

بعد هذا السرد التاريخى الموجز للفلاح المصرى كان من الطبيعى ان تتخلف فى اعماقه رواسب تؤثر عليه وتتحكم فى تصرفاته ظاهرا وباطنا .... الخوف والقلق وفقدان الثقة فى الحاكمين حتى لو كانوا من الصالحين ، والرضا عن الكراهية والجمود والعزوف عن التطور والتقدم وسيطرة افكار خاطئة ومعتقدات بالية

ونتيجة لهذا إختفى البناء الحضارى والإبداع ولم يجد النبوغ والتفوق طريقاً لكى يتألق وهذا أمر طبيعى لأنه فى مراحل متعددة من التاريخ كانت هناك أقلية تصنع ارادتها فى اسلوب الحكم وإثارة الحروب وتوجيه الفكر وجباية المال وفرض فلسفة الخضوع والخنوع حتى أصبح الرأى لمن يملك لا لمن يرى .

والتف حول كرسى الحكم من يوسوسون للجالس عليه ويزينون له كل أعماله صوابا أو خطأ ، كهنة وقساوسة وشيوخا وشعراء وأدباء وكتابا وأجهزة إعلام تنوعت أسلوبا وأداء على مر العصور ولكن الخط واحد والهدف واحد ثم محترفو سياسة وانتهازيون عرفوا ان وصول المرء بين فكيه وان من يهمس ويوشوش يحصل على رضاء المسئول قبل من يعمل ويعرق ويجد وتزاحم على أبواب الحكام طلاب الغنائم السهله والطامعون فى جاه مزيف وثراء حرام لأنه سريع المنال سهلا ميسورا

وما اكثر ما توارى أهل الفضل وأصحاب المبادىء والقيم
ودفعت مصر الثمن تخلفا وقعودا عن ركب الحضارة

متى ياترى يصلح الحال ... وندرك ركب الحضارة بعد ان كنا سادتها وأول من صنعها ولا نطمع اليوم الا ان نكون من بين مسيرة أصحابها

متى وكيف يكون ذلك
ربما كان غدا أو بعد غد
ربما بعد قرن أو قرون لا تعد
علم ذلك عند الله الواحد الأحد
الأمر سهل ميسور اذا سلكنا طريق العلم وعملنا حتى تتصبب الجباه عرقا وان يكون التقديس لمصر .

كان التقديس لحاكم حتى بلغت منزلته الى مستوى الربوبية فى بعض الأحيان .

أو لرجل الدين كاهنا أو راهبا أو شيخا وليس للدين رجال يحتكرونه اذ ليس بين الله وبين أحد نسب الاّ طاعته .

أو كان التقديس لقائد حروب تسفك فيها الدماء وتنتهى بهزيمة او انتصار .
تقديس لكرسى الحكم وان اختلف الجالسون عليه .

وقد آن الأوان أن يكون التقديس لمصر .

الولاء والحب والوفاء والتقديس من البداية الى النهاية لمصر ومصر وحدها .

ستمضى قوافل التاريخ قافلة وراء أخرى حتى يدركها النسيان وستبقى مصر .

المراجع

أولا - الكتب

١ـ د . سليم حسن — مصر القديمة - الجزء الأول والثانى

٢ -وليم نظير — ١ - العادات المصرية بين الأمس واليوم
٢ - المرأة فى تاريخ مصر القديم
دار القلم ١٩٦٥

٣ - جيمس برستيد .(ترجمة زكى سوس) تطوير الفكر والدين فى مصر القديمة
دار الكرنك القاهرة ١٩٦١

٤ - أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم
فتوح مصر واخبارها (تحقيق محمد صبيح)
دار التعاون ١٩٧٤

٥ -د . محمد عواد حسين
د . لطفى عبد الوهاب — تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور
د . مصطفى العيادى — (مطبوعات محافظة الاسكندرية) ١٩٦٣

٦ - د . ثروت عكاشه — الفن المصرى - الجزء الأول

٧ - ابن اياس المصرى (محمد بن احمد بن إياس)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور
الهيئة العامة للكتاب (١٤٠٤هـ = ١٩٨٤)

٨ - تقى الدين احمد المقريزى — الخطط المقريزية

٩ - سليمان مظهر — بين السماء والأرض
مطبعة لجنة البيان العربى - القاهرة ١٩٦٢

١٠ـ د . محمد عبد المنعم خفاجه — الازهر فى الف عام

١١ـ عباس العقاد — عبقريه الإمام على

١٢ـ محمد فاوى عسر — مصر عربيه

١٣ ـ د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) — لغتنا والحياة

١٤ ـ على باشا مبارك — الخطط التوفيقيه (طبعة دار الكتب)

١٥ ـ محمد صبيح — اليقظه (الجزء الثانى)

١٦ ـ محمد رمزى — القاموس الجغرافى المبلاد المصريه (طبعة دار الكتب)

١٧ ـ عبد الرحمن الجبرتى — عجائب الآثار فى التراجم والاخبار (مطبعه دار فارس ـ بيروت)

١٨ ـ محمد رشاد — سرى جدا
دار التعاون

١٩ ـ د . عبد العزيز شرف — المكيفات
٤٤٣ سلسله اقرأ ـ دار المعارف ـ القاهرة

٢٠ ـ محمد عبد الغنى حسن — الفلاح فى الأدب العربى
المكتبة الثقافية ١٢٨ ـ دار القلم ١٩٦٥

٢١ ـ محمد السيد أيوب —
١ ـ مستقبل الزراعه فى اسوان
دار التعاون ١٩٦٧
٢ ـ من الربع الخالى الى السد العالى
دار التعاون ١٩٦٨
٣ ـ مسئوليه أهل الريف
سلسلة إخترنا للفلاح ١٩٦٨
٤ ـ اليمن بين القات وفساد الحكم
سلسله اقرأ ـ ٢٤٦ ـ
دار المعارف ١٩٦٣
٥ ـ السكان والتنمية الزراعية
وزارة التربية والتعليم
(صندوق الامم المتحده للأنشطة والسكان) ١٩٨٠

ثانيا ـ بحوث ودراسات وتقارير

١ ـ اللواء سامى أسعد — مشكله المخدرات فى مصر (مجلة الأمن العام العدد ٨٦)

٢ ـ التقرير السنوى لعام ١٩٧٧
الاداره العامه لمكافحة المخدرات فى مصر

٣ ـ محمد السيد أيوب
تقارير نشرت فى المجلة الدورية للمجالس القومية المتخصصة ـ رئاسة الجمهوريه ـ وهى :
١ ـ التعاون الزراعى فى مصر (عدد ابريل ـ يونيه ١٩٧٧)
٢ ـ العمل والعمال فى قطاع الزراعة (اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٧٧)
٣ ـ استصلاح الاراضى (يناير ـ مارس ١٩٧٩)
٤ ـ التفاوت فى الانتاج الزراعى (يوليه ـ سبتمبر ١٩٨٠)
٥ ـ الضرائب الزراعية (ينـاير ـ مارس ١٩٨١)
٦ ـ دور الزراعة فى مستقبل مصر (اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٣)
٧ ـ الهندسه الوراثية ومشكلة الغذاء فى مصر (يوليه ـ سبتمبر ١٩٨٥)

فهرست

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الآراء والأفكار الواردة فى هذا المطبوع مسئولية المؤلف

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الإيداع : ٢٤٢١ /١٩٩٣

رقم دولى : ٤ ـ ٠١٥ ـ ٢٢٩ ـ ٩٧٧

١٠ جنيهات

طبع بمطابع مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر